

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة مولود معمري تيزي وزو

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية



حركة الدوارين (305-429م)

مذكرة لنيل شهادة الماستر في تاريخ وحضارة المغرب القديم

من إعداد الطالبتين:

سايعي ليلى

خلوز كاتية

الأستاذ المشرف: بوسلن صفيان

أعضاء لجنة المناقشة

مؤسسة الانتساب	الصفة	الأستاذ
جامعة مولود معمري-تيزي وزو	رئيس الجلسة	أ.د. نور الدين كريمة
جامعة مولود معمري-تيزي وزو	مشرفا ومقررا	أ. بوسلن صفيان
جامعة مولود معمري-تيزي وزو	عضوا مناقشا	أ.د. فراح فازية

السنة الجامعية: 2022-2023

شكر وعرفان

الحمد لله جلّ وعلا أولاً وأخيراً فقد أمان ووفقني إنجاز هذا العمل المتواضع وعملاً
بقوله صلى الله عليه وسلم: «من لم يشكر الناس لا يشكر الله».

واعتزافنا بالفضل والتقدير الجميل لا يسعنا بعد الانتماء من إعداد هذه الدراسة إلا
بالتوجه بالشكر والامتنان إلى الذي تفضل بالإشراف على هذه المذكرة وكان له الدور
الكبير في متابعة أفكارنا ولم يبخل علينا بالنصح والتوجيه حتى أحر المطاف إلى الأستاذ
بوسلن صفيان.

كما نتقدم بخالص الشكر إلى كل أساتذة التخصص المحترمين الذين مدونا بالمساعدة
والتوجيهات القيمة.

ونتوجه بالشكر الجزيل إلى أعضاء اللجنة المناقشة لقبولهم مناقشة هذه المذكرة.
وفي الأخير نتقدم بالامتنان إلى من ساندنا في أفراد العائلة والأصدقاء، ولكل من أمدنا
ببذ العون من قريب أو بعيد ولم يبخلوا علينا ولو بكلمة طيبة.

كاتبة، ليلة

إهداء

أهدي ثمرة جهدي إلى التي منحتني الحياة، وأحاطتني بحنانها وحرصت على تعليمي
بصبرها وتضحياتها إلى كل من كان دعاءها سرّ نجاحي "أمي" الغالية حفظها الله
ورعاها.

إلى الذي دعمني في مشواري الدراسي وكان وراء كل خطوة خطوتها في طريق العلم
والمعرفة "أبي" الغالي رعاه الله وأطال عمره.

إلى من هم أنس عمري ومخزن ذكرياتي أخي العزيز "مالك" وأختي الغالية "خلوجة".
كما لا يفوتني أن أخص إهدائي إلى الشخص الذي ساعدني ودعمني كثيرا، إلى
زوجي وقرّة عيني "سعيد".

إلى عائلتي وأصدقائي وجميع أساتذتي الكرام وإلى كل الأشخاص الذين أحمل لهم
المحبة والتقدير والذين نساهم القلم ولم ينساهم القلب لكم مني جزيل الشكر.

كاتبة

إهداء

إلى من وضع المولى - سبحانه وتعالى - الجنة تحته أقدامها ووقرها في كتابه العزيز...
(أمي الحبيبة).

نسير في دروب الحياة، ويبقى من يسيطر على أذهاننا في كل مسلك نملكه.

صاحب الوجه الطيب، والأفعال الحسنة، فلو يبذل عليّ طيلة حياته (والدي العزيز).

إلى أخي الصغير قرة عيني والذي ساندني في كل مواقف الحياة.

وإلى كل أفراد عائلتي وأصدقائي دون أن أنسى أساتذتي الأفاضل وكل من ساندني
في مشواري الدراسي ولو بالشيء القليل.

لهلة

قائمة المختصرات باللغة الجنبية:

- A.H.E.S.** =Annales d'Histoire Economique et Sociale.
- Dic. Univ. Hist. Géo.** = Dictionnaire Universel d'histoire et géographie.
- H.L.A.C.**=Histoire Littéraire de l'Afrique Chrétienne depuis les origines jusqu'à l'invasion arabe.
- Let. Con. Petil.** =Lettre Contre Petillien.
- Rev.Af.** =Revue Africaine.

المقدمة

لقد توافدت ديانات عديدة إلى منطقة بلاد المغرب القديم منها الوثنية والسماوية، ومن هذا التعدد نذكر الديانة المسيحية التي تركت بصمتها وخلفت أثرًا بالغًا في نفوس الأفارقة والتي تُعدّ من أسمى الديانات السماوية، بحيث أنها نادت إلى التخلي عن عبادات الأوثان وتأليه الإمبراطور وردّ الاعتبار للإنسان ودعت إلى المساواة والعدل والتسامح. الأمر الذي دفع بسكان المنطقة خاصة الطبقة الكادحة بإعتناق المسيحية لكونهم وجدوا فيها خلاصًا من العبودية والظلم وإسترجاعاً لكرامتهم وحقوقهم التي سُلبت منهم، وكذا عمّت الطبقة واللامساواة في المجتمع الأمازيغي، فبتخليهم عن العبادات السابقة الذكر ثارت السُلطة الرومانية ضدهم وردّت على معتقي المسيحية بشتى أشكال العنف متبوعة بسلسلة من الإضطهادات خاصةً في قرطاج ونوميديا.

لكن مع ذلك ظلت طموحات معتقي المسيحية قوية إلى أن تحقق مبتغاهم في زمن الإمبراطور "قسطنطين" سنة 313م بعد صدوره لقانون ميلانو الذي نصّ على تبني السُلطة الرومانية للديانة المسيحية التي لم تلبث أن شهدت إنشقاقا داخل الكنيسة بين أساقفتها سنة 305م، وذلك نتيجة للصراعات والخلافات بسبب ضُعفاء النفس الذين قاموا بتسليم الكتب المُقدسة في فترة إضطهادات ديوقلديانوس 303-305م، فعرفت منطقة بلاد المغرب القديم ظهور كنيستين معاديتين وهما؛ الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الدوناتية، وعلى إثر هذه الخلافات والأوضاع المزرية والصعبة التي مرّت بها هذه المنطقة.

وفي ظلّ هذه الظروف برزت حركة إجتماعية التي عُرفت بإسم حركة الدوارين التي بدأت سنة 305م إلى غاية 429م، والتي جاءت كردّ فعل رافض للأوضاع المجحفة التي تخدم مصالح الأغنياء على حساب الفقراء، الذين مثلوا هذه الثورة والتي إعتبرتها السُلطة المتحالفة مع الكنيسة الكاثوليكية أنها حركة متكونة من عصابات و اللصوص و قُطاع الطُرق وعناصر لإثارة الشغب مُسيرين من طرف الدوناتيين كما وصفتهم أغلب المصادر الكاثوليكية، بينما إعتبرتهم الكنيسة الدوناتية مناضلين وقديسين يدافعون عن العبيد والفلاحين ضدّ المُلاك المستغلين لهذه الطبقة الضعيفة. والتي إنضمت وإنحلت إلى ثورات أبناء نوبل "فيرموس" سنة 372م، ثم "جيلدون" سنة 375م.

ومن بين الأمور التي جعلتنا نختار هذا الموضوع هي:

حاجتنا للتعرف على هذا الموضوع بدقة وقُرب وبكُلّ موضوعية. بحيث أردنا معرفة تفاصيل هذه الحركة والظروف التي أدت إلى بروزها، ومعرفة كلّ المحطات التي مرّت بها، وباعتباره موضوع شيق سبق وأن تمّت دراسته بوجهات نظر مختلفة، لكنه كان يُندرج كعُنصر في أبحاث خاصة بالحركة الدوناتية، لهذا أردنا تسليط الضوء عليه، والتغلغل في ثنايا أحداثه.

ولبلوغ الأهداف المرغوب بها في هذه الدراسة توجب علينا وضع عدة تساؤلات وإشكاليات والتي سوف نحاول الإجابة عليها في المتن. ونذكر السؤال الرئيسي والمتمثل فيما إذا كانت حركة الدوارين هي حركة إجتماعية تدافع عن الطبقة الكادحة أم هم مجرد لصوص وقُطاع طُرُق يعتدون على المُلاك؟

أما الأسئلة الفرعية تتمثل في:

- من هم الدوارين؟ وإلى أي طبقة ينتمون؟ وماهي طبيعة حركتهم؟
- ماهي العوامل التي أدت إلى ظهور هذه الفئة؟
- وما هي أهم المحطات التي مرّت بها؟
- فيما تكمن علاقة الدوارين بالدوناتية وثورة الأخوين فيرموس وجيلدون؟
- وكيف كان ردّ فعل السُلطة الزمنية منها؟
- ما هي الفترة الزمنية التي ظهر فيها التحالف بين حركة الدوارين والحركة الدوناتية؟
- كيف كانت الظروف الإقتصادية والإجتماعية بالأرياف في ظلّ نظام ملكية واستغلال الأراضي؟ ومن هي الطبقات المُستفيدة والمتضررة منه؟
- كيف كان موقف الدوارين من السُلطة الزمنية؟ وماهي الأساليب التي إتبعوها للتعبير عن هذا الرأي؟
- ماهي الفئات المساندة والمناوئة لهذه الحركة؟

- هل حافظت الكنيسة الكاثوليكية على المبادئ المسيحية بعد تنصُر السلطنة؟ أم أنها تحالفت مع السلطنة وكبار الملاك لإحتكار خيرات بلاد المغرب القديم وتخليها عن مضمون رسالتها؟

أما فيما يخص المنهج المتبع هو:

-**المنهج التاريخي الوصفي:** الذي اعتمدنا عليه لوصف تلك الحقبة التي شهدت الانشقاق، بالخصوص وقائع اضطهادات أباطرة الرومان لأتباع الديانة المسيحية في البداية ثم للدوارين والدوناتيين بعد الإنشقاق، كما وظفناه للتعريف بالشخصيات التاريخية وبعض المصطلحات الواردة في الموضوع.

-**المنهج التاريخي المُقارن:** بحيث لم يجدر بنا النقل من المؤرخين الكاثوليك والأجانب، حيث أنهم كانوا متحيزين نوعا ما، فكان يتوجب علينا القراءة والبحث المُعمق للإستنتاج الوقائع والمقارنة بين الأحداث، فقد لاحظنا في بعض الأحيان أنه هناك تناقضات في النصوص لدى نفس المؤلف، مثلا نصوص القديس أغسطين، كما يختلف المؤرخين في الآراء فيما بينهم. لهذا حاولنا أن نُحص هذه الآراء لنكون موضوعيين، ولتكوين موضوع ومحتوى يفيدنا ويُفيد القارئ.

لإنجاز هذه الدراسة وكذا للإجابة على التساؤلات المطروحة حول موضوعنا قمنا بتقسيم البحث إلى مقدمة وفصل تمهيدي وأربعة فصول وخاتمة. فبدأنا بالفصل التمهيدي الذي تناولنا فيه الأوضاع العامة لبلاد المغرب القديم قُبيلَ ظهور حركة الدوارين، مُركزين عن الأوضاع الاجتماعية والدينية. أما الفصل الأول خصصناه للتعريف بالدوارين وماهية حركتهم، وقسمناه إلى أربعة مباحث مبرزين فيها تعريف الدوارين لغةً وإصطلاحاً وتعريفهم كما جاء في المصادر الكاثوليكية وكذلك في المصادر الحديثة، بالإضافة إلى التسميات التي أطلقوها على أنفسهم.

أما الفصل الثاني المعنون بحركة الدوارين (نشأتها وتطورها) فقد قسمناه إلى أربعة مباحث حيث تناولنا فيه أسباب ظهور هذه الحركة مع إبراز سماتها الاجتماعية وكذا سيكاتها الدينية، كما أشرنا إلى ما كانت عليه سنة 347م (أحداث باغاي).

وفي الفصل الثالث تطرقنا إلى توضيح علاقة الدوارين بالحركة الدوناتية، ولهذا قسمناه إلى أربعة مباحث، حيث عرضنا مشكل الإنشقاق الدوناتى في تعاملها مع الدوارين، ثم أشرنا إلى العلاقة بين هاتين الحركتين قبل سنة 347م، فيما بعد أشرنا إلى أحداث باغاي البارزة سنة 347م، ثم طبيعة العلاقة بينهما سنة 347م.

وخصّصنا الفصل الرابع والأخير لدراسة العلاقة بين ثورتَي فيرموس وجيلدون مع ثورة الريفيين، وركزنا في المبحثين الأولين حول ثورة فيرموس، وتطرقنا لتوضيح ماهية هذه الثورة، وأسباب حدوثها، مع تحديد الإطار العام لهذه الثورة وإظهار علاقتها بثورة الريفيين. أما المبحثين الآخرين فقد خصصناه لثورة جيلدون، كما عرضنا فيه شخصية هذا الأخير وأسباب ثورته وكذا العلاقة التي تربطه مع ثورة الريفيين.

ومن أجل إنجاز وإتمام هذا العمل قمنا بالاستعانة بمجموعة من المصادر والمراجع والتي ساعدتنا وخدمتنا كثيرا لدراسة موضوعنا هذا، نذكر أهمها:

1-المصادر:

مؤلفات القديس أغسطين المتمثلة في: (Du baptême contre les Donatistes, Livre I) "المعمودية ضد الدوناتيين" والذي اعتمدنا عليه في الفصل التمهيدي في إنتقاده للدوناتيين فيما يخص مشكلة التعميد. بالإضافة إلى "المراسلات" (Les lettres) التي ساعدتنا لإنجاز الفصل الأول، حيث إستخدمناها لتوضيح مختلف التسميات التي أطلقها الدوارين على أنفسهم، وصفاتهم حول ظاهرة الإستشهاد.

وقد استعنا بكتاب (Ammien Marcelin, Histoire de Rome, Livre XXIX) "تاريخ روما"، لإتمام الفصل الرابع وعرض الأسباب التي أدت لحدوث ثورة فيرموس، وبالتحديد إستعنا به لتفسير كيف حاول رومانوس التفريق بين أبناء نوبل لمساندته لساماك ضدّ أخيه فيرموس.

كما اعتمدنا على كتاب (Claudien, La Guerre de Gildon) "الحرب ضد جيلدون" في نفس الفصل وفي الجزء الذي تناولنا فيه ثورة جيلدون، حيث وصف لنا

الأوضاع المتردية والمزرية التي أصابت روما آنذاك وكيفية إستغلالهم لمنطقة بلاد المغرب لتغطية إحتياجاتهم، كما تحدث حول قيام جيلدون بتحديد مقدار الحبوب التي ساعد بها روما سنة 395م، والتي لخصها كلوديان على شكل شعر.

2-المراجع: من أهم المراجع التي خدمت موضوعنا والتي اعتمدنا عليها لإتمام هذا العمل نذكر بعضها:

كتاب محمد المبكر بعنوان شمال إفريقيا القديم-حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية (305-429م)، والذي اعتمدنا عليه كثيرا، بحيث إستخدمناه في كل الفصول تقريبا ما عاد الفصل الرابع، والذي كان غنياً بالمعلومات التي تعذر لنا الوصول إليها مثل تلك المذكورة في كتاب أوبطاميلي والقديس أغسطين. بالإضافة إلى كتاب محمد البشير شنياتي حول (التغيرات الإقتصادية والإجتماعية في المغرب القديم أثناء الإحتلال الروماني)، الذي ساعدنا في إتمام الفصل التمهيدي المتعلق بتحديد الأوضاع الإجتماعية وكذا الدينية التي كانت عليها منطقة شمال إفريقيا.

بالإضافة إلى بعض المراجع باللغة الفرنسية التي خدمت موضوعنا نذكر منها:

(Decret,F.et Fantar, M., L'Afrique du Nord dans l'antiquité, histoire et civilisation des origines au V eme siècle) "شمال إفريقيا في العصور القديمة، التاريخ والحضارة من أصولها إلى القرن الخامس" بحيث اعتمدنا عليه في الفصل الثالث والرابع، والذي تحدث عن عائلة نوبل وتفاصيل ثور فيرموس.

(Monceaux (P), Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne depuis les origines jusqu'à l'invasion arabe. T 4) إلى جانب كتاب

"التاريخ الأدبي لإفريقيا المسيحية من الأصول إلى الغزو العربي، الجزء الرابع" والذي ساعدنا كثيرا بحيث تناول موضوع حركة الدوارين وملف الحركة الدوناتية بشكل مفصل لهذا كان مرجعا أساسيا لنا لإتمام العمل.

3-المقالات:

كما إعتمدنا على مجموعة من المقالات باللغة العربية والفرنسية، نذكر منها:

مقال "فانيي" (O. Vannier) بعنوان «Les circoncillions et leurs rapport avec les donatistes d'après les texte d'Optat»

حيث تناولت الباحثة "الدوارين وعلاقتهم بالدوناتية من خلال دراسة أوبطاميلي"، والتي رأت أن التحالف الذي وقع بين الطرفين كان نتيجة للظروف التي كانت عليها منطقة بلاد المغرب القديم وبالتحديد في نوميديا.

كما اعتمدنا على مقال "شارل صوماني" (Ch. Saumagne) تحت عنوان: «Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers ? les circoncillions d'Afrique»

"عمال المزارع أم قبو الجوالات؟ دوازي إفريقيا" والذي وضّح أن الدوارين هم في الحقيقة فلاحين وعمال مزارعون وليس مجرد لصوص أو قُطاع طرُق، كما وصفتهم أغلب المصادر والمراجع الأخرى.

بالإضافة إلى مقال حمودي نبيلة بعنوان "الدوناتية ودورها في مقاومة الرومان خلال القرنين الرابع والخامس ميلاديين"، والتي إعتمدنا عليها في إنجاز الفصل الثاني لإظهار الظروف التي نشأت فيها حركة الدوارين وكذا طبيعة عملها. كما إعتمدنا عليها في الفصول الأخرى كذلك.

4-المذكرات:

أهمها مذكرة الربيع عولمي بعنوان "المسيحية في بالد المغرب القديم ودورها في أحداث القرنين الرابع والخامس الميلاديين"، والتي إعتمدنا عليها كثيرًا بحيث غطى الأحداث التي تعلق بموضوعنا، وأننا استخدمناها تقريبًا في كل الفصول.

بالإضافة إلى مذكرة عمران عبد الحميد "الديانة المسيحية في المغرب القديم-النشأة والتطور-(180-430م)".

مذكرة منصورى خديجة "الدوناتية وثورات القرن الرابع ميلادى فى شمال إفريقيا"،
والتي اعتمدنا عليها لإعداد الفصل الرابع الخاص بثورتي فيرموس وجيلدون وعلاقتهما
بثورة الريفيين.

إلى جانب مجموعة أخرى من المذكرات والمراجع وكذا المقالات التي أدرجناها في
القائمة البيبليوغرافية.

أما بالنسبة للأهداف المراد الوصول إليها من خلال هذا العمل نذكر بعض النقاط
المتمثلة في:

- إظهار الأسباب الحقيقية التي دفعت بهذه الفئة (الدوارين) للقيام بهذه الثورة.
- إبراز بعض الحقائق التاريخية لكي لا تقع في المغالطات عند قراءتنا لما كُتبت من تاريخ
منطقة بلاد المغرب القديم بأقلامٍ أجنبية.
- إظهار حقيقة حركة الدوارين على أنها حركة منظمة مبنية على مبادئ وأسس، عكس ما
كان يصفها المجادلون الكاثوليك بأنها مجموعة من قُطاع الطرُق والأصوص.
- إثبات أن السُلطة الرومانية لم تتمكن من إحكام قبضتها بصفة كُلية على منطقة بلاد المغرب
القديم، بحيث أنهم لقوا الرفض من قِبل السُكّان المحليين وهذا دليل على فشلهم في السيطرة
على المنطقة، كما يتجلى في مجريات هذه الثورة.
- إبراز الغاية النبيلة التي قامت عليها هذه الثورة التي تسعى إلى ترسيخ مبادئ وعقائد الديانة
المسيحية التي تدعو للمساواة، ولهذا تحالفت مع الكنيسة الدوناتية التي رأت فيها سندًا
لإخراج هذه المجتمع من البؤس والفقر والعبودية.
- إبراز مكانة الدوارين بين سُكّان الأرياف والنشاط الأقتصادي الذي كان يقومون به.

أما فيما يخصّ الصعوبات والعراقيل التي صادفناها هي:

- أن معظم المصادر وكذا المراجع المُتاحة والتي تخدم الموضوع توفرت باللغات الأجنبية،
لهذا واجهنا بعض المشاكل في الترجمة والتي أخذت منا الوقت.

- قلّة المصادر التي كانت موضوعية عند دراستهم لهذا الموضوع، حيثُ إلتمسنا فيها نوعٌ من التحيز والميول لما يخدم مصالح السلّطة والكنيسة الرسمية، على سبيل المثال نذكر المصادر الكاثوليكية وما تلاها من المراجع والمصادر المعاصرة.

- عدم توفّرنا على مصدر أساسي ومهمّ والذي هو كتاب أوبطاميلي بحيث تنقلنا إلى أكثر من مكتبة وقصدنا العديد من الأساتذة الباحثين، إلا أننا لم نتمكن من الحصول عليه.

وفي الختام نتمنى أن نكون قد تمكنا من إنجاز هذه المذكرة وفقا لما يتطلبه البحث العلمي.

الفصل التمهيدي:

الأوضاع العامة في المغرب القديم قبيل ظهور حركة

الدواوين.

أولاً: الأوضاع الاجتماعية.

ثانياً: الأوضاع الدينية.

ثالثاً: بؤادر الانشقاق.

أ) مشكلة المرتدين.

ب) مشكلة الانشقاق داخل الكنسية.

ج) مشكلة التعميد.

لقد عرفت الديانة المسيحية انتشارا واسعا في بلاد المغرب القديم، ولقيت إقبالا من طرف مختلف أفراد الطبقات الاجتماعية، خاصة الطبقة الفقيرة والمعدومة، التي سارعت إلى اعتناق هذه الديانة الجديدة بأعداد غفيرة، وهذا عائد إلى المبادئ السامية التي جاءت بها.

حيث شهدت المنطقة أوضاعا اجتماعية مُزريّة، في ظلّ الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية (تأليه الإمبراطور) وإلى جانب المعتقدات الوثنية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، ومنعت من تحقيق الاستقرار الاجتماعي، و بذلك كانت الدافع الحقيقي وراء انتشار الديانة المسيحية بسرعة، بحيث كانت هذه الأخيرة بمثابة شُعلة مضيئة وسط الظلام الدامس، كونها تدعو للعدل والتسامح والتآزر الاجتماعي، فألانت قلوب الناس، فتسارعوا للدخول في هذا الدين الجديد، بحيث بلغ عددهم في أوائل القرن الثالث ميلادي أكثر من مائة ألف مسيحي. (أنظر الخريطة رقم 1 صفحة 12).

وبالتالي تزايد عدد المسيحيين وكذا الدعوة للفرار من الجندية، الأمر الذي أزعج السلطة وحاولت وضع حد لذلك، ومن هنا بدأت سلسلة من الاضطهادات وذلك بداية من عهد الإمبراطور "كومودوس" (Comodus) * (180-192م) سنة 180م¹.

ولم يتوقف الاضطهاد عند هذا الحد، بل استمر حتى فترة حكم "لوكيوس سيفيريس" (Locius severus) (193-211م)، ورغم هذا تمتع المسيحيين بنوع من الهدوء والسلم فيما تبقى في فترة حكم العائلة السيفيرية (193-235م).

ولكن سرعان ما عاد الاضطهاد من جديد مع مرسوم سنة 250م في فترة حكم الإمبراطور "تراجانوس ديكيوس ديقيانوس" (TRAGANUS DECIUS)

* لوسيويس أوريليوس كومودوس: ولد في 161م في لانفونيوم LANFIUM بالقرب من روما، وهو ابن الإمبراطور ماركوس أوريليوس، حكم بالاشتراك مع والده في عام 176م، حتى وفاته، ثم واصل الحكم بمفرده حتى 192م وذلك بعد زمن "نيرون" خلال القرن 2 م، وتوفي في 31 ديسمبر 192م، عرف بأسلوبه الديكتاتوري في الحكم. للمزيد أنظر:

–Oliver Hekster, Commodus an emperor at the crossroad, doctorat thesis at Nignegen university, 10-04-2002, Netherland, p1

¹ - محمد الهادي حارش، التاريخ المغربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى غاية الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية لطباعة، الجزائر، 1992، ص 224-225.

(DICIANUS)* (249-251م)، فتراوحت الأوضاع بين الهدوء والاضطهاد رغم تطور المسيحية ببناء الكنائس وتزايد عدد المعتنقين لمدة 40 سنة بعد الإمبراطور "فاليريانوس" (VALERIANUS)** (253-260م). لكن سرعان ما عادت الأوضاع إلى سابق عهدها في فترة حكم الإمبراطور "ديوكليتيانوس" (DIOCLETIANUS)*** (284-305م).

أولاً: الأوضاع الاجتماعية:

كان سكان بلاد المغرب القديم عند ظهور الديانة المسيحية يعيشون أوضاعاً اجتماعية مزرية، في ظل السياسة التي انتهجتها السلطة الرومانية، والمبنية على الاستبداد والاستيلاء على الأراضي والاستغلال الطبقي، حيث قامت بمصادرة أغلب الأراضي الخصبة بعد انتزاعها من أصحابها بالقوة، بالإضافة إلى استيلائها على الغابات والأراضي الرعوية، والتي أصبحت إما ملكاً للإمبراطور (الولايات الإمبراطورية، خزينة خاصة عائدة للإمبراطور) أو الرومان ذوي الامتيازات الخاصة في المجتمع مثل مجلس الشيوخ -الخزينة العامة-، العائدة للشعب الروماني)، حيث نجد في تلك الفترة أن نصف مساحة إفريقيا كانت تحت يد ستة (6) ملاك من أعضاء مجلس الشيوخ¹.

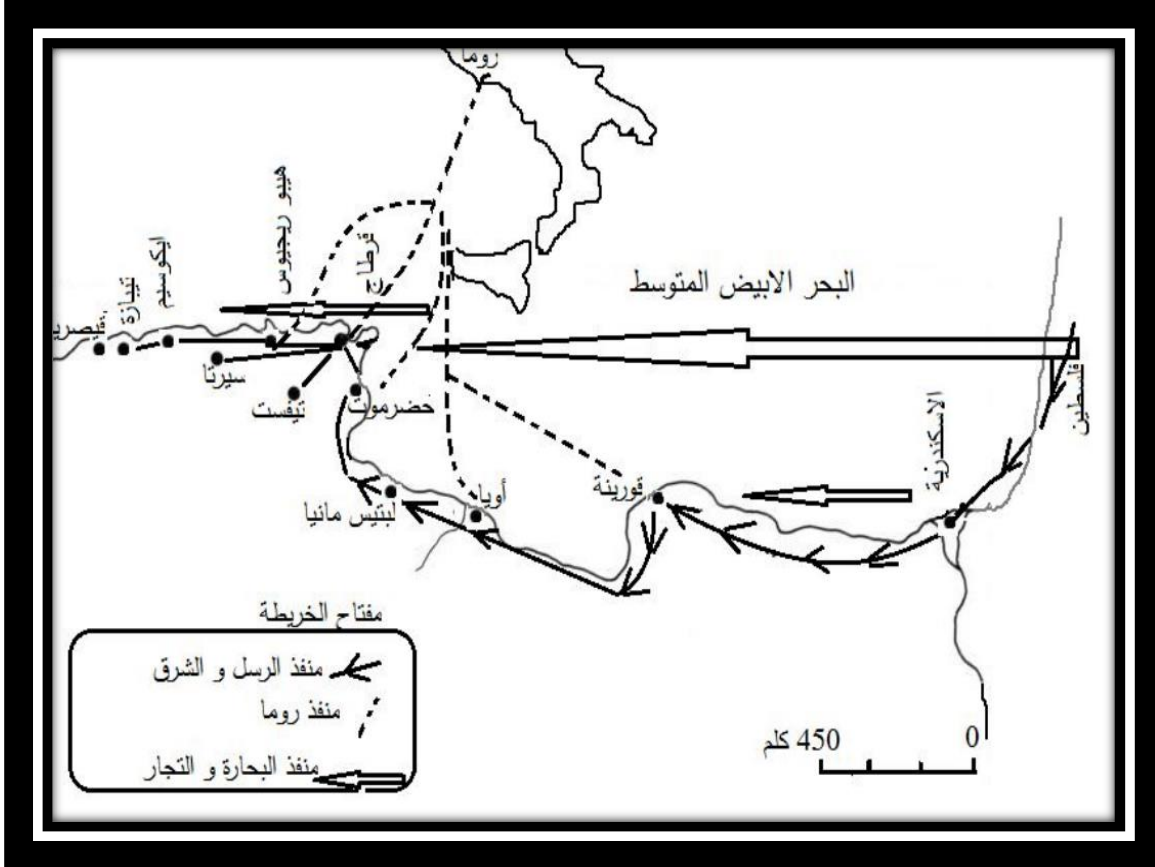
*تراجانوس ديكوس ديقيانوس: أول إمبراطور روماني حرم الديانة المسيحية وأحيى التشريعات الصارمة ضد الهيئات والاجتماعات السرية قام بإعدام من رفض تقديم قرابين للتمثال الإمبراطوري. للمزيد انظر مقال: أحمد محمد أنديشة، "اضطهاد الأباطرة الرومان لأتباع الديانة المسيحية"، من المجلة العلمية، المجلد س1، العدد1، جامعة مصراتة، يونيو 2014، (ص-ص 60-95)، ص66. الرابط:

<http://search.mandumach.com/Record/764779>

**لسينيوس فاليريانوس: ولد عام 199م، حكم من 253 إلى 260م، كان في بداية حكمه متسامحاً مع المسيحيين، لكن سرعان ما انقلب ضدهم سنة 257م، وأحد مرسوم يطلب من الأساقفة والقساوسة بتقديم القرابين، ومنع إقامة القدسات واللقاءات في المقابر، وهذا ما أدى إلى عمليات اعتقال ونفي والإحكام بالعمل الإجباري، ثم تقاوم الأمر مع مرسوم سنة 258م. للمزيد أنظر: أحمد محمد أنديشة، المرجع السابق، ص70.

¹ - أويحي سعيده، الديانة المسيحية في بلاد المغرب القديم من نهاية القرن الثاني الميلادي إلى بداية القرن الخامس الميلادي (180-411 م) أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ القديم، قسم التاريخ كلية العلوم الإنسانية، الجامعة الجزائرية أبو القاسم سعد الله (2016-2017)، ص128.

***ديوكليتيانوس إمبراطور روماني، عاش بين 284م و305م، في العشرين سنة الأولى كان يحترم منشور التسامح الذي أصدره جالينوس Gallinus، عُرف بإصلاحاته الاقتصادية واضطهاداته للمسيحيين الذين رأى فيهم تهديداً للكيان لسياسي للدولة، فأصدر مرسوم الاضطهاد في عام 303م. للمزيد أنظر: أحمد محمد أنديشة، المرجع السابق، ص-ص 171-172.



خريطة رقم 1: منافذ المسيحية إلى بلاد المغرب القديم

نقلا عن: عمران عبد الحميد، الديانة المسيحية في المغرب القديم-النشأة والتطور- (180-430 م)، أطروحة دكتوراه في العلوم، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري- قسنطينة، 2010-2011، ص 87.

رغم أن معظمهم كانوا لا يقيمون في تلك الأرض، بحيث ظل عدد منهم بروما فكلفوا عددا من الملاك المسيرين ليشرّفوا عليها، ويكون تحت تصرفهم عدد من الأجراء والعبيد الذين انتزعت منهم هذه الأراضي¹.

مما يوضح الحالة العقارية لإفريقيا مع بداية الاحتلال في القرن الأول ميلادي.

حيث كانوا هؤلاء العبيد يعانون من سوء المعاملة في أغلب الأحيان، إذ كانوا يتعرضون للسخرة والضرب والتكيل ولكل أنواع العنف، ولا يتم تزويجهم بالطرق القانونية، ولا يسمح لهم بممارسة مراسيمهم الدينية، وفي حالة إنجابهم لأبناء فإنهم يصبحون ملكا لسيد العبيد منذ الولادة، أما بالنسبة للنساء فيتم استغلالهن في الأعمال المنزلية كالطبخ، وكذا في الأعمال الغير الأخلاقية والغير الشرفية².

كانت لهذه السياسة التي اتبعتها روما، نتائج وخيمة على أفراد مجتمع المغرب القديم، وعند دخول الديانة المسيحية للمنطقة نلاحظ أنها نددت بكل الأعمال السابقة الذكر بحيث أنها كانت مختلفة تماما عن الديانات السائدة آنذاك، فطالبت معتنقيها بقطع علاقاتهم مع العبادات السابقة والتفرغ إلى عبادة الله، و التخلي على الدين الوثني، و حرف ما كانوا يعبدونه من قبل³.

وفقا لما سبق ذكره بدأت سنوات الاضطهاد ضد المسيحيين، و التي امتدت على نحو قرنين و نصف (64-311 م)، غير أن هذه الاضطهادات لم تكن متواصلة بل تخللها بعض فترات الهدوء، و لقد كانت بداية الاضطهاد للمسيحيين مع الامبراطور " نيرون" (NERO CLAUDIUS CAESAR)⁴ (أنظر الصورة رقم 1 صفحة 16)، الذي اتهمهم بتدبير عملية إضرام النار في مدينة روما، و سنّ قانونا يمنع فيه اعتناق المسيحية أو التبشير لها

¹ - محمد العربي عقون، الإقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص 128.

² - عمران عبد الحميد، المرجع السابق، ص-ص 89-90.

³ - حميدة نشنش، رجال الدين في بلدان المغرب القديم من ظهور المسيحية في نهاية القرن الثاني ميلادي إلى غاية السلام المسيحي سنة 313 م من خلال تروتيانوس (Tertulianus) كبيريانوس (Cyprianu)، مذكرة الماجستير في التاريخ القديم، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، (2008-2009)، ص 102.

⁴ - زموري خديجة، القديس أغسطس بين السلطة الرومانية والمجتمع المحلي، أطروحة الدكتوراه، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة 8 ماي 1945 قالمة، (2017-2018)، ص 112.

علانية، وهو قانون تم تعديله تدريجياً من طرف "تراجانوس" (TRAJANUS) (أنظر الصورة رقم 2 صفحة 16) و "هادريانوس" (HADRIANUS) ثم "ماركوس أوريليوس" (MARCUS AURELIUS) ¹. (أنظر الصورة رقم 3 صفحة 17).

ومن ثم أنزل على المسيحيين أشد أنواع العذاب، فمنهم من دُقَّ بالمسامير و صُلب، و خُيِّطَ آخرون في جلود الحيوانات المتوحشة، و استُخدموا كالمشاعل تضيئ حنكة الليل، كما رُمِيَ البعض إلى الوحوش الضاربة علانية، لِتُلَهَى بهذه المشاهد خصوم المسيحيين و كل من يكن لهم بالعداء ².

وهنا يمكن تمييز مرحلتين متتاليتين للاضطهاد في عهد "نيرون"، حيث تتميز المرحلة الأولى بشن حملة واسعة من الاضطهادات ضد المسيحيين تنفيذاً للأوامر التي أصدرها سابقاً، أما المرحلة الثانية تتسم بصدور مجموعة من المراسيم الامبراطورية التي تمنع اعتناق المسيحية ³.

ولقد بقي هذا القانون الذي أصدره هذا الأخير ساري المفعول على يد الأباطرة الذين تعاقبوا من بعده، من أهمهم الإمبراطور دوميتيانوس (81-96 م) (أنظر الصورة رقم 4 صفحة 17)، الذي بدأ في اضطهاد المسيحيين عام 95م، و اعتبر اعتناق المسيحية جريمة ضد الدولة، وحكم على الكثير منهم بالموت، ونفي بعضهم الآخر وصادر ممتلكاتهم ⁴، وكان سبب هذه الاضطهادات هو رفض المسيحيين لتأليه الإمبراطور وتأليه أبيه و أخيه وزوجته، وقد أنشأ طائفة من الكهنة ليشفروا على عبادة أولئك الأرباب، وأمر المسيحيين بتقديم القرابين لتمثاله وعند رفضهم أمر بقتلهم سنة 93 م ⁵.

¹ - محمد البشير شنييتي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني ودورها في أحداث القرن الرابع ميلادي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 273.

² - أحمد محمد أنديشة، المرجع السابق، ص 65.

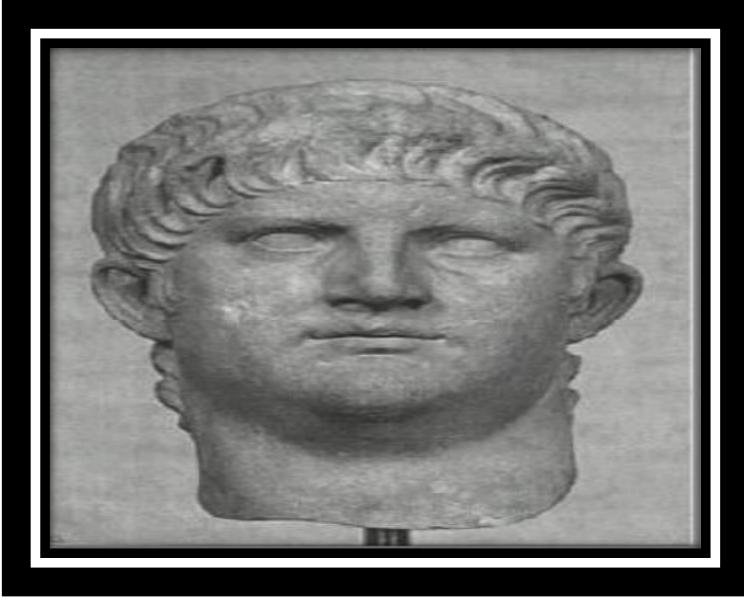
³ - الربيع عولمي، المسيحية في بلاد المغرب القديم ودورها في أحداث القرنين الرابع والخامس الميلاديين، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ القديم، قسم التاريخ القديم قسم الآثار، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة باتنة 1، (2015-2016)، ص 277.

⁴ - أحمد محمد أنديشة، المرجع السابق، ص 65.

⁵ - الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 281.

كما لم يسلم المسيحيين من اضطهادات هادريانوس، ويليه تراجان (91-117م)، الذي منع اعتناق المسيحية واضطهد متبعيها، وبعدها عرفت المنطقة فترة من السلم إلى غاية 202م¹.

¹- زموري خديجة، المرجع السابق، ص 113.



صورة رقم 1: الإمبراطور نيرون (44-68م).

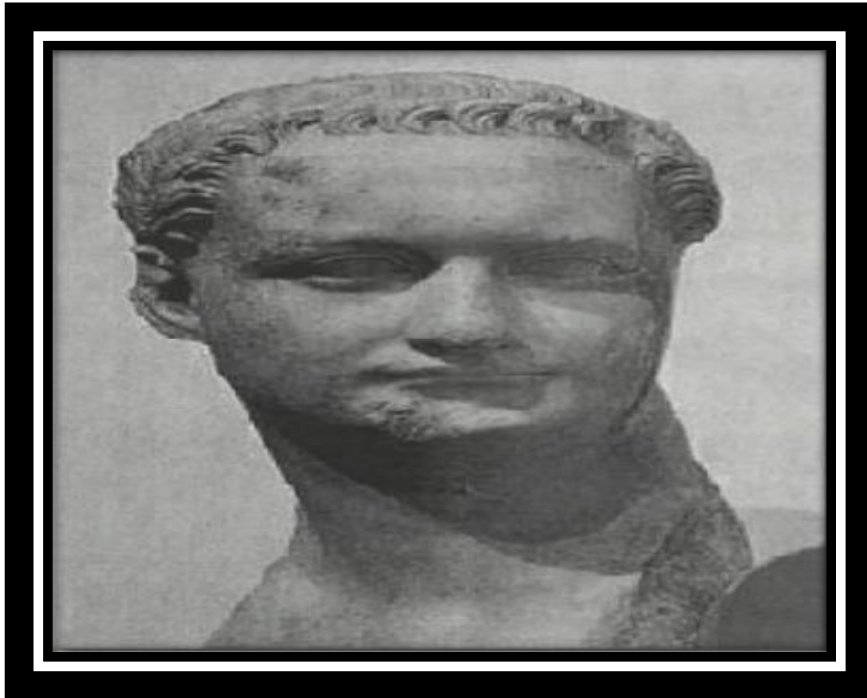


صورة رقم 2: الإمبراطور تراجانوس (249-251م)

نقلا عن: - أحمد محمد أنديشة، المرجع السابق، ص-ص 74-75.



صورة رقم 3: الإمبراطور ماركوس أوريليوس (161-180م)



صورة رقم 4: الإمبراطور دوميتيانوس (81-96م).

نقلا عن: - أحمد محمد أنديشة، المرجع السابق، ص-ص 74-75.

ثانياً: الأوضاع الدينية:

عند اعتلاء الإمبراطور "سيبتيموس سيفروس" (SEPTEMUS SEVENUS) العرش (193-211م) (أنظر الصورة رقم 5 صفحة 21)، قام بتحريم نشر الديانة اليهودية والمسيحية¹.

وبعد وفاته تشجع المسيحيون وضاعفوا حركتهم التبشيرية وأعادوا تنظيم الجهاز الكنسي وأوجدوا أسقفيات جديدة (أنظر الخرائط 2 و3 صفحة 22)، وآلت الإمبراطورية بعده إلى تراجانوس ديكيوس (201-251) م، الذي حمل المسيحيين تدهور الأوضاع الداخلية. فالاضطهاد الذي حل بالمسيحيين في عهده أدى إلى استشهاد أسقف مدينة روما "فابيانوس الثاني" (FABIANUS II) سنة 250م، ومن شدة عنف سياسة "ديكيوس" أدى إلى تراجع المسيحيين عن دينهم و عدم تحملهم².

كما أصدر الإمبراطور "ليسينوس فاليريانوس" (253-260م)، منشورين في سنة 257م نص الأول على أنه في حالة رفض الأساقفة والرهبان الردة والعودة إلى عبادة الأوثان فسيتم نفيهم، كما نص على منع المسيحيين من ممارسة شعائرهم الدينية، أما المنشور الثاني؛ نص على إعدام رجال الدين الجدد إذا رفضوا اعتناق الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية، كما أمر بتجريد مجلس الشيوخ والفرسان المعتنقين للمسيحية من ألقابهم ومناصبهم وحجز ممتلكاتهم. لقد قام البروقنصل فاليريانوس ماكسيموس باستدعاء كبيريانوس أسقف قرطاج الرافض بتقديم القرابين للآلهة والتخلي عن دينية فتم إعدامه وقطع رأسه في 14 سبتمبر 258 م، ليكون بذلك أول أسقف يستشهد في بلاد المغرب القديم. ونتيجة لهذه الممارسات العنيفة ضد المسيحيين تراجع الكثير عن دينهم³.

¹- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية تونس-الجزائر-المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م، تع: محمد مزالي والبشير بن سلامة، النشرة الرابعة الدار التونسية للنشر، تونس، 1983، ص 256.

²- بن عطا لله عبد الرحمان، "انتشار الديانة المسيحية في إفريقيا خلال الاحتلال الروماني وموقف السلطة الرومانية منها"، من مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة تبسة، العدد 11، دت، النشر، (ص-ص139-146)، ص 142.

³- بوقفة نور السدات، سياسة روما الثقافية في بلاد المغرب القديم وموقف السكان منها (146-430م)، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والإسلامية الجامعة الإفريقية أحمد درارية، أدرار، (2015-2016)، ص

وفي هذه الظروف عرفت الإمبراطورية الرومانية في نهاية القرن الثالث ميلادي انحلالاً وتشتتاً في وحدتها وضعفاً في مختلف مجالاتها (مثل الأزمة العسكرية)، فلا بد من إمبراطورٍ ما ينقذها من هذا التدهور، ومع اعتلاء ديوكليتيانوس (أنظر الصورة رقم 6 صفحة 21) العرش¹ قام بإصدار أربعة مراسيم خلال سنتي 303 و304م يمنع بموجبها المسيحية ويأمر بهدم الكنائس ومنع الاجتماعات و هو ما كان وراء الاضطهادات الكبرى التي عرفت بعض الشهداء، حيث اعتبر أحد أكبر جلادي معتنقي الدين الجديد الذين ارتد الكثير منهم².

كما قام بحرق الكتب المقدسة ومصادرة وثائق أتباع المسيحية وأرغمهم على تقديم الأضاحي للإمبراطور في أعياده، وأمر بإلحاق عقوبات قاسية مثل الإعدام ضد المخالفين لأوامر الإمبراطورية. ويوجد أمران لا بد أن لهما دور في إعلان الإمبراطور ديوكليتيانوس أحكام الاضطهاد وهما:

الإحساس بضرورة توفير الوحدة الدينية والسياسية و التي بذل جهداً كبيراً لإرجاعها للإمبراطورية³.

أما السبب الثاني يكمن في موقف المسيحية من ظاهرة العنف لكونه دين تعاطف وأخوة ومسالمة. فطالبت معتنقيها الابتعاد عن كل أنواع العنف و التخلي عن الأسلحة مما دفع المسيحيين إلى عصيان أوامر قادتهم، و يظهر ذلك في تحيز بعض المسيحيين الأفارقة فيما يتعلق في خدمة الجندية وحمل السلاح، وفي بعض الأحيان يصلون إلى حدّ الإستشهاد، فنجد أحد المحاربين القدامى الذي أُجبر على دخول الخدمة و رفضوا ذلك رفضاً قاطعاً وذلك في مدينة تبسة عام 295م: "لا يمكنني أن أخدم الجندية، لا يمكنني أن أعمل شراً إنني مسيحي"⁴. وظل يكرر العبارات التالية وهم يفحصونه: "لا أستطيع أن أخدم الجندية، لن

1- عمران عبد الحميد، الرومنة والتدين في شمال إفريقيا، ديوان المطبوعات الجامعية للنشر، الجزائر، 2018، ص 143.

2- محمد الهادي حارش، المرجع السابق، ص-ص 227-228.

3- محمد البشير شيني، المرجع السابق ص-ص 276-278.

4- Leclercq.(Dom. H),L'Afrique Chrétienne,T1.,Librairie VICTOR LE COFERE,Paris 1904,p313.

أكون جنديا، إقطعوا رأسي، إنني لست جندي الحكم القائم، إنني من جيش الله... لا يمكنني أن أكون جنديا في دينكم كما قلت لكم... إنني مسيحي". فضاقت الحاكم به ذرعا وأمر بقطع رأسه، وكما رفض الجندي القديم تيباسيوس التطوع من جديد بعد أن دخل دين المسيح، وقال لقائد الجيوش: "إنني مسيحي لا يمكن أن أقاتل تحت قيادتكم"، فهلك تحت ضربات السيف¹.

ويبدو أنه كان لنظرية ترتوليانوس دور واضح في حرمة عصيان الجنود، وهي نظرية لم تحدها الكنيسة المسيحية المعتدلة، حيث تقول النظرية إن المسيحي لا يبخل الجيش، ولا يمكن أن يكون جنديا، وأن اعتنق الجندي الدين المسيحي، فإن أفضل ما يمكن أن يقوم به هو الفرار².

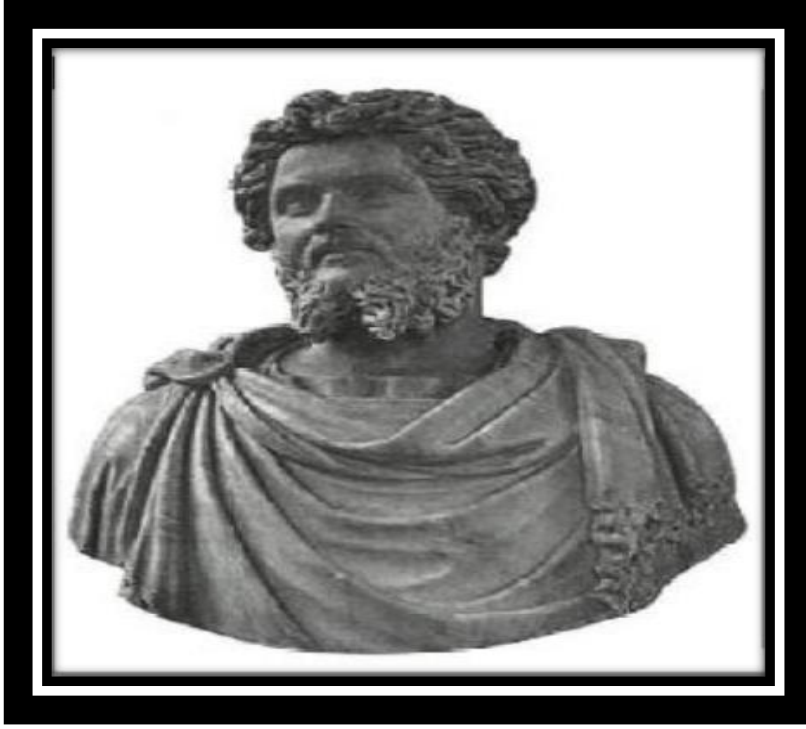
وكما أشرنا سابقا فإن سلسلة الاضطهادات لم تكن من طرف السلطة لوحدها بل تُقام من طرف الوثنيين حيث أنهم طالبوا بقتل المسيحيين ورميهم في السجون وللوحوش، ورفضوا حتى دفنهم في المقابر، وكان الوثنيين يهابون المسيحيين ويؤذونهم، كما تحالف اليهود مع الوثنيين من أجل التشهير بالمسيحيين، ولم يتوقف الأمر عند عامة الناس في استفزاز مشاعر المسيحيين والتشهير بهم، بل امتد الحقد اتجاه هذه الطائفة، إلى جمهور الكتاب أمثال فرونطون السيرتي، الذي ألقى مجموعة من الخطب لمعاداة المسيحيين.

ازداد سخط الوثنيين على المسيحيين بمشاركة السلطة، وكانوا يقذفون النصارى بالحجارة ويحرقونهم مع ممتلكاتهم، ودفع بذلك ببعض المسيحيين بالعودة عن دينهم وردّتهم خلال شدة القمع³.

1- شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 278.

2- محمد البشير شنيبي، المرجع السابق، ص 278.

3- عمران عبد الحميد، الديانة المسيحية في المغرب القديم، المرجع السابق، ص-ص 102-103.



صورة رقم 5: الإمبراطور سيبتيموس سيفروس (193-211م)



صورة رقم 6: الإمبراطور ديوكليتيانوس (284-305م)

نقلا عن: - أحمد محمد أنديشة، المرجع السابق، ص-ص 76-77.



خريطة رقم 2: انتشار الكنائس خلال القرن الأول ميلادي



خريطة رقم 3: انتشار الكنائس خلال القرن الثاني ميلادي

نقلا عن: أويحي سعيبة، المرجع السابق، ص 188.

ثالثا: بوادر الانشقاق:**(أ)- مشكلة المرتدين:**

لقد أدت اضطهادات ديوقليانوس للمسيحيين في بلاد المغرب القديم إلى ارتداد عدد كبير منهم، وهذا نتيجة للخوف أو قلة الإيمان، وامتثلوا لأوامر الإمبراطورية بما في ذلك رجال الدين وأساقفة ورهبان و ظهرت مشكلة الانقسام بقوة داخل الكنيسة الإفريقية بسبب تسلّم الكتب المقدسة للسلطة لحرقتها، و تم وصفهم بالمرتدين والخونة، ومن بين هؤلاء نذكر مونسوريوس الذي كان أسقف قرطاج، و منذ ذلك رفض أساقفة نوميديا الاعتراف بشرعية أسقفية "مونسوريوس" على كنيسة قرطاج، كما لم يشاركوا في انتخاب كايكيليانوس خليفة "مونسوريوس" في 307م، الذي اتهموه باستخدام القوة والعنف ضد المسيحيين لتثبيت تجمعاتهم أمام سجن "أبتينا" وقطع المؤنة عن السجناء المسيحيين، واقترحوا بديلا و هو ماجورينوس الذي عينه رسميا سبعون أسقف نوميدي في اجتماع سري بقرطاج¹.

(ب)- مشكلة الانشقاق داخل الكنيسة:

يعود أقدم انشقاق في الكنيسة الإفريقية إلى فترة كبيريانوس الذي اتهم نوفاتوس بالخيانة والقسوة والجشع وأنه عدو الهدوء والسلم، حيث رفض هذا الأخير المندوبين الذين عينهم كبيريانوس في غيابه. وفي نفس الفترة شكلوا مجموعة من المناوئين بلغ عددهم 5 أساقفة أثناء انتخاب كبيريانوس. وأعلنوا معاداتهم له في قضية صكوك التوبة وشكلوا مع نوفاتوس كنيسة الجبل المعادية لكبيريانوس، و انظم له أسقف لمبيري².

ونتيجة لهذا ظهرت كنيسة متعاديتان. و قد كان الأسقف فيليسييموس وراء تكريس هذا الانشقاق بقرطاج، وسارع للحصول على تأييد من كنيسة روما، على أنه و جماعته يمثلون كنيسة قرطاج، ليوجه كبيريانوس رسالة مضادة إلى البابا كورنيليوس، يشرح فيها حقيقة غريمه وأتباعه المنبوذين من قبل الجماعة المسيحية، ليتم فصله سنة 252م، وهذا ما

¹- عيوج زاهية، "الحركة الدوناتية في المغرب القديم ودورها في مقاومة الاحتلال الروماني"، المقاومة الجزائرية عبر العصور"، قسم التاريخ والآثار جامعة سطيف2، ملتقى وطني 11 ديسمبر 2012، (ص-ص 88-98)، ص 92.

²- عمران عبد الحميد، الرومنة والتدين في شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص 151.

جعل أتباعه يتوجهون إلى كبيريانوس طالبين العفو، لكنه رفض العفو عنهم مع طائفته و تم اتهامهم بالكفر و ضرورة تعميدهم¹.

(ج)- مشكلة التعميد:

لقد كان الأسقف كبيريانوس متحالفا مع الكنيسة الرومانية سنة 255م، حول العديد من القضايا التي تعرض لها الطرفين، ولكن انطلاقا من هذه السنة نلاحظ انقطاع بين الطرفين حول قضية جديدة، عرضت الوحدة الكاثوليكية للخطر لمدة تزيد من سنتين، وهذا النزاع يعود إلى الرسالة التي استلمها كبيريانوس من ماغنوس مع بداية سنة 255م. حيث طرح عليه سؤال حول مسألة عودة المنشقين النوفاسيانيين إلى الكنيسة، وكانت تدور حول شرعية العادة المتبعة في إفريقيا المتمثلة في عدم الاعتراف بالتعميد الممنوح من طرف أي فرقة هرطقية، و عليه يتم تعميده المطرقتين المنشقين الذين تم تعميدهم سابقا ثم وقعوا في الانشقاق والهرطقة طالبوا بإرجاعهم إلى الطائفة كان يغفر لهم بواسطة توبة بسيطة².

وحسب نص القديس أغسطس (354-430) يقول: "... في الكتب التي ذكرتها للتو قلت بصوت عال أنه يمكن منح المعمودية خارج الكنيسة الكاثوليكية تماما كما يمكن امتلاكها والحفاظ عليها هناك. ألا يؤكد جميع الدوناتيين أن المرتدين يحتفظون فيهم بطابع المعمودية؟ وفي الواقع، إذا تاب المرتد عن جريمته وعاد إلى صفه، فلا تعاد إليه معموديته، مما يدل على أنه يعتبر حفظها. أقل يقينا من أنهم احتفظوا بالمعمودية التي تلقوها قبل انفصالهم، وليس السر الذي يثبت أنهم لم يكونوا قادرين على أن يفقدوا بسبب جريمتهم، المعمودية التي تلقوها سابقا. الآن، إذا كان يمكن للمرء أن يمتلك المعمودية بشكل صحيح خارج الكنيسة، فلماذا لا يمنح هناك بشكل صحيح؟ لكن، ستقولون لي، هذا الترتيب للمعمودية خارج الكنيسة ليس شرعا؟ أجيب لكم: جيازة المعمودية خارج الكنيسة ليس شرعا، ومع ذلك فهي موجودة، غير شرعية، لكنها صحيحة"³.

¹- عمران عبد الحميد، الديانة المسيحية في المغرب القديم، المرجع السابق، ص 127.

²- حميدة نشنش، المرجع السابق، ص 263-264.

³-Augustin (St), Du baptême, contre les Donatistes, Livre I, traduit par: M.Raulx, Bar-le-Duc, Paris,1869.

لذا يظهر لنا من خلال هذا النص أن القديس أغسطس كان ينتقد الدوناتيين فيما يخص تعميد المعتنقين خارج الكنيسة الكاثوليكية ومنه، نستنتج أن التعميد الذي قام به هؤلاء الدوناتيين، هو غير شرعي بالنسبة لأغسطين* .

*القديس أغسطين Aurelius Augustinus هو من كبار القديسين للكنيسة اللاتينية، وُلد في 354م في تاغاست

Tagaste بنوميديا من أب وثني و أمّ مسيحية. للمزيد أنظر:

-Bouillet (M.N.), Dictionnaire Universel d'Histoire et de Géographie, Paris, librairie hachette, p1878.

الفصل الأول: ماهية حركة الدوارين.

المبحث الأول: مفهوم الدوارين لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: مفهوم حركة الدوارين في الدراسات الكاثوليكية.

المبحث الثالث: مفهوم حركة الدوارين في الدراسات الحديثة.

المبحث الرابع: التسميات التي أطلقها الدوارين على أنفسهم.

المبحث الأول: مفهوم الدوارين لغة واصطلاحاً:

لقد أخذت المقاومة في بلاد المغرب القديم إبان الاحتلال الروماني عدة أشكال، فظهرت مقاومات عسكرية، ومقاومات دينية ومقاومات ثقافية. أما موضوعنا، يدور حول المقاومة الاجتماعية والتمثلة في ثورة الدوارين (الريفيين)، والتي ظهرت نتيجة لتردي الأوضاع المعيشية للفلاحين والحرفيين وحتى التجار، وسيطرة الطبقة الارستقراطية على الإقطاعيات الضخمة بما فيها من فلاحين وعبيد. ومن بين عوامل الممهدة لثورة الدوارين، نذكر الصراع الدوناتي الكاثوليكي الذي أدى إلى حدوث انشقاق داخل الكنيسة الإفريقية الرسمية، بحيث انضم الدوارين إلى الكنيسة الدوناتية، في حين وقفت الكنيسة الكاثوليكية إلى جانب السلطة الرومانية.

وفي هذا الفصل نتطرق إلى تقديم تعريفا لثورة الدوارين، والاستنتاج ما إذا كانت مجرد عصابات متمردة تمارس عمليات النهب والسلب؟ أم هي ثورة اجتماعية وقفت ضد الملاك الكبار الذين كانوا السبب وراء تردي وتدهور أوضاعهم؟

أولاً: مفهوم الدوارين لغة:

نظراً لتعدد التسميات والنوعت التي أطلقت على الدوارين CIRCUMCELLINES، حول تحديد مدلولاتها، فلا بد أن نشير أن الكلمة لاتينية ومركبة من جزئيين: "Circum" و "Cella" فالجزء الأول (Circum) يعني "دائر حول"، أما الجزء الثاني "Cella" فمعناه "هري" أو "مستودع المؤن" (من زيوت أو خمور أو حبوب) بهذا يصبح معنى الكلمة هم الدوارين أولئك الذين يدورون حول الأهرام. وهذا هو التعريف اللغوي الذي ظل متداولاً بين معظم الكتاب ومختلف المصادر والمعاجم اللاتينية¹.

¹ محمد الميكر، شمال إفريقيا القديم-حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية (305-429م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط1، الرباط، 2001، ص 85.

ولقد ورد في قاموس هنري شيرات (Henri Chirat) فإن كلمة الدوارين Circumcellion يعني الذين يدورون حول مطاحن الحبوب، وهم عبارة عن لصوص دوناتيين (يقومون بالسرقة والقتل) ويقدمون على الانتحار بغرض الإستشهاد¹.

ثانياً: مفهوم الدوارين اصطلاحاً:

يعرض معظم المؤرخين المحدثين الدوارين اصطلاحاً أنهم أولئك الذين يدورون ويحومون حول الأهراء، بحيث جاءت في تعريف أغسطس (أنظر الصورة رقم 7 صفحة 30) للكلمة "كانوا يسمون بالدوارين"، لدورانهم حول الأهراء، أو أنهم "...أولئك الذين يحومون حول الأهراء الريفية (cellas rusticanas) بحثاً عن القوت، ومن ثم كانت تسميتهم بالدوارين..."².

أما في السنين الأخيرة فحملت تفسيرين جديدين لمعنى (cellas) وحسب ما ورد في كتاب محمد البشير شينتي أن العالم الإنجليزي Frennd يرى بأنه "cellas rusticanas". الواردة في نص أغسطس لا تعني "الأهراء الريفية" وإنما تعني كنيسة الشهداء. و من ثم تغير مدلول التركيبة Circum cellas من معنى الدوران حول مخازن الحبوب إلى معنى " الطواف حول أضرحة الشهداء"³ التي كانت متناثرة في بوادي نوميديا و موريتانيا، و بالتالي فإن الدوارين كانوا فرقة من الدوناتيين يرتادون تلك الأضرحة الريفية، للتبرك بذخائر الشهداء و رفاتهم، ويبحثون عن قوتهم فيها، لأنها كانت تتوفر غالباً على مستودعات غذائية كشف علماء الآثار عن بقاياها.

أما الأطروحة الثانية، وحسب ما ورد في كتاب محمد المبكر، بأن الباحث الإيطالي (S.Calderone)، قد صاغ في مقاله سنة 1967 أن الدوارين كانوا نوعاً من نساك أو

¹-Henri Chirat, Dictionnaire LATIN-FRANÇAIS des auteurs chrétiens, Librairie des Méridiens, Paris, p 152.

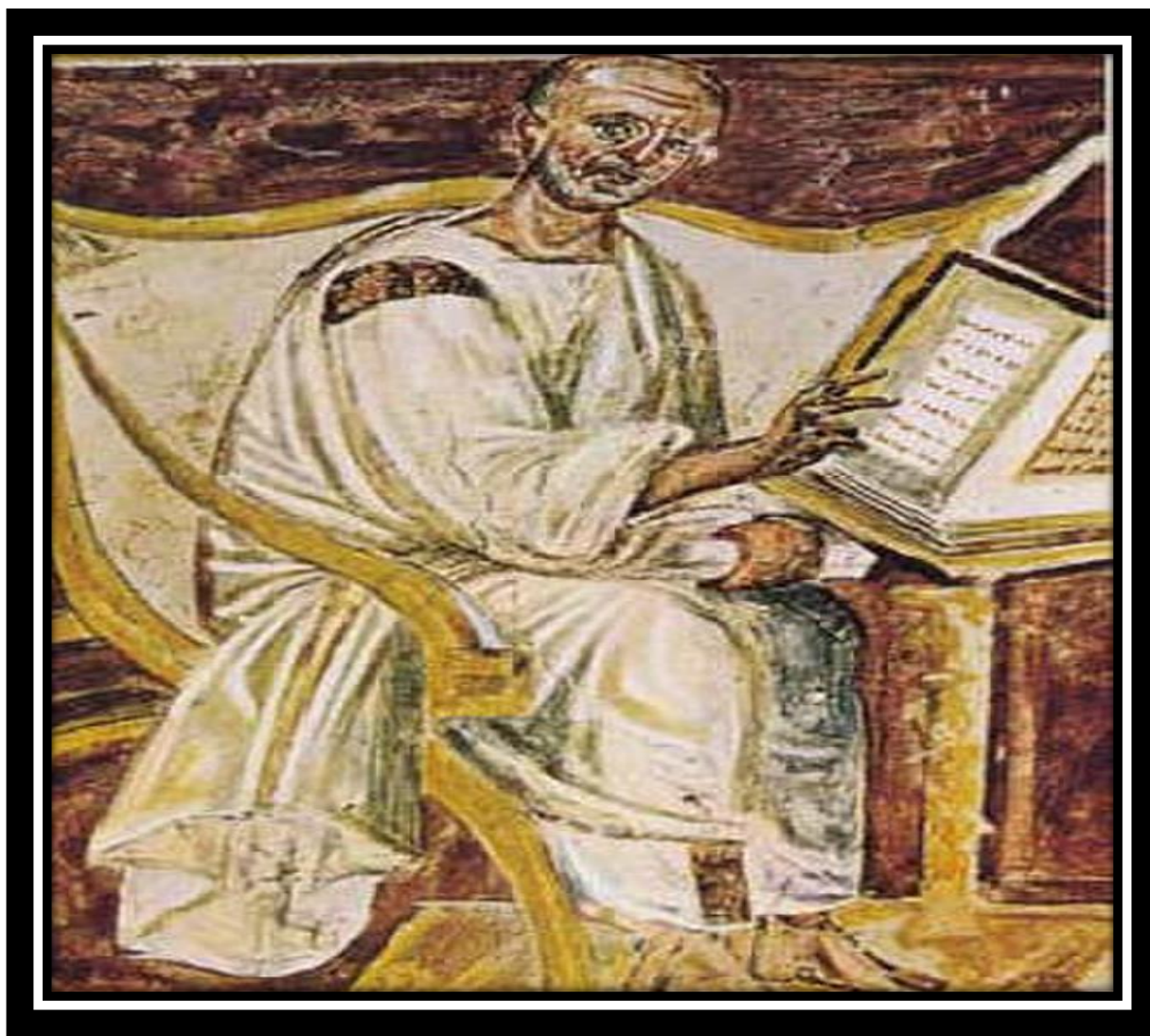
²- محمد المبكر، المرجع السابق، ص 85.

³- محمد البشير شينتي، المرجع السابق، ص-ص 302-303.

رهبان يتجولون بين الأديرة، ومن هذا المنطلق، فإن المقصود بـ "cella" هو "بيت الرهبان"¹.

ونلاحظ إذا تعدد وجهات النظر بين الباحثين حول تحديد معنى مصطلح الدوارين ويرجع هذا إلى طبيعة حركة الدوارين وإلى اختلاف نشاطها.

¹- محمد المبكر، المرجع السابق، ص86.



صورة رقم 7: القديس أغسطين

أقدم لوحة للقديس أغسطين يعود تاريخها إلى القرن السادس الميلادي، وهي رسم جداري بقصر "لاتران" Latran بروما.

نقلا عن:

<https://commons.wikimedia.org>, date: 01-06-2023.

المبحث الثاني: مفهوم الدوارين حسب المصادر الكاثوليكية:

لقد اختلف الباحثون في آرائهم حول تسمية الدوارين، وهذا التباين يرجع ربما إلى طبيعة حركتهم. وتركيز هذه الآراء على نصوص الكتاب الكاثوليك المعاصرين للدوارين، أو الذين نقلوا عن هؤلاء الكتاب، وعلى وجه المثال على كتابات "أوبطاميلي"، حيث أنه ذكر لأول مرة كلمة (CERCONCELLION) في الجزء الرابع من الكتاب الثالث للرد على بارمينيانوس (PARMENIANUS) الذي هو أسقف دونات في قرطاج، حيث كتب أوبطام ستة (06) كتب دفاعا عن الكنيسة الكاثوليكية¹. كما نجد أيضا كتابات القديس أغسطين ضد الدوناتية، و الحال أن الكتاب الكاثوليك كانوا يعتبرون حركة الدوارين جزء لا يتجزأ من الانشقاق الدوناتية، حيث أن الدوارين كانوا قبل كل شيء "عساكر" الدوناتية ورؤوس رماحها ضد الكنيسة الكاثوليكية، وهكذا نلاحظ أنهم لم يسيروا إلى الدوارين في إطار جدلهم الكلامي مع خصومهم الدوناتيين ومن ثم فإن اللهجة التي استعملوها في حديثهم عن الدوارين كانت لهجة تحقير و ازدراء، تصل إلى القذف و السب².

حيث وصفهم أوبطاميلي بالمتشردين الذين يتجولون في جميع أنحاء البلاد تحت قيادة قادتهم "فاسير" (Fasir) و "أكسيدو" (Axido)³.

كما نجد كتابات "أغسطين" نقلا عن "محمد المبكر" والتي قام فيها بالتنديد بالدوارين في مؤلفاته لا يشفي الغليل في هذا المجال بما أنه ترك المجال مفتوحا حتى في التعريف الذي أعطاه للدوارين، إذ اكتفى في تعريفه لهم بالإشارة إلى الانشقاق اللغوي (Circumcella)⁴.

وإذا عدنا إلى قانون هونوريوس الذي هو وثيقة رسمية قديرة بالاعتبار عن الجانب الذي نحن بصدد التحدث عنه (أي التعريف بالدوارين)، وهذا القانون صدر في 30 يناير سنة

¹-Vannier. O., « Les Circoncellions et leurs rapports avec l'église donatiste d'après le texte d'Optat », Rev.Af., n° 67, 1926,(pp 13-28), p13.

²- محمد المبكر، المرجع السابق، ص 86.

³-Vannier.O.,Op.cit.,p16.

⁴- محمد المبكر، المرجع السابق، ص 86.

412م، بعد تحريم الدوناتية إثر المناظرة المنعقدة بين الكاثوليك والدوناتيين في قرطاج سنة 411م¹

ويحدد هذا القانون قيمة الغرامات المالية والعقوبات الواجب تطبيقها على الدوناتيين الذين لم يلتحقوا بالوحدة الكاثوليكية. و ينص القانون على ما يلي² " اعتبارا من تاريخ صدور هذا القانون، إذا لم يلتحق كل الدوناتيين سواء منهم الاساقفة أو القساوسة أو العامة بالكنيسة الكاثوليكية التي انشقوا عنها، فليرغموا على أداء غرامة فردية إلى خزينتنا و ذلك حسب ما يلي³:

"المشاهير" INLUSTRES: 50 رطلا من الذهب، "الأشراف" SPECTABILES: 40 رطلا من الذهب، "السيناتوريون" SENATORES: 30 رطلا من الذهب، "اللامعون" CLARISIMI: 20 رطلا من الذهب، "أعيان الإقليم" SACERDOTALES: 30 رطلا من الذهب، "أعيان المدن" PRINCIPALIS: 20 رطلا من الذهب، "أعيان المجالس البلدية" DECIRIONES: 5 أرطال من الذهب، "التجار" NIGOTIATORES: 5 أرطال من الذهب، "عامّة المدن" PLEBLI: 5 أرطال من الذهب، "الدوارون" CIRCUMCELLIONES: 10 أرطال من الفضة.

وفي حالة ما إذ لم يقدم "الأكارون" CONDUCTORES: الدواوين الموجودين تحت مسؤوليتهم، أو لم يقدمهم "وكلاء الإمبراطوري" PROCURATORES إلى المكلف بتنفيذ القانون" (EXECUTOR) كي يؤدي الغرامة فإنهم مطلوبون شخصيا بأدائها بحيث لا يعفي منها حق أهل البيت و ليخضع نسائهم للغرامة الزوجية على انفراد⁴.

وهكذا سوف يتعرض كل من أمر على البقاء في الديانة، رغم الأحكام الصادرة عليه إلى مصادرة ممتلكاته، أما العبيد (SERVE) الراضون لذلك يلقون بهم في السجن، أما

1- محمد المبكر، المرجع السابق، ص 86.

2- نفس المرجع، ص-ص 86-87.

3- الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 505-506.

4- محمد المبكر، المرجع السابق، ص 88.

المزارعون (COLONI) فيتعرضون للجلد، و يمكن لأسيادهم أن يقوموا بتسديد الغرامات المفروضة عليهم¹.

إن في النص الرسمي مثل هذا القانون يبقى في الواقع فريدا من نوعية، حيث يكتسي أهمية بالغة، ويرجع الفضل إلى "شارل صوماني" (CH. Saumagne) في لفت نظر الباحثين إليها. والنص يحدد الغرامات المالية حسب مختلف الفئات الاجتماعية (ORDINES)، وبما أن الجُنحة المعاقب عليها واحدة وهي اعتناق الدوناتية، فإن تفاوت قيمة الغرامات يأتي مع تفاوت الإمكانيات المالية لكل فئة على حدة وهذا يعني أن قيمة الغرامات كانت متناسبة مع المكانة الاقتصادية و الاجتماعية للفئات المذكورة².

ونلاحظ أن الفئة الدوارين تأتي في أدنى مرتبة من الفئات المتكونة من رجال الأحرار، مباشرة بعد عوام المدن. وتذكر قبل الفئات المشرفة (العبيد) أو الشبيهة بالمشرفة (المزارعين). قد تناول هذا النص بالدراسة باحثان أدخلوا بعض التعديل على قراءة صوماني (Saumagne)، ومنه:

1- يرى "بريصوصن" (J.P.Brison) أن الفقرة التي وردت في قانون " هونوريوس " على النحو التالي: " وهكذا سوف يتعرض كل من أصر على البقاء في الدوناتية رغم الأحكام الصادرة عليه إلى مصادرة ممتلكاته "، فمصادرة الممتلكات لا يعني الدوارين وحدهم بل تهم كل الفئات التي ذكرت قبل الدوارين، كما تهم الدوارين، والمهم في ذلك أن الدوارين كانوا معرضين لمصادرة ممتلكاتهم كبقية الفئات، مما يدل على أن القانون أعترف بهم ضمينا بامتلاكها.

2- أما "تغستروم" (E.Tengestron) اقترح قراءة أخرى للفقرة الآتية: " وإذا لم يقدم " الأكارون" الدوارين الموجودين تحت مسؤوليتهم، أولم يقدمهم "الوكلاء" إلى المكلف

¹- الربيع عولمي، المرجع السابق، ص506.

²- محمد المبكر، المرجع السابق، ص 88-89.

بتنفيذ القانون كي يؤدي الغرامة، فإنهم مطالبون بأدائها شخصياً..."، حيث يرى " تنغستروم" (E. Tengestron) أن الضمير (ipri) يعود على الأكارين و الوكلاء¹.

إن قراءة هذا النص تبدو أكثر تلاؤماً مع سياق النص إلا أنها لا تدخل تغييراً ملحوظاً عليه، و لكن تظهر مسؤولية الوكلاء و مسيرو الأعمال في الضغط على الدوارين كي يتخلوا عن الدوناتية، كونهم المسؤولين و المكلفين بتسليم هؤلاء (الدوارين) إلى منفذ القانون (execution)².

لقد كان الدوارين يشكلون فئة من الرجال الأحرار، المعرضين لأداء غرامة نقدية ومصادرة ممتلكاتهم إذا لم يذعنوا لمقتضيات القانون، وبذلك كانت وضعيتهم تختلف عن وضعية العبيد والمزارعين الذين كانوا معرضين لعقوبات جسدية (السجن والجلد).

حيث يبدو أن الأكارين لم يظهروا بالفعل كثيراً من التحمس في القيام بالمهمة المنطوية بهم، لذلك فإن القانون الذي صدر بعد ذلك بسنتين (17 يونيو 414) كان أقسى من قانون 412 الذي نص على: "أما أكاروا ضيعاتنا، إذا هم سمحوا بممارسة الهرطقة (الدوناتية) فوق أراضينا، فيعاقبوا بأداء قدر من المال يساوي القدر الذي يسددونه عادة ككراء (عن الضيعة).

وأما أكاروا الخواص فإذا سمحوا بانعقاد تجمعات (دوناتية) في الملكيات، أو أدى تساهلهم إلى تدنيس الأسرار القدسية (Sacrum Mysterium) فليخبر القضاة بذلك الملاك المعنيين. وعلى هؤلاء الآخرين إما أن يصلحوا اعوجاج الأكارين، وإما أن يقوضوا من تمادي منهم في غيهم بمديرين متشبعين بالمبادئ الإلهية. و أما الملاك الذين تهاونوا في إخبار السلطة، فليعاقبوا بغرامة يبلغ قدرها الربع الذي اعتادوا كسبه من أراضيهم³.

ومن خلال هذا يظهر لنا أن هؤلاء الملاك كانوا بالنسبة للسلطة الرومانية كوسطاء بينها وبين المستأجرين (الأكارون). وترى أن هؤلاء المستأجرين وسطاء بينها وبين

¹- تنغستروم، حسب الربع عولمي، المرجع السابق، ص 509.

²- نفسه، ص 509.

³- محمد المبكر، المرجع السابق، ص 90-91.

الدوارين، ورغم أن قانون سنة 414م لم يذكرهم (الدوارين) إلا أنه أشار إليهم عن تطريق المستأجرين الذين كانوا السبب وراء تجمع الدوارين وتدنيهم للأسرار القدسية في أراضي الإمبراطورية والأراضي الخواص¹.

وتتحدث النصوص الكاثوليكية عن الدوارين بلهجة تشير بوضوح إلى ظروفهم الوضعية، وغلظتهم وقلة ثقافتهم.

فتحدث عنهم أغسطين قائلا: " تلك المخلوقات الفضة والبلهاء التي لا تعني ولا تحتمل ما ننصحه بها في سبيل خلاصها". وهناك لا نجد أي إشارة إلى أن الدوارين كانوا من المتبربرين (barbare)، كما كان يطلق على الشعوب والعشائر الإفريقية وغيرها التي ظلت خارجة عن سلطة الإمبراطورية الرومانية والثائرة عليها².

إن انتماء معظم الدوارين إلى أصل إفريقي وعدم تأثرهم بالقيم الرومانية وباللغة اللاتينية شيء يتناسق مع المستوى الاقتصادي والاجتماعي الذي يظهرون به في قانون 412م³، وهذه الملاحظة تتطابق مع كون الدوارين كانوا ينتقلون من إقليم إلى آخر، وبالتالي عدم استقرارهم مما ساعدهم على عدم تأثرهم بالحضارة الرومانية وعدم رومنتهم. وبالفعل فإن الخاصية الثانية التي لم يتسم بها الدوارين في النصوص التي عاصرتهم، دورانهم وتنقلهم من مكان لآخر، تعد الميزة الأساسية لهم، وهي التي أثارت انتباه معاصريهم بشكل خاص. حتى أن أحدهم نعتهم بكلمة (circuitores) والتي لا تفيد أكثر من معنى الدوارين⁴.

ويقدمهم أغسطين حوالي 420م كما يلي: "... من منا يجهل ذلك النوع من الناس الذين لا يكتفون عن اقتراف الجرائم الشنيعة، ويستكفون عن الأعمال النافعة، شديدي القسوة في قتل الآخرين، وبالغي الدناءة من قتل أنفسهم، يرهبون البوادي خاصة لكن لا يشاركون في الأعمال الفلاحية، يحومون حول الأهراء الريفية cellas rusticanas بحثا

¹الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 510.

² محمد المبكر، المرجع السابق، ص 94.

³ نفسه، ص 94.

⁴ نفسه، ص 95.

عن القوت، ومن هنا تم تسميتهم بالدوارين ومن منا لا يعرف أنهم يمثلون في العالم أجمعه تقريبا أشهر وصمة عار في جبين الانشقاق الإفريقي؟¹

إن هذا النص يلخص نظرة الكاثوليك إلى الدوارين و يشيرون لهم أنهم يقترفون الجرائم و يغتالون الآخرون، و كانوا يقتلون أنفسهم رغبة في الاستشهاد، برمي أنفسهم على المنحدرات، و يطلق قادتهم على أنفسهم برؤوس قداسة الدوقات المقدسة².

يبدو حسب شهادة أغسطين أن الدوارين يعيشون في الأرياف وكانوا لا يشاركون في الأعمال الريفية، كما يشير في أحد النصوص أيضا: "كانت الغرابة العنيفة التي يقوم بها دواروكم الذين يهجمون علينا على شكل عصابات مجنونة تحت سلطتكم وأوامركم، تؤدي بنا إلى الطرد من كل مكان في البادية، لو لم نحتجزكم كرهائن في المدن؟..."³. ومن خلال هذا يظهر لنا أن مجال عمليات الدوارين تركز في الأرياف، حيث كانت جماعاتهم تشكل خطر على الوجود الكاثوليكي⁴.

حيث يرى أغسطين أن هؤلاء الدوارين لا يتهجمون فقط على المناطق الريفية التابعة للضيعات بل كانوا يمتدون حتى إلى بعض المدن، ويظهر ذلك الامتداد لنشاط هذه الحركة من خلال ما حدث في مدينة هيبو-ريجوس(عنابة) (أنظر الخريطة رقم 4 صفحة 38)، حينما قادمهم الأسقف الدوناتى ماكروبيوس (Macrobius) إلى دخول المدينة، وذلك سنة 409 م⁵. إذا من خلال هذا يمكن أن نلخص أن الدوارين كان يتم وصفهم بالريفيين ذلك كونهم يعيشون في ضيعات الامبراطورية وأراضي الخواص تحت إمرة المستأجرين، وذلك حسب ما ورد في قانون هونوريوس في 412م، لذا نرى أنه يوجد تطابق كبير بين ما ورد في هذا القانون، وبين ما ذكر في تلك النصوص المستخلصة من المصادر الكاثوليكية.

¹ -القدّيس أغسطين نقلا عن محمد المبكر، المرجع السابق، ص 95.

² -Vannier.O.,Op.cit.,pp 16-17.

³ -القدّيس أغسطين حسب ربيع عولمي، المرجع السابق، ص 515.

⁴ -نفس المرجع، ص 515.

⁵ -نفسه، ص 515.

باعتبار أن أغسطين يعد من أكبر مدافعي الكنيسة الكاثوليكية، فإننا نجده دائما يوجه انتقادات واتهامات عنيفة ضد هؤلاء الدوارين وأتباعهم الدوناتيين، حيث يذكر في نصه كل الجرائم التي كانوا يقترفونها قائلا: "... في كل يوم نعاني من الأضرار المذهلة التي يقترفها قساوتكم و دواروكم، و هي أضرار أشد أفعال كل اللصوص و كل النهابين مجتمعين..."¹ والسبب وراء كل هذه الهجمات الكلامية التي وجهها أغسطين ضد الدوارين والدوناتيين، راجع إلى الصراع المذهبي بين الدوناتيين والكاثوليك، ويرى أن الدوارين كانوا ينهبون الممتلكات والكنائس الكاثوليكية بهدف حماية الفقراء والمستضعفين من بطش واستغلال الأغنياء².

1- القديس أغسطين حسب الريبع عولمي، المرجع السابق ص 516.

2- نفس المرجع، ص 517.



الخريطة رقم 4: مجال حركة الدوارين في القرنين الرابع والخامس ميلادي

نقلا عن: عمران عبد الحميد، الديانة المسيحية في المغرب القديم-النشأة والتطور-(180-430 م)، المرجع السابق، ص

.254

المبحث الثالث: مفهوم الدوارين في الدراسات الحديثة:

لقد أدى اختلاف و تعدد نشاطات الدوارين و طبيعة عملهم إلى اختلاف آراء الباحثين حولهم، وتتجلى هذه الآراء على نصوص الكتاب المعاصرين الذين نقلوا عن المصادر الكاثوليكية، وقدموا عدة أطروحات وفرضيات، ونذكر من بينهم: " أوديت فاني" (O. Vannier) و " شارل صوماني" (Ch. Saumagne) و برونو بوتتي (Bruno Potier) و "سيرج لونسيل" (Serge Lancel) و "بول ألبرت فيفري" (Paul Albert Fevrier)¹.

بالإضافة إلى ما ذكره " بول مونصو" (Paul Manceaux) حول الدوارين، والذي جاء كما يلي: " كانوا مغامرين رحل لا بيت لهم ولا مقر، يعيشون من التلصص ويحبون الطواف حول الضيعة (Circum cellas)، ومخازن المؤن، كانوا يطلقون على أنفسهم اسم "المصارعين" (Agonisticii) أو جنود المسيح (Milites Christi).

ويدعون أنهم يدافعون عن الكنيسة الحقة، كنيسة دوناتوس والمسيح، ضد الشيطان أي الكاثوليك. وكانت عصاباتهم تتشكل من رعايع الشعب وأوباشه، ومن المستأين من مختلف الأجناس الجهات، فكان من بينهم الأهالي الذين لا يتكلمون سوى اللغة البونية، والعبيد الأبقون والمزارعون (coloni) المفلسون، والكاثوليك المفصلون عن المجتمع، والمفلسون والمجرمون ذوي السوابق، فضلا عن السذج المتعصبين. وكان زعمائهم إما من الأهالي، أو من الكهنة الدوناتيين².

ومن خلال هذا النص يمكن أن نستنتج أن هؤلاء الدوارين هم أولئك الذين كانوا يعيشون في فقر شديد، والذين كانت أوضاعهم جد مزرية ومتدهورة للغاية، وأن ظروفهم الصعبة هي التي أجبرتهم على القيام بعمليات العنف والتخريب في كافة أرجاء الأرياف والمدن.

¹- نفس المرجع، ص 517.

²-Monceaux(P), Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne depuis les origines jusqu'à l'invasion arabe, T.4, (LE DONATISME), éditeur Ernest Leroux, Paris 1912, pp 180-18.

غير أن (بول مونصو)، قد اتبع مصادره الكاثوليكية وتبقى وجهة نظر خصوم الدوناتيين والدوارين. ويظهر ذلك من خلال مؤلفة بعنوان التاريخ الأدبي لإفريقيا المسيحية. (Histoire Littéraire de l'Afrique Chrétienne).

ويمكن أن يتساءل المرء عن السبب الذي دفع بهؤلاء الدواريين الملقبين بالمغامرين و اللصوص إلى اتخاذ موقف من الصراع المذهبي بين الكاثوليك والدوناتيين¹، والميل إلى الاستشهاد ولو عن طريق الانتحار أو اتخاذ ألقاب دينية مثل: "مناضلين" و "عساكر المسيح" و "قديسين". وهذا فضلا عن أهداف الدوارين والمتمثلة في الدفاع عن الضعفاء ضد تعسف الأقوياء، كما أنها كانت ترتقي إلى تقويم اعوجاجات اجتماعية.

ومن خلال هذا، لو كان الدواريين مجرد عصابات من المغامرين و اللصوص و خليطا من العبيد الأبقين و المزارعين المفلسين و المجرمين، لما اعتبرهم قانون هونوريوس سنة 412م على أنهم يشكلون فئة اجتماعية متجانسة نوعا ما².

أما صوماني "Saumagne"، فإنه يرى أن الدواريين عبارة عن عصابات منظمة من قطاع الطرق المسلحين تغلب على طرق إفريقيا، يقطعون الطريق يفتحمون المزارع ويتحرشون بالأشخاص الشرفاء، يذلون الأقوياء، ينظمون أنفسهم في تجمعات عنيفة، ويموتون شهداء على الكنائس الدوناتية المحظورة، و كانوا طوافي القبو، يتسللون الحواجز³.

ولو كان تعريف صوماني "Saumagne" صحيحا، لكان من السهل على المُشرع أن يأمر بسجن هؤلاء الدوارين و يخضعهم للعقوبات المنصوص عليها في قانون 412م. و يرى أوديت فاني (O. Vannier)، بأن الفترة التي كان فيها البؤس شديدا في باغاي* عانى السكان من حملات المجاعة، ولا بد أن الدوارين في (باغاي) يشبهون عصابات من

¹- الربيع عولمي، المرجع السابق ص518.

²- محمد المبكر، المرجع السابق، ص-ص 99-100.

³-Saumagne (Ch.), « Ouvrières Agricoles , ou redur de celliers ? les circoncellions d'Afrique », A.H.E.S. , t.vi,n°28,1934,(pp.351-364)p.351.

*باغاي: قصر باغاي حاليا، شمال غرب مدينة خنشلة الجزائرية (شمال جبال الأوراس) كانت بلدية رومانية في النصف الأخير من القرن 2م، تعتبر من أكبر معاقل الدوناتية، حيث وقعت فيها أحداث التاريخ الدوناتية (معركة 347م)... للمزيد أنظر محمد المبكر، المرجع السابق، ص 120.

المتسولين المساكين التي رأيناها قبل سنوات تتجول في الجزائر، نتيجة الصعوبات الاقتصادية آنذاك¹.

من الصعب إتباع هذا الرأي حيث أن القانون لم يكن ليرفع جماعات من هذا القبيل إلى مرتبة هيئة أوردو (ordo) عضويته في المجتمع الإفريقي. ومن الغريب أن ينعنوا "بالمساكين" بما أن القانون وضعهم في مرتبة أسمى من المزارعين، وافترض توفيرهم على الفصل من المال يسمح لهم بأداء غرامات تبلغ عشرة أرتال من الفضة².

إذا كان "بول ألبرت فيفري" (Paul Albert Février) يرى أن الدوارين هم عمال زراعيون يعملون في بساتين الزيتون في نوميديا العليا و في السهول المرتفعة. و دعم المؤرخ كلامه حسب ما جاء به المصدر اللاتيني (Tengestron)، أن الدوارين عمال يعملون في الأراضي الكبيرة خلال موسم الحصاد و هم متواجدون بكثرة في أعالي نوميديا و سهولها المرتفعة في لمباز و تيمقاد، باغاي، خنشلة، عين البيضاء و تيفيسيس، و هذه المناطق هي مصادر إنتاج الزيتون³.

حسب برونو بوتتي (Bruno Pottier)، فإنه يجد أن شارل صوماني (Ch. Saumagne) ينظر إلى الدوارين على أنهم قطاع طرق و ثوريين اجتماعيين يشكلون مجموعة من عمال زراعيون. وأن هذه الحركة أو الثورة قد قام بها البربر، احتجاجا على الوجود الروماني. أما ويليام فرند (W. Frend) فيرى أن الدوارين هم إخوة رهبانية متجولة، كما أننا نجد أن سلفادور كالديرون (S. Calderon) أيد هذا الرأي باستخدام حجج مختلفة. كما حاول تنغستروم (Tengestron) التوفيق بين هذه النظريات، فوجد أن هؤلاء الدوارين هم العمال الزراعيون الذين شاركوا في عمليات العنف ضد ملاك الأراضي في النصف الأول من القرن الرابع ميلادي. وبعض الأعضاء من هذه المجموعة قد شكلوا في

¹-Vannier. O., Op.cit., pp 26-27.

²- محمد المبكر، المرجع السابق، ص 101.

³- Paul Albert Février, «Toujours le donatisme. A quand l'Afrique? (Remarque sur l'Afrique à la fin de l'antiquité, a propos du livre de E. Tengestron) ». L'école française de Rome, n° 225,1996, pp. (699-711)pp,700-701.

نهاية القرن الرابع ميلادي مجموعة دوناتية متعسفة إذ أنهم عاشروا بوضوح هشاشة الرسائل ووجود حركة ثورية أو وطنية في ذلك الوقت في شمال إفريقيا.

فقد نلاحظ رفضا ضمنيا في التخيل أن الرهبان قد يرتكبون أعمال العنف التي تنسب في الحقيقة إلى المتعسفين والمتراخين والميل إلى الفصل بوضوح بين مؤلفيهم، العنف الديني والعنف الاجتماعي.

كما يؤكد "هانز ديزر" (H. Deezzer) هذا الرأي، و يتبع نفس الاتجاه، أما بالنسبة "الزييف روبين" (Zeef Roben) قد أسس دراسة حديثة بنفس التمييز بين الحركة الدينية و الاضطراب الاجتماعي، و في الواقع قام بالفصل بين "Agonisticii"، المصطلح الذي استخدمه الدوارين للتعريف عن أنفسهم، الأمر الذي يشكل حركة تعارض مع الرهينة بعنف مع الكاثوليك. فالدوارون هو مصطلح يشير إلى قطاع الطرق الذين ينهبون العقارات الريفية في نوميديا في النصف الأول من القرن الرابع¹.

وهكذا تقدم الدراسات الحالية أحكام قريبة من أحكام "فريدريك مارتروي" و "بول مونصو" في بداية القرن العشرين، و استوعبوا أن الدوارين هم قطاع طرق².

وهنا نرى أن المتهمين بجرمة الدوارين أو الدوناتية ينقسمون إلى تيارين:

- الأول: يركز على الظروف الاجتماعية والنشاطات الاقتصادية للدوارين، مع إمكانية الاختلاف ما إذا كانت للحركة أهداف ثورية أم لا.
- الثاني: يرى في الدوارين أنها حركة دينية، فهم إما نوع من رهبان أو فرق منفصلة بين أضرحة الشهداء في بعض البوادي الإفريقية³.

يمكن أن نلخص من مناقشة مختلف الأطروحات التي تعرف الدوارين، حيث أنهم يشكلون فئة اجتماعية تتكون من رجال أحرار يعيشون في البوادي، ينتمون إلى أصل

¹-Bruno. Pottier, « Les Circoncellions. Un mouvement ascétique itinérant dans l'Afrique du Nord des Ives et Vesiècles », Antiquités africaines, 44 ;2008, (PP4 3-107).,pp, 44-45-46.

²-Ibid.

³- محمد المبكر، المرجع السابق، ص-ص105-106.

إفريقي غير مرو من أو قليل التزم. وحسب المصادر المعتمد عليها فمكانتهم وضيعة، لكن لهم حرية التنقل وتكوين أسر وامتلاك الثروات.

ورغم ما توحى إليه النصوص الكاثوليكية بأن الدوارين كانوا خليطاً من اللصوص وقطاع الطرق. فلا يمكن قبول هذا الرأي والأخذ به حيث أنهم يعتبرونهم أعداء لهم، وذلك حسب وجهة نظرهم الخاصة. أما الوجهة الثانية، فإن الانشقاق اللغوي الراجع لكلمة "دوارين" (Circumcillion) هو كونهم " يدورون حول مخازن المؤن." التي تتمركز في الضيع، وليست المقصودة ب(Cellas rusticanas) بيوت الرهبان، ولا أضرحة الشهداء.

وبهذا فإن الدوارين عبارة عن جماعات من الرحل تبحث عن العمل في الضيعة خلال الغلات الفلاحية الموسمية (حصاد، قطف الزيتون...) ولهم واقع ديني وهو عبارة عن "عساكر الدوناتية"، يهاجمون الكنائس والأساقفة الكاثوليك وليس من الضرورة تجريدهم من السمات التاريخية التي ظهروا بها خلال صراعهم مع الكاثوليك.

الإشكالية ليست ما ورد في كتابات الكتاب الكاثوليك أن الكتاب الموالين للإمبراطور وأوصافهم المقيتة للدوارين مفهومة بها أنهم معادون للدوناتية وأتباعها.

وأيضاً كل ما هو نشاط ثوري تحرري من الإمبراطورية الرومانية. ولكن الإشكالية في بعض القراءة المعاصرة التي لم تخرج من تفكير الذين سبق ذكرهم، وإظهارهم لإيديولوجية معادية لكل ما هو إفريقي معادي، إما أنهم من أصحاب الإمبراطورية الرومانية أو أنهم ذو إيديولوجية دينية كاثوليكية متعصبة.

المبحث الرابع: التسميات التي أطلقها الدوارون على أنفسهم:

لقد فضل الدوارين أن يطلقوا على أنفسهم اسم "المصارعين" (Agonistcii) أو جنود المسيح: (milites Christi)، وكما هو موضح فإن كلا الاسمين مشتقان من صفة، وربما هنا أرادوا أن يشيروا بالتسمية الأولى إلى القوة الجسمية والفعالية في القتال التي كانوا يتمتعون بها، أما التسمية الثانية، استعانوا بها للدلالة على الإطار الديني الذي ينتمون إليه.¹

بعد أن استهدفت ثورة الدوارين الأثرياء والملاك الكبار، أصبحت مدافعة عن راية المسيحية وفق منهج الدوناتية. و من جهة أخرى أخذت هذه الحركة طابع ديني². إذا يذكر أغسطس قيامهم بكل الأفعال التي يمكن أن تؤدي بهم للموت، حيث يقول في إحدى رسالاته: "يقومون بتسليم أنفسهم للجلادين و يلقون بأنفسهم من المنحدرات و في الماء و النار ليجدوا الموت هناك، أو الاندفاع على الصخور، أو في النيران أو في الصدوع، هذه هي أنواع الموت الثلاثة التي علمهم إياها الشيطان و عند التقائهم بأي شخص فإنهم يجبرونه بضربهم بالسيف."³ وفي أقدم نص أورد ذكر الدوارين، حيث يتحدث "أوبطاً" (Optat) * مرة عن "الدوارين المناضلين" بصدد الجماعات التي استفزها الأسقف الدوناتى بمدينة (باغاي) لمقاومة البعثة الإمبراطورية سنة 347م. لقد اعتقدت "فانيي" (O.Vannier) أن الأسقف منح الدوارين لقب "مناضلين" تشريفا لهم و اعترافا لهم بالجميل، بعد مهاجمتهم للفرقة العسكرية المرافقة للبعثة الإمبراطورية.⁴

بينما يرى "بريسون" (J.P.Brisson) أن هذا اللقب أطلق على أولئك الفلاحين (الدوارين) الذين اتخذوا مبادرة الثورة للدفاع عن رفقاتهم منذ ما قبل 347م. فكان يقال آنذاك الدوارين المناضلين و من جهة أخرى فإن هذا المصطلح لغويا يعني: الرياضي أو المجالد في الألعاب العمومية، غير أن الكتاب المسحيين اقتبسوا المصطلحات الرياضية و

¹ محمد البشير شينتي، المرجع السابق، ص 302.

² زموري خديجة، القديس أغسطس بين السلطة الرومانية والمجتمع المحلي، المرجع السابق، ص-ص 154-155.

³ Augustin(ST), Lettres(CLXXXV), trad par :M. Poujoulat, Paris1858.

* **أوبط الميلي** (320-385م)، وُلد في إفريقيان كان أسقف لمدينة ميلاف النوميديّة (ميلة حالياً) خلا القرن الرابع من أشهر أبحار زماله، دافع عن الكنيسة الكاثوليكية ضدّ الدوناتية، من أبرز مؤلفاته "ضدّ الإنشقاق الدوناتى" De Schmate Donatarum توفي حوالي 385م. للمزيد انظر:

Dict.Univ.Hist.Géo, p.138

⁴ محمد المبكر، المرجع السابق، ص 147.

العسكرية لوصف الصراع القائم بين المؤمن المسيحي و العالم الزمني المحيطة أي الدولة الرومانية في فترة اضطهاد المسيحية¹.

يبدو أن ندرة المعلومات الواردة في المصادر المتعلقة بهذه الثورة أدت إلى تعدد الدراسات حول هذا الموضوع، ما أدى بذلك إلى اختلاف الآراء بين المؤرخين حول تحديد هوية الثوار. بحيث نجد أن أغلب الدراسات و الأبحاث الحديثة التي أجريت لدراسة التاريخ القديم لمنطقة شمال إفريقيا عرفت تأثراً شديداً بالمصادر الكاثوليكية كونها المرجع الوحيد الذي يستمد منه هؤلاء المحدثين المعلومات المتعلقة بهذه المنطقة².

ويمكننا أن نقول إنه لو لم تتوفر كل من القديس أغسطين وأبنا الميلي، الذين قاموا بتحديد مفهوم هؤلاء الدوارين مع ذكر الفئات التي تنتمي إليها سواء من العبيد، أو الكولون أو المجرمين، ومختلف الأشخاص الذين ينتمون إلى مختلف الطبقات الاجتماعية، لما وصلتنا أخبارهم وما سمعنا شيئاً عنهم.

1- محمد المبكر، المرجع السابق، ص-ص 148-149.

2- منصور خديجة، الدوناتية وثورات القرن الرابع في شمال إفريقيا، رسالة ماجستير، دائرة التاريخ، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، 1986-1987، ص 212.

الفصل الثاني: حركة الدوارين (نشأتها وطبيعتها).

المبحث الأول: أسباب ظهور حركة الدوارين.

أولاً: العامل الديني.

ثانياً: العامل الاقتصادي والاجتماعي.

المبحث الثاني: سمات حركة الدوارين (الطبيعية والاجتماعية).

المبحث الثالث: السمات الدينية لحركة الدوارين.

أولاً: سمات الدوارين الدينية.

ثانياً: الانتحار والاستشهاد عند الدوارين وتناقضات أغسطين.

ثالثاً: ظاهرة تقديس الشهداء.

المبحث الرابع: حركة الدوارين بعد سنة 347م (أحداث باغاي-

الاستمرارية).

المبحث الأول: أسباب ظهور حركة الدوارين:أولاً: العامل الديني:

من أبرز العوامل التي ساهمت في ظهور حركة الدوارين نذكر العامل الديني، بحيث لا يمكننا الاستغناء عنه، والمتمثل في اعتناق شريحة كبيرة من سكان بلاد المغرب القديم من فقراء ومعوزين وأمازيغ للديانة المسيحية، الذين وجدوا في هذه الأخيرة ملاذا لهم من الاضطهاد الروماني وتعسفهم، باعتباره ديناً يدعو إلى المساواة الاجتماعية والكرامة الإنسانية والعدل والإنصاف ونبذ كل أنواع الظلم والاستغلال مع الدعوة إلى الأخوة والمحبة.

وفي الواقع أن حالة سكان شمال إفريقيا كانت تسوء شيئاً فشيئاً إلى أن بلغت شدة يؤسها ووصلت بهم إلى درجة التقهقر، وتعذرت عليهم الأسباب المعيشية، نظراً لشدة الاضطهاد على يد الرومان وسوء معاملتهم. وهذا ما يعلل موقف سكان المنطقة من هذا الدين الجديد و تخلصهم من الديانة الوثنية لأنهم كانوا يأملون أملاً قويا في التخلص من الاحتلال الروماني بواسطة هذه الديانة الجديدة¹.

ثانياً: العامل الاقتصادي الاجتماعي:

إن الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي الذي عرفته منطقة بلاد المغرب القديم من قِبَل الاستيطان الروماني، أدى إلى ازدياد البؤس والشقاء في صفوف السكان الأهالي، و ألحقت ضرراً كبيراً بهم، خاصة أن روما عملت على امتصاص الإنتاج الريفي²، فبعد سيطرتهم على المنطقة قاموا بتقديم امتيازات ومساعدات للمستوطنين الرومان، وطالبتهم بتوفير كل ما يستلزم من خيرات لتموين العاصمة.

فلم يمر زمن طويل حتى أصبحت إفريقيا مطمورة روما (Romae Graniarum) وهذا حسب التعبير اللاتيني، حيث كانت تتمونها بقدر وافر من المحصولات الزراعية على اختلافها كالحبوب، الخمر، الفواكه، الزيتون، الصوف، الخشب، والمرمر. إضافة إلى ذلك

¹- جميل حمداوي، "من أبطال المقاومة الأمازيغية: ثورة الدوارين"، من مجلة دنيا الوطن، الحلقة العاشرة، 18 أوت 2007، (ص-ص 1-11)، ص 4.

²- عمران عبد الحميد، الديانة المسيحية في المغرب القديم، النشأة والتطور (180-430 م)، المرجع السابق، ص 240.

فقد كانت إفريقيا الشمالية تمد روما بالحيوانات كالخيل و البغال و الوحوش الضاربة، التي كانت تحتاج إليها في تنظيم أعيادها و حفلاتها الكبرى¹.

كما قامت بانتزاع الأراضي من الفلاحيين الذين أصبحوا فيما بعد عمالا في خدمة كبار الملاك² الذين كانوا عمالا " موسميين يشتغلون في المزارع الكبرى (Domaines) خلال موسم الجني و الحصاد، و هذا ما أدى إلى اتساع الفجوة بينهم و بين المترومينين، حيث بقيت الطبقة الكادحة و المسحوقة من الفلاحين خارج الحضارة الرومانية³. فقد كان العبيد في الأرياف يتعرضون لمعاملة قاسية، مما أدى بهم إلى الفرار و التحاقهم بالدوارين. أما بالنسبة للمزارعين فقد سبق الإشارة إلى الظروف الصعبة التي أصبحوا يعيشونها في القرن الرابع ميلادي، بالإضافة إلى تعدد الإتاوات والضرائب والهدايا التي أُجبروا على تقديمها إلى الملاك والدولة وأصبحوا مرتبطين بالأرض التي يحرثونها وفاقدين جزءا كبيرا من حريتهم⁴.

وبعد إقامة خط الليمس الثاني* استغل السكان المناطق المهجورة والضيقة ليزداد الضغط الاجتماعي حدة، وزادت معها الغارات على المناطق الخصبة، إذ أن هذا الليمس لم يمنع غير المترومينين من مهاجمة ممتلكات المعمرين باستمرار⁵.

وقد ساءت الحالة الاجتماعية أكثر في منتصف القرن الثالث، حيث وصلت إلى حالة من الاستياء العام لدى السكان المتضررين من الحالة الاقتصادية المزرية خصوصا في القرن الرابع، حيث أصبح ملاك أراضي يتحكمون في مصير العمال وسكان البلدة وحتى على أصحاب الحرف والتجار. في الوقت الذي كانت فيه البرجوازية الرومانية تزدد ثراء

1- محمد محي الدين المشرفي، إفريقيا الشمالية في العصر القديم، ط4، دار الكتب العربية، وجدة، 1949، صص 88-91.
2- حمودي نبيلة، " الدوناتية ودورها في مقاومة الرومان خلال القرنين 4 و5، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، مجلد 16، ع 4، الجزائر، ديسمبر 2020، ص 42.

3- محمد العربي عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، المرجع السابق، ص 291.

4- محمد المبكر، شمال إفريقيا القديم-حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية (305-429م)، المرجع السابق، ص 132.

* خط الليمس الثاني: هو خط حدودي يمثل المراحل الثلاثة للتوسع الروماني في منطقة المغرب القديم، والذي يمتد من شمال الأوراس وينطلق من تبسة مروراً بخنشلة (Mascula) وتازولت (Lambasis) إلى زاراي (Zarae) في نوميديا، ومنها إلى ثاملولة (Thamlulla) وتاتليت (Tatlitt) وما ورائها... للمزيد انظر: نبيلة حمودي، مقاومة المور للاحتلال الوندالي، أطروحة دكتوراه في تخصص تاريخ الحضارات القديمة، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر 2، 2019-2020، صص 18-19.

5- عمران عبد الحميد، المرجع السابق، ص 240.

وتتقاسم الثروة مع السلطة. فكان هناك تفاقم في الضرائب المفروضة على المقاطعات المدن على استغلال الأرض. وصارت الطبقة الفقيرة تشعر بالظلم الجماعي الناتج عن هذه الفئات العنيفة، وأصحاب الأرض والذين يحتاجون يد عاملة في موسم الحصاد¹.

ويظهر أن العمال الموسمييين كانوا من سكان المناطق الداخلية والجافة ذات الإنتاج القليل، يقومون بالانتقال إلى المناطق الخصبة بحثا عن عمل في سنوات الجفاف، مما أدى إلى ازدياد المطالبين بالعمل، وبالتالي انخفاض أجورهم واستغلالهم، ويكتفون بالمحاصيل الثانوية نتيجة للضرائب المجحفة والباهظة مع قلة المنتج. في حين كان فائض المنتج يصدر إلى روما².

وفي الوقت الذي صعبت فيه الحياة على السكان من الإجراءات التي اتخذتها السلطة ضدهم مثل الطرد ومصادرة الأراضي، لم يعد الأجراء يجدون فرص للعمل بسبب كثرة عددهم فلجئوا إلى القروض الربوية وهو ما زاد الأمر سوءا. بحيث يقوم الأثرياء بالرفع من الربح المفروض على القرض و يضعون شروطا تعجز الدائم و تجعله أسيرا للمدين له³.

ولقد تمكنت هذه الطبقة البائسة والكادحة خلال القرن 4م من تنظيم نفسها في حركة اجتماعية مطلبية حقيقية، وكانت تركز في مقاطعة نوميديا وتظم جمهورا واسعا من العمال الريفيين الأحرار المهمشين، بهدف إصلاح الوضع وتطبيق العدالة الاجتماعية تائرين ضد الملاك الذين اعتبروهم المسؤولين عن ترددي وضعهم. وأخذوا يناضلون من أجل الحد من قساوة وضعهم. وقد شكلت هذه الحركة امتدادا للثورات السابقة التي قام بها الأهالي ضد الرومان منذ بداية الاحتلال، فهي استمرارية لحركة المقاومة ضد الوجود الأجنبي.

نلاحظ أن العوامل الدينية والاقتصادية والاجتماعية المذكورة سابقا، مهدت لظهور هذه الثورة التي طالبت بالمعيشة الكريمة مع استرجاع أملاكهم المسلوقة وكرامتهم وحقهم في الإنسانية، مراعاة للمبادئ التي جاءت بها الديانة المسيحية.

¹- نفس المرجع، ص 242.

²- نفس المرجع، ص 242-243.

³- نفس المرجع، ص 243.

المبحث الثاني: السمات الطبيعية والاجتماعية لحركة الدوارين.

إن أقدم إشارة صريحة للدوارين نجدها في الفصل الرابع من الكتاب الثالث لأوبطاميلي، وهو أقدم وصف لأعمال العنف والنزاع الديني بين الدوناتيين والكاثوليك، إذ يسرد أحداث المعركة التي جرت في باغاي سنة 347م والتي سوف نتطرق إليها أكثر في الفصل الثالث من هذه المذكرة، فقد فاق أوبطاميلي في بعض الجمل تعريفًا بالدوارين وحركتهم قبل وقوع أحداث باغاي، حيث يقول: "لم يكن أحد يؤمن على ممتلكاته عندما كان هؤلاء الأشخاص يتسكعون من مكان لآخر، قبل صدور قانون الوحدة، و عندما كان هؤلاء الأشخاص يتسكعون من مكان لآخر، قبل صدور قانون الوحدة، و عندما حصل أوكسيدو و فليسير على لقب القيادة قاموا بإرهاب الملاك و الدائنين و ذلك بإرسال رسائل تهديد لهم، فلم تكن الممرات آمنة، حيث لم يكن الملاك قادرين على المغامرة بعرباتهم على الطرق دون التعرض لهؤلاء الدوارين الذين كانوا يجبرونهم بالنزول من عرباتهم، و الهرولة كالعبيد أمام عبدهم الذين جلسوا في مكان أسيادهم"¹. نلاحظ هنا أن أوبطاميلي يشير إلى أن الدوارين يتعرضون لعربات السادة فينزلون السيد الذي يجبرونه على السير، ويركبون بدله عبده².

نلاحظ من هذا التقديم بالرغم من لهجة الازدراء بأن الأمر لم يكن يتعلق بالعصابات من اللصوص المحترفين أو قطاع الطرق يهاجمون الناس لمجرد الحصول على القوت أو إشباع غريزة النهب والاعتصاب. بل إن القارئ المعاصر قد لا يستكشف عن التعاطف مع أولئك الشغوفين بالعدالة الذين يقومون بحماية العبيد والمديونين والمضطهدين.

ونلاحظ أن ضربات الدوارين لم تكن عشوائية، لكنها موجهة ضد طبقات ملاك الكبار الذي يملكون الأراضي والعبيد والثورة الكافية لمنج القروض، أي أولئك الذين يتحكمون في اقتصاد البلاد والمسيطرين على العاملين في البوادي ابتداءً من العبيد إلى المالكين الصغار الذين أنقل الدين كاهلهم. كما أننا نلاحظ أن الدوارين لم يقصدوا القيام بتخريب فوضوي

¹-Vannier (O), « Les circoncellions et leurs rapports avec les donatistes d'après les textes d'Optat »,Op.cit.,p14.

²- محمد البشير شنيطي، أضواء على تاريخ الجزائر القديم، دار الحكمة للطباعة والنشر، الجزائر، 2003، ص183.

يصبون به كل الملاك بل إنهم يهدفون انتزاع حق أولئك يعتبرونهم ضحايا تلك الطبقة المالكية والمستقلة، ولم يكن هجوم العصابات المجنونة بقصد سرقتهم أو اغتيالهم بل كان لإرغامهم عن التخلي عن الديون التي كانت عبارة عن قروض ربوية قاسية، أما قطع الطريق على العربات والمارة كان بهدف الانتقام للعبيد من ظلم أسيادهم لا لغرض السرقة والنهب أو اغتصابهم¹. ويبدو من الصعب إذا اعتبار الدوارين مجرد قطاع طرق أو قتلة لا مبادئ لهم، بل على العكس يتضح من النص أنه كان تتعلق بثورة ريفية لها مبادئها وأهدافها، وهذه الأهداف تتلخص في القضاء على النظام الاجتماعي القائم، كما يرمز ذلك لقلب الأوضاع بين العبيد والأسياد بين المديونين والدائنين. وربما كانت هذه المبادئ مستخلصة من مبادئ المسيحية البكر في أصولها الأولى وانعكاسا لتأثير ديني ينادي بالمساواة بين المؤمنين، في يوم آخر تنقلب فيه الأدوار بين الأقوياء والضعفاء، وبين المضطهدين والمضطهدين².

وهذا ما يمكن أن يفسر أن الدوارين كانوا يطلقون على زعمائهم لقب " زعماء القديسين" الذي كان لقباً شائعاً عند الدوناتيين الذين كانوا يعتبرون كنيستهم "كنيسة القديسين". على أنه من غير الممكن الحديث في هذه الفترة المبكرة من حركة الدوارين عن دخولهم في صراع ديني إلى جانب الكنيسة الدوناتية ضد الكاثوليك. فهذا أوبط لا يتحدث عن هجوم الدوارين عن الكنائس أو الأسقفية الكاثوليكية بل عن اعتراض الدوارين سبيل الأسياد والدائنين بغض النظر عن انتمائهم المذهبي.

لذا نرى الأمر لا يتعلق بالصراع الديني بل بصراع على المستوى الاجتماعي بين طبقة مستغلة وأخرى مستغلة. وإذا كان لهؤلاء الدوارين مبادئ تفسر تصرفاتهم، فإننا نرى أن عملياتهم لم تكن عشوائية بل كانت منظمة إلى حد ما. بل كانت العمليات الأولى هي إرسال إنذار إلى الدائن ولا يبدأ تنفيذ التهديد إلا في حالة إذا لم يظهر المعني بالأمر الاستعدادية لتنفيذ الطلب، أي رفض التخلي عن الدين.

1- محمد المبكر، المرجع السابق، ص 121.

2- نفس المرجع، ص 122.

حسب ما يبدو فإن هذه الطريقة كانت ناجحة لهم، حيث أصبح هؤلاء الدائنين يتخلون عن القروض التي منحوها خوفاً من تلك الرسائل الإنذارية.

على ما يبدو أن للدوارين رؤساء على اختيارهم بالدليل أنهم أطلقوا لقب زيمي القديسين على أوكسيدو وفاسر، وهذا الشيء ما يوضح أن الكنيسة الدوناتية لم تكن تتأسس هذه العمليات التي كان يقوم بها الدوارين في هذه الفترة. وأن حركة الدوارين عرفت توسعاً منذ ذلك الوقت في بعض مناطق نوميديا فالطرق لم تكن آمنة و الكل أصبح يعيش في رعب ترقباً لرسائل الدوارين، و حتى الذين لم تظهر الإنذارات تخلوا تلقائياً عن ديونهم¹.

لهذا لم يتم ردع الدوارين إلا بتدخل خيش مسلح يطلب من الدوناتيين بأنفسهم بقيادة "تورينوس" كونت إفريقيا، وهكذا لم يكن يتعلق الأمر بحركة تلصص عادية طالما أن الملاك لجئوا إلى حماية السلطة العسكرية ولم يعد بطاقتهم التصدي في جموع الدوارين بوسائلهم الخاصة.

فحسب محمد المبكر أن أوبطاً يشير إلى أن عدد الدوارين تضاعف بعد معركة "أوكتافا" (Octafa)* ، مما يبين أن عملياتهم الثورية تكاثرت و يهددون الأمن في عدة مناطق².

¹- محمد المبكر، المرجع السابق، ص-ص 122-123.

* **محلة أكتافا:** ربما هي تجمع لقرى حول ضيعة كبيرة، كانت ملك لشخص يُدعى أكتافيوس، وهي عبارة عن تجمعات سكنية كانت على عكس المدن، لا تتوفر على إدارة مركزية، بواسطة الحكام البلديين من النوع التقليدي، إلا أننا لا نجد ذكر لهذه المحلة من بين الأبرشيات النوميديّة التي حضر أساقفتها مناظرة قرطاج، بينما يرى الآخرون أنها ذُكرت كأبرشية في مجمع 256م خلال عهد كيريانوس، والتي كانت كذلك أبرشية حسب لائحة الأقاليم والمدن الإفريقية، إلا أنّ مكانها غير معروف في نوميديا. للمزيد أنظر: محمد المبكر، المرجع السابق، ص 124.

²- نفس المرجع، ص-ص 124-125.

المبحث الثالث: السمات الدينية لحركة الدوارين:

لقد تميزت حركة الدوارين بمجموعة من السمات الدينية، والتي يمكننا تلخيصها فيما يلي:

أولاً: سمات الدوارين الدينية:

يعتبر الدوارون في نظر أوديت فاني (O.Vannier) أن أسقف باغاي الدوناتى قد منح لقب "مناضلين" (Agonisticii) أو ربما الزعماء القديسين (Duces Sanctorum) للدوارين اعترافاً لهم بالجميل بعد أن هاجموا الفرقة العسكرية المرافقة للبعثة الإمبراطورية، التي كانت تحمل الهدايا و الهبات للسكان، و في نفس الوقت و دون أن يشك في ذلك حاربوا و واجهوا بناء الوحدة (Operares unitatis) وخدموا مصالح الكنيسة المنشقة، و عندها فقط أدرك دونات الأحزاب التي يمكن للكنيسة الدوناتية رسم هؤلاء المتعاونين¹.

كما يعتقد بريسون (J.P.Brisson) أن هذا اللقب قد أطلق تلقائياً على أولئك العمال الفلاحين الذين منذ ما قبل 347م أخذوا مبادرة الثورة للدفاع عن رفاقهم: "الدوارين المناضلين" تماماً كما نقول العمال المناضلين².

ثانياً: الانتحار الإرادى والاستشهاد عند الدوارين وتناقضات أغسطس:

إذا اعتمدنا على النصوص الكاثوليكية فإن ظاهرة الانتحار عند الدوارين قصد الحصول على درجة الشهادة كانت قديمة ومنتشرة بينهم، بحيث يشير أوبتا إلى الاستشهاد الباطل الذي كان يتعاطه الدوارون المناضلون، بضرب أنفسهم أو بالارتداء من أعلى الجروف و من بين نصوص أغسطس العديدة، فإذا تبين أن تلك الظاهرة كانت تتكرر بشكل عادي يومياً.

غير أن طرق الانتحار كانت متعددة: كالغرق، الاحتراق، الارتداء من أعلى الجروف، وحتى استقزاز الآخرين للحصول على ضربات مميتة¹.

¹-Vannier.O., Op.cit.,p 26.

²- الربيع عولمي نقلا عن جون بيير بريسون ، المسيحية في بلاد المغرب القديم ودورها في أحداث القرنين الرابع والخامس الميلاديين، المرجع السابق، ص 534.

في حين استفزاز الآخرين للقول أن الدوارين كانوا فرقة دينية متعصبة و رأى بعض الآخر أن السبب في لجوئهم للانتحار يرجع إلى الظروف البائسة التي كانوا يعيشونها².

وإذا عدنا إلى نصوص أغسطين وقمنا بمقارنتها ببعضها البعض، فسنتمكن من الخروج ببعض الملاحظات التي ربما ستمكننا من إدراك المشكل. فنلاحظ أن الفقرات التي تحدث فيها أغسطين عن انتحار الدوارين متشابهة لحد كبير، وبعضها مقلوب على نفس الشكل، بحيث يكتفي بتعداد أشكال الانتحار كما فعل فينص رسالته إلى بونيفاكوس (Bonifacius)، ومن هنا يمكن أن نشعر بأن الأمر ربما كان يتعلق بتعبير جاهزة أكثر من انطباقه على الواقع المعاش.

ففي إحدى فقرات ردة على "غودينتيوس" (Gaudentius) أسقف تيمقاد Timgad يشير أغسطين إلى أن المنتحرين نادرا ما كانوا يلجؤون إلى الماء والنار. وإنما يفضلون إلقاء أنفسهم من المنحدرات³.

كما تحدثنا المصادر من جهة أخرى عن حادثة تركت أثرا ملموسا في تاريخ شهداء الأفرقة خلال القرن 4، و يتعلق الأمر بوفاة ماركلوس (Marculus) أحد الأساقفة الدوناتيين الين هلكوا إبادة المقاومة لقانون الوحدة⁴. ذلك القانون الذي أصدره "قنسطانس" سنة 347م. و الذي قام على تنفيذه المبعوثان الإمبراطوريان (Paulus و Macarius)الذين سبق و أن أرسلهم "قنسطانس" إلى إفريقيا و ذلك لتكوين طائفة لدعم الفقراء و محاولة إعادة تأسيس الوحدة الدينية، فعقد الأسقف الدوناتى العزم على الوقوف في وجه هؤلاء المبعوثين⁵، فأرسل 10 ممثلين عنهم لمحاولة إقناعهم بالعدول عن استعمال العنف ضد الدوناتيين، غير أن "مكارىوس، Macarius" لم يأخذ الأمر على محمل الجد و عاملهم بازدراء، و أمر بجلد الأساقفة، بل احتجز الأسقف "ماركلوس" (Marculus). وقد أكد الدوناتيين أنه تم رميه من أعلى الجرف، بينما ادعى الكاثوليك أنه انتحر. فبقية هذه الذكرى خالدة ومرسخة في أذهان

¹ محمد المبكر، المرجع السابق، ص 151.

² نفسه، ص 152.

³ نفسه، ص 154.

⁴ محمد المبكر، المرجع السابق، ص 151.

⁵ Vannier.O., Op.cit, pp 13-14.

الأفارقة الدوناتيين، ودخل قائمة الشهداء العظام وخصص له كتاب: "آلام" (Passio) والذي مازال محظوظا حتى اليوم. وراح بعده بقية المؤمنين يقلدونه في طريقة انتحاره¹.

بالإضافة إلى الحادثة التي أثارت نقاشا حاد بين الكاثوليكين والدوناتيين والتي وقعت بمدينة باغاي قبل انعقاد مناظرة قرطاج (411) م، حيث لخص أغسطين النقاش كالتالي: "... ومن جديد، أثار الدوناتيون النهاية الأليمة التي عرفها بعض أصحابهم الدوارين في مدينة باغاي. وكان هدفهم من ذلك التدخل تضخيم الاضطهاد الذين يدعون أنهم يعانون منه. وكان جواب الكاثوليك أن أولئك الناس لقوا حتفهم خلال المقاومة التي نظمت ضد أعمالهم العنيفة، ذلك العنف الذي هددوا به القاضي نفسه، كما ذكر الكاثوليكين بالجرائم الشنيعة التي اقترفوها في تلك المدينة حيث أحرقوا الكنيسة ورموا الكتب المقدسة في النار. أما نهايتهم الأليمة فتعزى- حسب ما ظهر- إلى عاداتهم في الانتحار بالارتداء من أعلى المرتفعات"².

وهنا يبدو التناقض واضحا في هذا النص بين التفسير الأول الذي أعطاه الكاثوليك لهلاك الدوارين سقطوا في اشتباك مع أنصار الكاثوليك أو مع قوات الأمن. أما التفسير الثاني يرجع مقتل الدوارين إلى عاداتهم في الانتحار.

هذا ما جعل القارئ أو الباحث يتساءل ما إذا كان أغسطين لم يخف في عدد المنتحرين أولئك الذين سقطوا فعلا تحت ضربات الجيش أو أثناء الاشتباكات الواقعة بين مناصري الكنيستين المتخاصمتين. وبهذا يمزح أغسطين بين التفسيرين³.

¹- محمد المبكر، المرجع السابق، ص 155.

²- القديس أغسطين حسب محمد المبكر، المرجع السابق، ص 156.

³- نفس المرجع، 156-157.

ثالثا: ظاهرة تقديس الشهداء:

ترتبط ظاهرة الاستشهاد التي أشرنا إليها سابقا بظاهرة أخرى لها مكانة و أهمية بالغة عند الدوارين، والتي عرفت انتشارا واسعا بين الطائفة المسيحية في المغرب القديم وهي عادة تبجيل الشهداء وتقديس رفاتهم وإقامة أضرحة لهم في الكنائس (Martria)¹.

وحسب المؤرخ " فرنسوا ديكره" (François Decret) فهي امتداد لعادة مرتبطة بالديانة الوثنية في المنطقة والتي تقوم على عبادة أسلافهم الموتى منذ أحداث 18 جويلية 180م. فكانوا يقدسون ويجلون ويحترمون الشهداء الذين ثبتوا على دينهم، وكانوا يعظمونهم ويجعلونهم قدوة لأتباع المسيحية الذين صاروا أكثر تشبثا بها، و هذا ما أدى إلى تزايد أعداد المنتصرين الكارهين الذين ينبذون السلطة الرومانية، وصار هؤلاء الشهداء يشكلون قناديل للطائفة المسيحية حسب "كبيريانوس" وبالتالي فهي تدفع بالمسيحيين بطلب الاستشهاد، لأن المسيحي يكون أكثر سعادة في السعي للانتصار على اعداء الله، لأنه يرى أن الموت هو انتصارا بالنسبة له².

وترجع هذه الظاهرة لافتخار المسيحيين بهؤلاء الشهداء الذين يرونهم قديسين أحيارا لتمسكهم بدينهم بالرغم من ردة بعضهم، لذا اعتبروا أن الشهداء الذين راحوا ضحايا لغدر السلطة الزمنية أبطالا سينالون محبة الله. ونذكر على سبيل المثال تقديس شهداء "أبتينا" (Abitini) التي راح ضحيتها تسعة وأربعون مسيحي، من بينهم امرأة أصرت على الثبات على دينها مطالبة بالاستشهاد، وذلك بمنطقة قيصرية بفلسطين، فتم تعذيبها بأبشع الطرق وقد وصل بها الحد إلى نهش عظمها إلى أن فقدت جنينها، وبالتالي تم رميها في البحر وهي مبتسمة³.

فكانت لهذه الحادثة نتائج كبيرة، إذ ازدادت بعد ذلك من إيمان البعض، فاتخذوا من هذه الحادثة رمزا للقداسة لما قدمته هذه الشاهدة من تضحية شجاعة. وهذا ما أدى إلى انتشار

¹- الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 537.

²- عمران عبد الحميد، الرومنة والتدين في شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص 157.

³- نفسه، ص 158.

هذه الظاهرة (تقديس الشهداء) في كافة أنحاء الإمبراطورية بداية من القرن الرابع ميلادي وسط سكان المغرب القديم المسيحيين المعادين للكنيسة الكاثوليكية والسلطة الرومانية¹.

أما بالنسبة للقديس أغسطين فإنه لديه نظرة مختلفة اتجاه هؤلاء النساء، حيث يعرفهم في فقرات عديدة من كتاباته؛ فهن العذارى المنذورات لخدمة الكنيسة الكاثوليكية اللواتي كن أحيانا يلتحقن بالدوارين و يشاركون في تنقلاتهم، و عن قول أغسطين، يحملهم مسؤولية تلك الممارسات: "... يتركون جماعات عذراهم (moniales) الثملة تختلط بعصابات الدوارين المخمرة ليلا و نهارا، و تشاركهم في تسكعهم الشائن"². و لتكتمل الصورة فإن أغسطين يشير الى أن العذارى الدوناتيات كنا ينتحرن أحيانا عندما يفضح أمرهن و يحاولن اخفاء حملهن، و يقول بهذا الصدد: " و لهذا فإن بعض عذاركم الحوامل يلقين أيضا بأنفسهن من أعالي الجروف فينقلق بطنهن و يكشف انتحارهن الاجرامي عن جرائم فسقهن و هن يعتقدون بانتقامهن هذا من أنفسهن، فسوف ينجون من انتقام خالقهن"³.

إن ظاهرة تقديس الشهداء لم تكن ظاهرة خاصة لا بالدوارين ولا بالدوناتيين ولا بالأفارقة، بل بدأ الأمر عند قبور أولئك الذين سقطوا تحت تعذيب واضطهاد الدولة في مختلف أرجاء الإمبراطورية. ومع بداية القرن الثالث بدأ المسيحيون يحتفلون بذكرى شهدائهم، وتواصلت هذه الظاهرة حتى القرن الرابع ميلادي، وأصبح الناس لا يكتفون بتسجيل الشهداء فقط لكن يتبارون في امتلاك رفاتهم، و تسابقوا في الحصول على القبور قرب أضرحتهم⁴.

ويذكر القديس أغسطين في هذا السياق في اعترافاته أن أمه مونيكيا (Monica) كان من عاداتها الذهاب إلى الأضرحة حاملة معها الطعام والشراب قصد استهلاك جزء منه وإهداء الباقي إلى الأموات، وكان حارس الأضرحة قد أخبرها بمنع القديس "أمبروريوس" (St. Ambrosius) أسقف ميلانو لتلك الممارسات معتبرا أنها تشبه بالوثنية، وأن هذا أتى

1- نفس المرجع، ص 158.

2- القديس أغسطين حسب محمد المبكر، المرجع السابق، ص 16.

3- القديس أغسطين حسب محمد المبكر، المرجع السابق، ص-ص 162-163.

4- محمد المبكر، المرجع السابق، ص 164.

لقطع الطريق على السكيرين الذين يستغلونها فرصة لإدمان الخمر. و الظاهر أن تقديس الشهداء لم تعرفها إفريقيا وأيضاً في ميلانو وفي روما، ومدينة "نولا" (Nola) بإقليم "كامبانيا" بإيطاليا، إذ نجد البابا "دماسوس" (Damasus) يُنظم في روما زيارة المؤمنين لأضرحة الشهداء في سراديب الموتى (Catacombes)¹.

فيظهر أن أغسطيين ندد بهذه الممارسات المرتبطة بالوثنية. كما قام الإمبراطور "ثيودوسيوس" (Theodosius) بتحريم بيع عظام الشهداء سنة 336م. لكن بقي الأهالي متمسكين بتلك التقاليد، وتعزز هذا الجانب في الكنيسة الإفريقية. فكانت انتقادات كل من أوبطاميلي وأغسطيين لاذعة بخصوص المنتحرين والراغبين في الاستشهاد وزوار الأضرحة².

قد اعتبر أغسطيين أن "نابور الشماس" شهيدا وهذا لارتياحه عن الدوناتية بموته على يد الدوناتيين انتقاماً منه. في حين رفض منح لقب الشهداء للمسيحيين الستين الذين وقعوا في اشتباك مع الوثنيين الراغبين في تحطيم أصنامهم في "سوفيتولا" (Sufetula)³ ونلاحظ تناقضات في أحكام أغسطيين، حيث أنه منح لقب الشهيد للمسيحي المرتد من الدوناتية وفعل العكس مع الذين حطموا الأوثان. وبهذا فان تصرفاته كانت كله دفاعاً عن الإمبراطورية والسلطة، لا دينية دفاعاً عن وحدة الكنيسة⁴.

كما كتب أيضاً أبياتا شعرية تخليداً لذكرى وفاة الشهيد "ستيفانوس" (St.Stephanus) وطلب من الذين نفعتم زيارة الضريح في العلاج والشفاء أن يكتبوا تقريراً للاحتفاظ به في أرشيفات الضريح، بعد أن يقرأ في حضور صاحبه علناً، ليشهد عن نفسه على تلك المعجزة⁵.

1- محمد المبكي، المرجع السابق، 164-165.

2- نفسه، ص 164.

3- نفسه، 164-167.

4- الربيع عولمي، ص 543.

5- نفسه، ص 543.

لقد أخذ الصراع الكاثوليكي الدوناتي صبغة سياسية، حيث أن الكاثوليك كانوا يدعمون السلطة الرومانية وسياستها كونهم يمثلون جانبا أساسيا في وحدة الإمبراطورية الرومانية وهو الجانب الديني. فعملت الكنيسة على قطع الطريق على كل الانشقاقات الدينية التي يمكن أن تكتسي طابع معارضة وطنية للسلطة الرومانية¹.

¹- الربيع عولمي، المرجع السابق، ص-ص 543-545.

المبحث الرابع: حركة الدوارين بعد سنة 347م (أحداث باغاي-الإستمرارية).

يصعب علينا تتبع حركة الدوارين بكامل دقة بعد سنة 347م بخصوص مشاركتهم في عمليات العنف التي نسبتها أوبطاميلي إلى الأساقفة الدوناتيين حوالي 362م، بعدما حصلوا من يوليانوس (Julianus) المرتد على القانون الذي سمح لهم بالعودة من المنفى واستعادة بعض كنائسهم وممتلكاتهم. وإن كان أوبطاميلي لم يذكر الدوارين صراحة في تلك الأحداث وإنما نتحدث عن عصابات ترافق الدوناتيين في نوميديا و موريتانيا¹.

إن أغسطس الذي تعرض لتلك الأحداث في كتاباته لم يذكر بالنص الصريح اسم الدوارين، وإن كان قد تحدث عن تلك العصابات بأسلوب يشبه للأسلوب الذي يصف به الدوارين.

وإذا ما عدنا إلى هذه النصوص نجد أن أغسطس استعملوا في حق الدوارين لهجة تعبر عن كثير من الازدراء، بحيث يوجه إليهم تهمة يمكن تلخيصها في أحد نصوصه عند مخاطبته للدوارين قائلا: " إنكم أنتم أيضا على بينة من كل الولايات التي تعاني منها ذونا بسبب الجنون المسعور لكهنة ودواري حزب دوناتوس: هناك كنائس أحرقت وكتب مقدسة أرميه في النار، و حتى المساكن الخصوصية أحرقت، و أشخاصا انتزعوا قسرا من بيوتهم التي نهب أو هدم كل ما كان موجودا بها، و الأشخاص أشبعوا ضربا و تمزيقا و أطمست عيونهم بل تجاوزوا المعتادون ذلك إلى قتل ضحاياهم . حقا إن انتزاع نور الحياة من رجل محتضر له أقل قسوة من انتزاع نور البصر القبض عليهم والذهاب بهم إلى مكان ما لم يكن تعذيبهم هكذا بكل بساطة...."².

هذا النص يوضح التهم الموجهة إلى الدوارين والكهنة الدوناتيين، كإحراق الكنائس والكتب المقدسة، تعذيب الضحايا، وقتلهم في بعض الأحيان، بل كانوا يعترضون سبيل الأشخاص من العامة، غير الإكليركيين يقومون باحتجازهم في أماكن سرية ويقومون بتعذيبهم.

1- محمد المبكر، المرجع السابق، ص 126.

2- محمد المبكر نقلا عن القديس أغسطس، المرجع السابق، ص 127.

إذا صدقنا أغسطين فإن الدوارين يعترضون سبيل كل أنواع الأشخاص، وحتى الأبرياء.

ويبدو أن الدوارين الذين تحدث عنهم أوطا قبل صدور الوحدة على عهد "أوكسيدو" و"فاسير"، تحولوا إلى لصوص عاديين على حد ما زعم به أغسطين، وأن ثوار العهد الأول انحطوا من منصفين اجتماعيين إلى عصابات من القتل والمجرمين، إلا أن هناك بعض الملاحظات تمنع الأخذ بهذا الرأي. وبالرغم أننا يمكننا أن نتصور أن جو الصراع الديني وما رافقه من التردي الاجتماعي كان مناسبة لتعسفات مختلفة ولممارسة أعمال العنف والتلصص¹.

ويظهر لنا في الرسالة التي بعثها أغسطين إلى الكونت بونيفاكوس (Comte Bonifacius) بعد مناظرة قرطاج حوالي 417م، والتي جاءت على النحو التالي: " قبل وضع هذه القوانين من قبل الأباطرة الكاثوليك، كانت عقيدة سلام المسيح ووحدته تنتشر شيئاً فشيئاً، وكان الناس يطبقونها كما يحلوا لهم، كما يريدون وكما يمكن للمرء من حزب دونات نفسه، ومع ذلك، فإن هذه العصابات من الرجال الضالين لم تفشل في إزعاجهم ولأسباب مختلفة بقية الأبرياء. أي سيد لم يجبر على الخوف من خادمه عندما وضع هذا الأخير نفسه تحت حماية هؤلاء المجانين؟ من كان يجرو على التحدث بصوت عال مع السارق، لإرغام السارق أو المدين الذي كان سيطلب منهم مساعدتهم؟ العبيد الأشرار الذين أرادوا التحرر هددوا أسيادهم بالعصي والنار والموت ونالوا ألقاب عبوديتهم، ومزقنا ألقابهم من الدائنين لإعادتهم إلى المدينين. أي شخص يحتقر الكلمات القاسية لهؤلاء المجانين تم إجباره بضربات قاسية على أن يفعل ما أمروا به. لقد تم إبعاد الولادة والتعليم النبيل بالكاد على قيد الحياة بعد العنف الذي مورس عليهم، أو تم إصاقهم بحجز الرحي عليهم بضربات من السوط ليعلبه كالحوانات الدنية. ما هي المساعدة التي تم تقديمها ضدهم من قبل القوانين والسلطات المدنية؟ ما هو الضابط الذي تنفس في وجودهم؟ ما هو الجامع الذي طلب منهم ما رفضوا تقديمه؟ من حاول الانتقام لمن سقطوا تحت ضرباتهم؟"²

¹- محمد المبكر المرجع السابق، ص - ص 127-128.

²-Augustin (St), Lettres (CLXXXV),trad par: M. Poujoulat, Paris 1858.

نلاحظ من خلال هذا النص أن الدوارين يظهرون بأوصاف مماثلة تقريبا لتلك التي نعتمهم بها أوبطاً، عندما كانوا يقومون بعمليات في نوميديا تحت زعامة قادتهم "أوكسيديو" و"فاسير" أي حوالي 70 سنة تقريبا. فنلاحظ من نصوص القديس أغسطين ينعت هذه الفئة على أنهم عبيد أشرار ومجانين وأنهم ضالين.

ولا يبدو أن أغسطين قد نقل هذه المعلومات عن نص أوبطاطوس المشار إليه أعلاه. لأن الأوصاف الدقيقة التي ذكرها عن أعمال الدوارين لم يذكرها أوبطاطوس. حيث اكتفى هذا الأخير للإشارة إلى أن عصابة مجنونة تصل فجأة ويسبقها رعب رهيب تحيط الدائنين بالمخاطر، وهذا عكس ما يقوله أغسطين عن تخريب المنازل وإحراقها ويشير إلى الإهانات التي كان يتعرض لها الأسياد، بالسوط والإحراق وتدوير الرحي تحت السوط كالحوانات.

نلاحظ إذا أن هذه الحركة احتفظت بطابعها النظامي من أجل تحقيق عدالة اجتماعية والدفاع عن المضطهدين من العبيد والمديونين وأنها نشطت في الفترة السابقة مباشرة لتدخلات هونوريوس في الشؤون الدينية الإفريقية، خلال السنين الأخيرة من القرن الرابع والسنين أولى من القرن الخامس.

يبدو أن الحركة تطورت بحيث أصبح العبيد والمديونين يجدون ملاذا حقيقيا لدى الدوارين، إذ كانوا تحت حمايتهم، فأصبح الدوارين لم يكتفوا بإبطال الديون فحسب بل بدءا بانتزاعها قسرا من الدائنين ليرجعوها إلى المديونين.

وهكذا نلاحظ أن ظاهرة التلصص عادية كما يشير إليها أغسطين، فنفس المبادئ ونفس طريقة العمل التي كانت تقود حركة "أوكسيديو" و"فاسير" كانت قائمة في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس، فالضربات موجهة لنفس الفئات الاجتماعية (فئة الدوارين، وملاك العبيد والأراضي)، والحماية تشمل نفس الفئات المستضعفة مثل العبيد والفلاحين الصغار والمزارعين المديونون، والرسائل الإنذارية كانت سابقة للتنفيذ والتنظيم. وقد كان التنظيم على شكل اجتماعات مثلما كان الأمر سابقا¹.

¹- محمد المبكر، المرجع السابق، ص-ص 129-130.

والراجع أن عمليات الدوارين لم تتوقف بعدى صدور مرسوم الوحدة سنة 405م في عهد هونوريوس، على عكس ما يمكن أن يفهم من بداية نص أغسطس، ففي حوالي 410م قام عدد من الدوارين على الهجوم على مدينة هيبو-ريجوس (عنابة). وبعد مناظرة قرطاج 411م، وما لحقها بإجراءات ضد الدوارين لا تتوفر في النصوص المشابهة للاستدلال عن مواجهة الدوارين للملاك غير أن تحركاتهم لم تتوقف على ما يبدو، ويقول أغسطس في سنة 418م أن الكاثوليك لا زالوا حتى الآن يتحملون بقاياها بكل ما حباهم الله من صبر¹.

¹- محمد المبكر، المرجع السابق، ص-ص 130-131.

الفصل الثالث: علاقة حركة الدوارين بالحركة الدونانية

المبحث الأول: إنشقاق الدونانية في تعاملها مع الدوارين.

أولاً: تعريف الدونانية.

ثانياً: أسباب وعوامل ظهور الحركة الدونانية.

ثالثاً: مراحل تطور الدونانية.

رابعاً: بداية التلاحم بين حركة الدوارين والحركة الدونانية.

المبحث الثاني: علاقة حركة الدوارين بالحركة الدونانية قبل

سنة 347م.

أولاً: محاولات تحديد بداية حركة الدوارين.

ثانياً: تناقضات أربط الميلي.

ثالثاً: قضية الانتماء الديني للدوارين.

المبحث الثالث: أحداث باغاي 347م.

المبحث الرابع: علاقة حركة الدوارين بالحركة الدونانية بعد

سنة 347م.

في القرن الرابع للميلاد عُرفت منطقة بلاد المغرب القديم بالصراعات الدينية والتي أدت إلى ظهور إنشقاق ديني داخل الكنيسة بين رجال الدين نتجت عن هذه الخلافات حركة دينية عُرفت باسم الحركة الدوناتية، والتي عرفت تطوراتٍ كبيرة بحيث انضمت إلى هذه الأخيرة حركة الثوار الريفيين. من هذا المنطلق سوف نعالج في هذا الفصل أسباب وعوامل ظهور الحركة الدوناتية، والعلاقة التي تربطها بثورة الريفيين سواء قبل سنة 347م أو بعدها، مع تسليط الضوء على الأحداث التي وقعت في باغاي سنة 347م.

المبحث الأول: انشقاق الدوناتية في تعاملها مع الدوارين

أولاً: تعريف الدوناتية:

يمكننا تعريف الحركة الدوناتية على أنها تيار ديني مستقل رافض لجميع أشكال التعاون مع السلطة، ممتنع عن الامتثال لأوامر الإمبراطور، محافظ على المبادئ الأصلية التي تجمع حولها المنتصرون الأوائل الذين ضحوا من أجلها¹، حيث تمثل الدوناتية الانشقاق عن الكنيسة الرسمية الكاثوليكية التي أنسبت إلى "دونا القرطاجي"^{**} (Donat) الذي أسس كنيسة إفريقية معادية للكنيسة الكاثوليكية. وهنا لقد برزت شخصيتين بهذا الاسم؛ الأول هو "دوناتوس كازاي نيقراي"^{**} (Casae Nigrae) (الأكواخ السود)، والثاني هو "دونا القرطاجي" الذي خلف الأول وواصل عمله التنظيمي للكنيسة الدوناتية².

¹ -محمد البشير شنيتي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب القديم أثناء الإحتلال الروماني ودورها في أحداث القرن الرابع ميلادي، المرجع السابق، ص 286.

^{**}دونا الكبير الملقب بالقرطاجي: ولد حوالي 270م وتوفي سنة 355م، ويعود الفضل له في تنظيم نشاط الحركة وتوسيع إنتشارها وتعميق مبادئها، وهو منظم المقاومة في باغاي سنة 347م. للمزيد أنظر: محمد البشير شنيتي، المرجع السابق، ص 285.

^{**}دوناتوس الأكواخ السود Casae Nigrae: نسبة إلى إحدى البلديات النوميديّة الملقبة بهذا الاسم الواقعة شمال شرقي باتنة، أما تاريخ ميلاده ووفاته فهما مجهولان، إلا أن "مونصو" رجح وفاته إلى ما بعد محاكمته من طرف الإمبراطور قسطنطين عام 316م، يعتبر المؤسس الأول للحركة الدوناتية، وممثلاً في إجتماعات روما و"أرل" (Arles) وميلانو. للمزيد أنظر: المرجع السابق، ص 285.

² -حمودي نبيلة، "الدوناتية ودورها في مقاومة الرومان خلال القرنين الرابع والخامس ميلاديين"، المرجع السابق، ص 36.

أما "بول مونصو" (Monceaux.P) فهو يرى أن الدوناتية عبارة عن انشقاق إفريقي حصري، يحتل مكانة خاصة و هامة للغاية في تاريخ المسيحية المحلية. وُلدت في قرطاج و نوميديا من أهواء البلد و خلافاته، دون تجاوز حدود شمال إفريقيا، و أنه لم يكن لها أتباع خارج المنطقة في حين كانت تأثيرها كبيراً، حيث تطورت بشكل ملحوظ من حركة مناوئة للكنيسة في قرطاج بسبب النزاع النظامي الذي وقع بين عدّة أساقفة إلى مذهب قوي و حيوي مؤسس لكنيسة مستقلة معارضة للكنيسة الرسمية¹، محافظ على المبادئ الأصلية للمسيحيين الأوائل الراضين لأي شكل من الأشكال المساومة مع السلطة الحاكمة، أو الخضوع لشروطها و إرادتها، مما جعل أتباعها يتعرضون للاضطهاد و التنكيل و كسبت تأييداً شعبياً كبيراً².

وبذلك يمكن تعريف الدوناتية على أنها حركة دينية ثورية اجتماعية وسياسية كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى انقلاب الأوضاع في بلاد المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني.

ثانياً: أسباب وعوامل ظهور الحركة الدوناتية:

قبل أن نتطرق إلى العوامل الأساسية التي أدت إلى ظهور الحركة الدوناتية، لا بد لنا أن نشير إلى بعض الأسباب الخفية التي ساهمت في ظهورها، والتي نوجزها فيما يلي:

- ✓ أدت سياسة الاستيلاء على الأراضي الزراعية إلى نتائج وخيمة، حيث تأزمت وضعية السكان، ما أدى إلى تغيير البنية الاجتماعية في منطقة إفريقيا، خاصة من بداية النصف الثاني من القرن الثالث من فترة الاحتلال الروماني؛ وبالتالي أصبح ملاك الأراضي مجرد عاملين في تلك الأراضي، مع ارتفاع نسبة البطالة بين القبائل التي طردت من أراضيها نحو المناطق السهلية.
- ✓ كثرة الضرائب التي أثقلت كاهل الفقراء و عدم قدرتهم على تحملها، حيث فقد البعض أراضيهم، و اضطر البعض الآخر على اللجوء لكبار الملاك لطلب الحماية منهم.

¹-Monceaux(P), Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne depuis les origines jusqu'à l'invasion arabe, T.4, Op.cit, p 4.

²-أويحي سعيدة، الديانة المسيحية في المغرب القديم من نهاية القرن الثاني ميلادي إلى بداية القرن الخامس ميلادي(180-411م)، المرجع السابق، ص 205.

تأزمت الأوضاع وأصبحوا مُستغَلين من طرف السُلطة الرومانية ومن طرف الأغنياء.

✓ تم فرض حصار اجتماعي على مختلف فئات المجتمع، حيث قيّد انتقال الأفراد من فئة إجتماعية لأخرى، وهذا ما ساعد على تدهور الأوضاع المعيشية خاصةً بالنسبة للفئات الفقيرة، كما أصبح المواطن الحرّ في نفس الدرجة مع العبد من حيث المستوى المعيشي والحقوق المدنية¹.

وبالتالي كان ردّ فعل المتضررين من هذه السياسة يقطع علاقاتهم مع السُلطة الرومانية وكذا الكنيسة الكاثوليكية التي كانت متواطئة مع هذه السُلطة، وهذا ما دفعهم بالانضمام للكنيسة الدونانية التي وجدوا فيها مُبتغاهم.

لم تُعد الكنيسة الرسمية متمسكة بمبادئها، متخليّة عن أهدافها، الداعية لنشر العدالة والمساواة على عكس ما كانت له سابقاً، حيث أنها كانت تشاركهم شقائهم الروحي وتُعطيهم أمل في حياة أفضل، وذلك نتيجةً لتنصر السُلطة الرومانية².

وهكذا أصبحت الكنيسة الدونانية كحركة ذات طابع إيديولوجي مُعادية للسُلطة الرومانية، تضمّ العناصر الحاقدة على النظام السياسي الاقتصادي والاجتماعي، بحيث كان الفساد منتشرًا في جميع الهياكل، وعمّت اللامساواة في المجتمع المغربي القديم.

1- العامل الاقتصادي:

✓ اعتبرت روما أراضي البلاد المفتوحة ملكيّة عمومية للشعب الروماني.
 ✓ كما عملت على انتزاع الأراضي الخصبّة والرعيّة والغابات وأراضي الخواص من أصحابها لصالح الإمبراطور والطبقة السيناتورية والأرستقراطية، كما اعتبرت روما منطقة إفريقيا كخزان لها، بحيث تقوم بتزويدها بالمحاصيل الزراعيّة، كما عملت على استغلال الثروات المعدنية والبحرية وحتى الحيوانية.

¹-منصوري خديجة، المرجع السابق، ص 35.

²-نفس المرجع، ص 36.

- ✓ -كما قاموا بفرض ضريبة الأنونة (Anonization tributum) (وهي ضريبة سنوية على المحاصيل الزراعية).
- ✓ فرض الرومان على جمهورية الفلاحين (المزارعين والأجراء وباقي العمال) القيام بأعمال السخرة، كما فرضوا الحماية على القلة الأرستقراطية المهيمنة، مع تقديم مختلف الامتيازات لهم من ثروات، كما قاموا باحتقار السلطة.
- ✓ وهذا ما جعل البعض يصف إفريقيا أنها كانت "أهراء روما" أو "مطمورة روما"، حيث يشيرون بالقول أن البربر التي لا تكاد تُطعم أهلها اليوم كانت أحد مخازن العالم القديم¹.

ومن هنا نستنتج أن بلاد المغرب القديم قد لعبت دوراً اقتصادياً هاماً في إنعاش الإمبراطورية الرومانية وذلك باستغلالها لخيرات المنطقة بأشجع الطرق. كما استغلت الأرض بطريقة مُفرطة حيثُ بلغ بها الأمر لدرجة إنتاج القمح مرتين في السنة.

2-العامل الديني:

إنّ العامل الديني لا يقلّ أهمية عن العمل الاقتصادي، بحيث كان هو الآخر سببا أساسيا في ظهور الحركة الدوناتية، فبعد تنصُر السلطة ظهرت خلافات داخل الكنيسة الكاثوليكية، بحث أن هذه الأخيرة فقدت المبادئ والأسس التي ترتكز عليها الديانة المسيحية، وفي هذا السياق سوف نوضح هذه الأسباب الدينية التي أدت إلى ظهور الكنيسة الدوناتية والتي سوف نوجزها في النقاط التالية:

- ✓ بعد وفاة "مونصوريوس" (Monsoruis)* سارع كل من "بُطرس" (Bsueto) و"كيليستوس" (Caclestus) إلى دعوة أساقفة المُدن المجاورة لقرطاجة لعقد مُجمع

¹-عيوج زاهية، "الحركة الدوناتية في المغرب القديم دورها في مقاومة الرومان" المقاومة الجزائرية عبر العصور، المرجع السابق، ص-ص 89-90.

*مونصوريوس Monsoruis: أسقف قرطاج في بداية ق4م ذكره كل من أوبطاميلي والقديس أغسطين، تم إتهامه من قبل الإمبراطور ماكسينتيوس Maxentius بعد تسليم الكاهن فليكس Félix لى دعوة الإمبراطور بزيارة روما، وتوفي في طريق عودته سنة 311م، أنظر الربيع عولمي، الديانة المسيحية في المغرب القديم ودورها في أحداث القرنين الرابع والخامس ميلاديين، المرجع السابق، ص 388.

- لانتخاب أسقف جديد، لكن الأمور تغيرت ولم تجري كما كان متوقعًا؛ حيث وقع الاختيار على "كايكيليانوس"، الأمر الذي أثار غضبهم فرفضوا الاعتراف به.
- ✓ تدخل رجال الدين القرطاجيون الذين كانوا يُساعدون الأسقف "منصوريوس" في الإشراف على ممتلكات الكنيسة ومطالبتهم بالتحف الثمينة التابعة لها والتي تركها "كايكيليانوس" قبل ذهابه إلى روما لتفسير موقفه الذي إتخذه أثناء اضطهادات سنة 304م، فقاموا بالانفصال عن هذا الأخير¹.
- ✓ بالإضافة لوقوف "لوكيلا" (Lucilla)** إلى جانب المعارضين، والتي رأتها كفرصة مناسبة للانتقام من "كايكيليانوس" الذي كان قد وبّخها سابقًا بعدما طلب منها التخلي عن عادة تقبيل بعض عظام الشهيد أثناء القيام بالصلاة².
- ✓ قام "دوناتوس" بالتواصل مع أساقفة نوميديا ليُعلمهم بما كان يجري بقرطاج، فساروا إلى الانضمام إليه وإلى المعارضين القرطاجيين، فاجتمع حوالي سبعون أسقفًا بمنزل "لوكيلا" بقرطاج سنة 312م، فأعلنوا عدم شرعية انتخاب الأسقف "كايكيليانوس" وذلك لعدم حضورهم للاجتماع.
- ✓ إتهام الأسقف "فيليكس الأبتونجي" (Félix Abthungi) الذي سام "كايكيليانوس" بتسليم الكتب المقدسة أثناء الاضطهاد الديني لسنة 304م، فتمكنت "لوكيلا" بالاتفاق مع بعض الأساقفة للتصويت على "ماجورينوس"، فقام المُجمّع بمطالبة كل الكنائس الإفريقية بقطع روابطها مع "كايكيليانوس".
- ✓ وبهذا قد أدى هذا الخلاف إلى حدوث انشقاق داخل الكنيسة الإفريقية، حيث ظهر فريقين؛ أحدهما مؤيد "لكايكيليانوس" وآخر يُناصر "ماجورينوس"، الذي خُلفه فيما

¹ -منصوري خديجة، الصراع الدوناتى الكاثوليكي، جامعة وهران، دت، ص 33.

**لوكيلا أو لوسيلا Lucilla: من أصل إسباني يعود سبب خلافها مع كايكيليانوس إلى غضبها منه بعد أن طلب منها التخلي عن عادة تقبيل عظام الشهيد عند القربان، كما إتهما أغسطين بشراء بعض الأساقفة النوميدي لانتخاب ماجورينوس وإدانة كايكيليانوس. للمزيد أنظر: Monceaux(P)., H.L.A.C., T.4, p15

² -Frend (W.H.C), The Donatist Church.Amovement of protest in roman North Africa, London, Clarendon Press,1952, p 18.

بعد الأسقف "دوناتوس" بعد وفاته. وبذلك أصبح كل مؤيد "الدوناتوس" عضو الحركة الجديدة المدعومة "بالدوناتية" نسبةً لزعيمها¹.

عندما إعتلى "قسطنطين" (Constantin) عرش الحكم قام بتعيين لجنة مكونة من خمسة عشر (15) أسقفًا إيطاليًا وثلاثة من بلاد الغال، ودعاهم للاجتماع سنة 313م بروما للنظر في النزاع القائم بين الطرفين، حيث خرج الاجتماع بقرار ترسيخ براءة "كاكيليانوس"، فأرسل مبعوثين إلى إفريقيا بإعلام الكنائس بوجود كنيسة واحدة وهي الكنيسة الكاثوليكية مدعماً "كاكيليانوس".

فقام الدوناتيين بمطالبة تدخل الإمبراطور شخصياً، فعقد مجمع كنسي في "آرل" (Arles)* عام بحضور ثلاثة وثلاثون (33) أسقفًا، فقاموا بترسيخ قرارات اجتماع 313م وإدانة الحركة الدوناتية. وبعد مرور ثلاثة سنوات (عام 316م)، فقام "قسطنطين" باتخاذ خطوات قانونية لتطبيق قرار مجمع آرل، وتم تهديد الدوناتية بإنزال عقوبات ضدهم وإعتبارهم خارجين عن القانون².

ونلاحظ إذًا بأن الكنيسة الرسمية والسلطة الزمنية تحالفوا مع بعضهم، وهذا ما يُبرر عدم تقبل الدوناتيين للخضوع لأي سلطة سواها إمبراطورية أو كاثوليكية.

ثالثاً: مراحل تطوّر الحركة الدوناتية:

لقد مرّت الحركة الدوناتية عبر تاريخها الطويل والتي يمكننا أن نقسمها إلى مرحلتين، حيث تعود المرحلة الأولى إلى زمن اضطهادات ديوكليتيانوس. أما المرحلة الثانية والتي كانت في عهد الإمبراطور قنسطانس تميزت بتحالف السلطة مع الكنيسة من جهة، وتحالف الدوناتيين مع الثوار الريفيين من جهة أخرى.

¹ - منصورى خديجة، المرجع السابق، ص 33.

*مجمع آرل Arles: قام به القديس أغسطين في 1 أوت 314م في بلاد الغال، حضرته تقريبا كل مقاطعات الغرب ووفد الكنيستين الإفريقيين، لإتخاذ الإجراءات الواجب إتباعها إتجاه المرتدين وفي الاتهامات الموجهة إليهم. للمزيد يُنظر - Monceaux(P)., H.L.A.C., T.4,p 23.

² - عوج زاهية، المرجع السابق، ص-ص 92-93.

المرحلة الأولى: الظهور والانشقاق:

لقد ربط المؤرخون زمن إنطلاق هذه المرحلة بأحداث قرية "أبتينا" لكننا نلاحظ أن جذور الخلافات الدينية تعود إلى زمن أسقفية "كبيريانوس" (249-258م)، والمُصادق لإضطهاد "ديوقلديانوس" ونظرًا لِحِدَّة هذا الاضطهاد أنكر بعض المسيحيين إنتمائهم للدين المسيحي¹.

هذا ما أدّى لظهور مشكلة المرتدين الذي كان السبب في نشوب الصِراع، ونظرًا لِشِدَّة اضطهاد "ديوقلديانوس" اضطر الكثير من المسيحيين المؤمنين بالتظاهر بالكُفر، كما قاموا بآتهام الأسقف "منصور يوس" بتسليمه الكتب المقدّسة للكنيسة الرسمية، وتضامن ضدها كلّ من رجال الكنيسة في نوميديا مع شعب قرطاج، وذلك لأنّهم يُكنون لهم نفس الشعور بالكراهية إتجاهها.

وهنا نذكر شهداء قرية "أبتينا" الذين صمدوا في وجه تلك الاضطهادات، فقاموا بواجبهم على أكمل وجه، وطردوا المرتدين من حظيرة الدين في حين لم تقم الكنيسة وزناً لإدعاءاتهم اللاهوتية، لكن بمُجرّد رفضهم جميع من تجاوبوا مع الخونة أثاروا الحماس حولهم، خاصّةً في نوميديا².

في حين عجز الأسقف "كبيريانوس" في حَسَم الخلاف حول قضية المرتدين أو المتظاهرين بالكُفر، حيث أنه لم يتمكن من إقناع أساقفة إفريقيا وقساوستها بوجهة نظره، فعارضه جزء منهم وطرد خمسة منهم من الكنيسة، وتمكن "نوفاتوس" (Nofatus) أحد أولئك الخمسة من إنشاء كنيسة مُعادية لكنيسة قرطاج، حيث واجه من خلالها الأسقف "كبيريانوس" الذي تسامح في قضية المُرتدين التائبين. لكن هذه الكنيسة الجديدة لم تتمكن من

¹ - محمد البشير شنيّتي، المرجع السابق، ص 296.

² - شارل أندري جوليان، تاريخ شمال إفريقيا الشمالية تونس-الجزائر-المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م، المرجع السابق، ص 296.

الانتصار على كنيسة "كبيريانوس" بعد أن فشلت بالفوز بأسقفية قرطاج أمام هذا الأخير الذي طردهم¹.

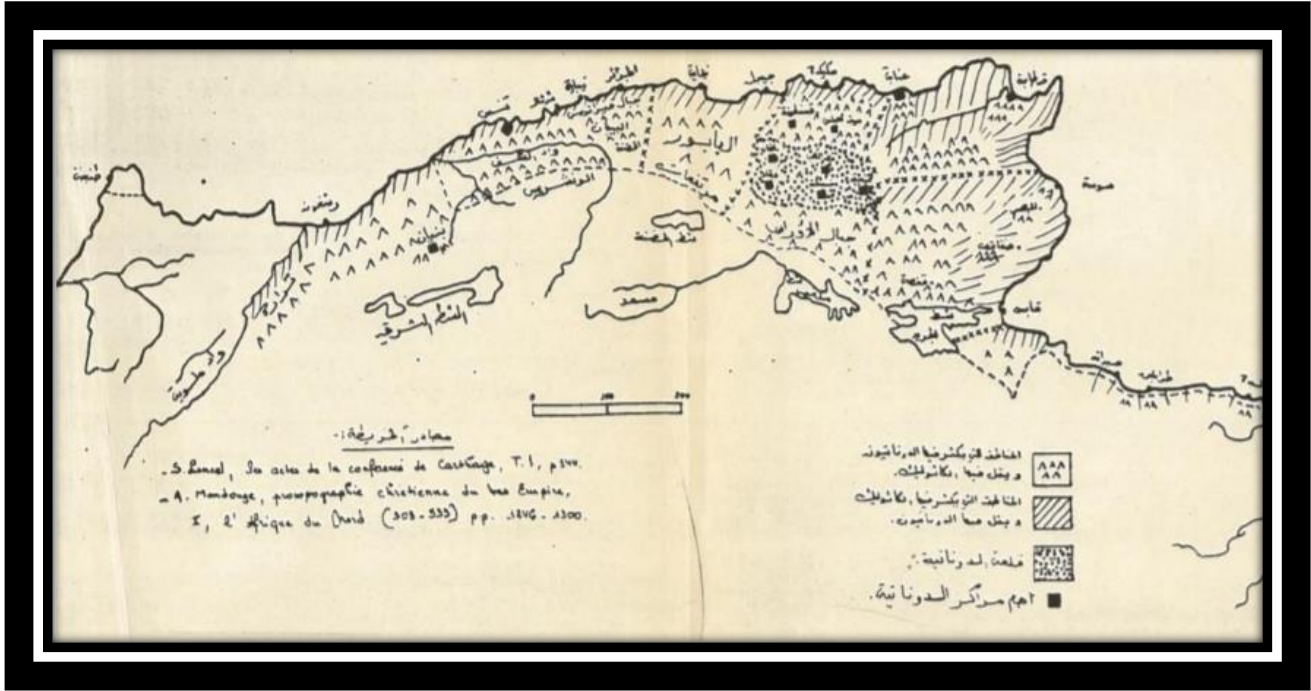
لقد إمتازت المرحلة الأولى من الحركة الدوناتية بالمقاومة السلمية، فلم يلجأ الدوناتيين لإستعمال القوة للدفاع عن أنفسهم أمام العنف الذي طُبِقَ ضدهم والأضرار التي ألحقت بهم من طرف السلطنة. وبذلك أن قرار الإمبراطور "قسطنطين" الذي صدر عام 316م كان يقضي بتوحيد المسيحية في إفريقيا بكلّ الوسائل، وقام بعده حُكام المقاطعات الرومانية أمثال "ليانتوس" (Leantuis) و "أوريساكيوس" (Uresacius) بعدة حملات عسكرية لإجبار المنشقين عن كنيسة قرطاج إلى الانطواء تحتها.

ارتكبت خلال ذلك أعمال قمع كبرى، شبيهة بتلك الاضطهادات التي عرفها الناس من قبل. فكانت الكنائس الدوناتية مقرًا للتعذيب، حيث سقط فيها الكثير من الضحايا، وكذلك كلّ المُدن التي انضمت إلى حزب "دوناتوس" وقابل الدوناتيين ذلك العنف بالصبر، مُتمسكين بمبادئهم، ممّا جعل حركتهم تزداد قوة في نفوس أتباعهم.

وفي هذه المرحلة التي امتدت إلى غاية 347م عمل الدوناتيين على تنظيم حركتهم ونشر أفكارهم بين الناس، وضمّ "دوناتوس الكبير" معظم مناطق المغرب القديم إلى الحركة بمن فيها المدن والأرياف². (أنظر الخريطة رقم 5 صفحة 73).

¹ - محمد البشير شنيّتي، المرجع السابق، ص 296.

² - نفس المرجع، ص 297.



خريطة رقم 5: انتشار الحركة الدونانية في المغرب القديم.

نقلا عن: منصور خديجة، الدونانية وثورات القرن الرابع في شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص 321.

وفي ظلّ هذه الفترة تمكن "دوناتوس" إكتساب حركته مضامين إقتصادية واجتماعية وسياسية، فالتفت حولها الطبقة الفقيرة و المضطهدة، و من ثم أصبحت الدونانية تُمثل إتجاهاً واضحاً في عَيْن رجال الدين الكاثوليك و السُلطة الإمبراطورية وكذا الطبقة الأرستقراطية¹.

المرحلة الثانية: المُمتدة من 347م إلى غاية 411م:

تميّزت هذه المرحلة بالعُنف، خاصة بالإجراءات التي قام بها "قنسطانس" (Constant)* التي تقضي بتوزيع الصدقات على الفقراء لإستمالة قلوبهم نحو السُلطة ولِكسبهم، للرُضوخ لهم وللقانون. لكن الدونانية قامت بمقاومة هذه الإجراءات و ردّ "دوناتوس" على مبعوثي الإمبراطور أنه ليس من حقّه التّدخل في شؤون الكنيسة، كما ميّزت هذه المرحلة بتحالف الكاثوليك مع السُلطة من جهة، و من جهة أخرى تحالف الدوناتيين مع الثّوار الريفيين ، إلى جانب بروز مُجادلين في صفّي الطرفين من بينهم "بارمينيانوس" الدوناتى الذي أَلف كتاباً في خمسة أجزاء ضمن الدفاع عن الدونانية، لكن لم يَصِلنا إلا فقرات منه ضمن كتاب خصمه "القديس أوبطاميلي" (OPTAT DE MILEVE) رائد الجدل الكاثوليكي المُناهض للدونانية، الذي أَلف كتاب شديد التحامل ضدّ الدونانية وعارض فيه آراء "بارمينيانوس" في كتابه "الردّ على بارمينيانوس الدوناتى" حوالي عام 366م، ثمّ "بيتيليانوس" أسقُف سيرتا الذي أَلف و ردّ على رسائل "بيتيليانوس"، ثمّ "القديس أغسطس" أحد أقطاب اللاهوت المسيحي في العديد من كتاباته (مدينة الله) و(الاعترافات)².

يبدو من خلال محتوى الجدل أن الأساقفة الدوناتيين كانوا لا يقلّون عُمقاً عن خصومهم في تناولهم للقضايا المطروحة، ولا أقلّ منهم تمكّناً من ناصية اللّغة اللاتينية وآدابها. حيث إتّصفت هذه المرحلة بشمولية ومساهمة زُعماء الدونانية في الأحداث السياسية

¹-نفس المرجع، ص-ص 297-298.

***قنسطانس II:** ابن الإمبراطور قسطنطين، وهو إمبراطور الشرق ورث العرش عن أبيه عام 337م، عمل على مواصلة سياسة أبيه في تكريس الوحدة الدينية، أطلق عليه إسم (Julien César des Gaules). للمزيد أنظر: -Claude Augé, Larousse universel en deux volume, T 1, librairie Larousse, Paris,1922, p511.

²-عيوج زاهية، المرجع السابق، ص-ص 94-95.

الجارية حولهم. والتعامل مع القوى السياسية والعسكرية المناهضة للإمبراطورية، مثل ثورتي الأخوين "فيرموس" (Firmus) و "جيلدون" (Gildon) وعبرت بذلك عن الدوافع السياسية الكاملة وراء الإنشقاق الديني. وهذا ما جعل الأباطرة يضعون على السادة الرومانية، وأخذوا على عاتقهم مهمة متابعة الدوناتية عسكرياً وقانونياً، قصد نزع جذورها من المقاطعات التابعة لروما. فطردت الجيوش رجال الحركة الدوناتية وعاشوا في كنائسها، وأعلن الإمبراطور "هونوريوس" عن تشكيل محكمة خاصة لمحاكمة المنشقين وإصدار عقوبات ضد جميع الفئات المتعاملة معهم، وهي المحكمة التي مارست محاكمتها بقرطاج عام 411م، والتي أجبرت الدوناتيين على تسليم كنائسهم وممتلكاتهم إلى الكاثوليك¹.

أما الفترة بين محاكمة قرطاج إلى نهاية المسيحية في إفريقيا؛ تُعتبر المرحلة الأخيرة التي إمتازت بالغموض ووهم الحركة الدوناتية، خاصةً في عهد الإمبراطور "هونوريوس" (379-395)².

ونلاحظ إذاً مما سبق ذكره أن هذه المرحلة اتّصفت بالغموض وقلة الحيوية التاريخية.

رابعاً: بداية التلاخُم بين حركة الدوارين والحركة الدوناتية:

نتيجةً لتردّي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البلاد المغاربية وجدت الدوناتية في ثورة الريفيين دعماً وسنداً للوقوف في وجه خصومهم المتمثل في الكنيسة الكاثوليكية والسلطة الرومانية، حيث اعتُبرت حركة الثوار الريفيين جناحاً مسلحاً للحركة الدوناتية، التي كانت تسعى لإزالة الفوارق الاقتصادية والاجتماعية وتحقيق العدل والمساواة المُستمدّة من التعاليم المسيحية، وكانت تعتبر كل من هو ضدّ الكنيسة الكاثوليكية والسلطة حليفاً لها.

وفي هذا السياق نطرح السؤال عن طبيعة العلاقة بين هاتين الحركتين، ما إذا كانتا مستقلتان أم هما حركتان متكاملتان؟

¹-محمد البشير شنيّتي، المرجع السابق، ص 300.

²-عيوج زاهية، المرجع السابق، ص 95.

وللإجابة على هذا السؤال فإنّه يجب علينا أن نعود إلى سنة 347م وما حدث بمدينة باغاي، حيث أنّ تلك الحادثة تعتبر تحوّلاً كبيراً في تاريخ الدوناتية بعد إتّحادها مع ثورة الريفيين، وتسلّم "دوناتوس" قيادة هذه المقاومة الريفية وحوّل كنيسة المدينة إلى محزن للمؤمن والذخيرة، وقام بتحسين المدينة للصمود والوقوف في وجه الحملة العسكرية المرتقبة.

جاء في النصوص والمصادر أنّ التضامن قد بلغ ذروته بين الأهالي في جميع رُبوع نوميديا، خاصّةً منطقة الأوراس، حيث أنّ سكان مدينة "فيجزيللا" (Vegezilla) ثاروا ضدّ "مكاريوس" الأسقف الكاثوليكي الذي صاحب الحملة العسكرية على باغاي، كما عبّروا عن غضبهم الشديد عندما قام هذا الأسقف بإصدار أمر بجلد مبعوثي مجلس "سيرتا" (Cirta) الدوناتية علانيةً في 29 جويلية 347م، ونظرًا لتلك الإنتفاضات اضطرّ الأسقف إلى إطلاق سراح بعضهم والتظاهر بالعفو عنهم¹.

ومن هنا يتّضح لنا أنّ نقطة إنطلاق التلاحم والتكامل بين الحزب الديني المنشق عن الكنيسة الرّسمية (الدوناتية) وبين ثورة الريفيين (الدوارين) الذين صاروا يُلقَّبون بجنود المسيح (Milites Christi). كما أصبح رؤسائهم "أوكسيدو" (Axido) و "فاسير" (Fasir) يُلقَّبون "بقيادة القديسين" (Duces Sanctorum)، وشعارهم الديني كان «لله الحمد» «Deo Laudes»، التي كانت عبارة قويّة لدرجة أنّها أثّرت على نفوس أعدائهم. كما أصبح ضحايا العُنف الروماني بمثابة شُهداء قديسين ينظر الدوناتية².

وهذا ما يدلّ على شمولية النظرة الدوناتية وتبني حزبها الديني لمبادئ وأهداف الثورة الريفية³.

ونلاحظ إذاً أنّه في هذه النُقطة بدأ التلاحم وأصبح كلّ من الدوارين والدوناتيين يُكَمَلون ويُساندون بعضهم البعض، لكن رغم ذلك إلا أنّ هذه العلاقة تخلّلتها فترات من التوتر

1- محمد البشير شنيبي، أضواء على تاريخ الجزائر القديم، المرجع السابق، ص 182.

2- نفس المرجع، ص-ص 182-183.

3- نفس المرجع، ص 183.

والخصام بين الطرفين. وهنا نتساءل حول طبيعة تلك العلاقة؟ وما هي الأحداث التي جرت بينهما حتى بلغتا هذا التلاحم والتكامل؟ وفيما تتمثل الدوافع التي كانت وراء هذا الترابط؟ وهذه التساؤلات التي طرحناها سوف نحاول مناقشتها والإجابة عنها في المباحث الموالية.

المبحث الثاني: العلاقة بين حركة الدوارين والدوناتية قبل سنة 347م

أولا -محاولات تحديد بداية حركة الدوارين:

ليس من السهل تحديد بداية العلاقة بين حركة الدوارين والدوناتية بشكلٍ دقيق، فحسب محمد المُبكر فإن "القديس أغسطين" يُشير أن نشاط حركة الدوارين وأعمالها الإجرامية قد بدأت مع ميلاد الانشقاق الدوناتي. حيث يظهر ذلك من خلال مخاطبة أغسطين للأسقف الدوناتي "بتيليانوس" (Pétilianus) * حوالي سنة 400م¹. والدليل من ذلك هو قوله: «ليس من الصعب الوقوف إقليمياً بإقليم على كل ما اقترفه ومازال يقترفه زعماء دواريكم. وعصابتهم المكوّنة من السكيرين والمجانين منذ بداية انشقاقكم حتى الآن...»².

كما نراه أيضا يخاطب الأسقف "كريسكونيوس" (Cresconius) * حوالي سنة 405م قائلاً: «...و الواقع أنني لو أردتُ تعداد الفظاعة التي اطلعتُ عليها عند الأقدمين، أو التي تعرفتُ عليها بنفسي، و التي اضطهد بها دُؤوكم الكنيسة الكاثوليكية منذ بداية انشقاقكم إلى يومنا هذا، فأني لسانٍ و أيُّ قلمٍ و أيُّ وقتٍ سوف يلزمني لذلك؟...»³.

فحسب هذه النصوص المذكورة فإن أغسطين كان يوجه أصابع الاتهام إلى الدوارين، بحيث أنه يشير إليهم على أنهم عساكر الدوناتية ورؤوس رماحها ضد الكاثوليك، حيث يهدف هذا الاتهام إلى توجيه أنظار السُلطة الرومانية إليهم لِتواجههم بالقوة وتحاول القضاء عليهم⁴.

*بتيليانوس Petilianus: هو أسقف دوناتي لمدينة سيرتا Cirta (قسنطينة حالياً)، وهو أحد ممثلي الكنيسة الدوناتية في مناظرة قرطاج سنة 411م، ويعدُّ أقوى خصوم القديس أغسطين. المزيد يُنظر الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 549م.¹

1- محمد المبكر، شمال إفريقيا القديم-حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية(305-429م)، المرجع السابق، ص 171.
2- القديس أغسطين حسب محمد المبكر، المرجع السابق، ص 171.

*كريسكونيوس Cresconius: هو دوناتي نحاس ومن المجادلين الدوناتيين المخاصمين لأغسطين. المزيد ينظر: -Monceaux(P).,H.L.A.C.,T4,p 67.

3- القديس أغسطين حسب محمد المبكر، المرجع السابق، ص 171.

4- الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 549.

وإذا ما رجع المرء إلى المرحلة الأولى من الحركة الدوناتية التي تعرّض إليها أغسطس في كتاباته فإنه لا يجد دليلاً قاطعاً على بداية التعامل بين الدوارين و الدوناتيين، ورغم محاولات بعض الباحثين لإثبات ذلك، ومن أبرزهم نذكر ما قام به الباحث "سيرج لونصل" (Serge Lancel) عند رجوعه إلى جذور الدوناتية¹، أي بعد نهاية اضطهاد "دقلديانوس" (303-305م)، ففي سنة 305م تم انتخاب "سيلفانوس" (Silvanus) أسقفاً لمدينة (سيرتا)، وفي سنة 320م أقام "نونديناريوس" (Nondinarius) الذي كان شماساً تحت أوامر "سيلفانوس"، و دعا هذا الأخير يُطعن في انتخابه أسقفاً سنة 307م، حيث اتهمه بالتخاذل (Traditio) خلال فترة اضطهاد "ديوكليتيانوس". ويظهر لنا أنه قد حدث نزاع حاد بين الطرفين، حيث تطلب الأمر تدخل والي نوميديا "زينوفيلوس" (Zenophilos)، وخلال المحاكمة التي ترأسها هذا الوالي في تاموغادي (تمقاد حالياً)، تم الاستماع إلى الشهود الذين عيّنوا انتخاب "سيلفانوس"².

وحسب ما ذكره محمد المبكر فإن "أوبطاميلي" قد حافظ على تصريحات هؤلاء الشهود وتدخلات الوالي "زينوفيلوس" في بعض الصفحات تحت عنوان "محضر زينوفيلوس" والتي ألحقها بمؤلفه (ضد الانشقاق الدوناتية). و يتجلى ذلك من خلال المحضر المذكور أن الإجماع لم يكن حاصلاً حول اختيار "سيلفانوس" أسقفاً على أبرشية قرطاجة أثناء انتخابه سنة 307م. فمن كان انتصارهم عبارة عن خليط من دُهماء المدينة، خاصة مُصارعي حيوانات السيرك (Harenarii)، وأيضاً الريفيين (Campenses)، ومن الجهة المقابلة كان هناك المواطنون المحترمون (Cives)، أي الأعيان بمن فيهم السينيورات (Seniores)³ وهم الأعضاء العلمانيون المشاركون في تسيير الجماعة الدينية لمدينة قرطاجة⁴، الذين كانوا يمثلون البرجوازية الحضارية من جهة و الريفيين الذين كانوا يمثلون دُهماء الأرياف والمدن

¹- محمد المبكر، المرجع السابق، ص-ص 172-173.

²- نفس المرجع، ص 173.

³- نفس المرجع، ص 173.

⁴- Monceaux(P),H.L.A.C., T4,p143.

من جهة أخرى. والواقع أن الصراع بينهما كان صراعاً اجتماعياً محضاً بين طبقتين متميزتين من حيث الثراء والمكانة الاجتماعية، ولم يكن أبداً صراعاً ذا طابعاً دينياً أو فقهياً¹.

ولذلك كان الأسقف "سيلفانوس" دوناتياً قبل الأوان، وأن الريفيين المذكورين في النص والذين تدخلوا لفرض مرشحهم "سيلفانوس" بالقوة يمكن اعتبارهم سلف الدوارين، واعتبار تصرفاتهم على أنها إرهابات لحركة الدوارين².

ويتضح مما سبق أنه من غير الممكن تأويل النص والتأكيد على أن هؤلاء الريفيين كانوا دوارين لِسِمَاتِهِم التاريخية التي ظهوروا بها فيما بعد أن حدث الانشقاق، لأن النص الذي أُورده (Serge Lancel) غير صحيح في هذه المسألة³.

ونلاحظ من هذا النص أن محضر "زينوفيلوس" سكت عن ذكر الدوارين، وذلك أن "نونديناريوس" استعمل مصطلح "الريفيين" (Campenses) بدلاً من مصطلح "الدوارين" لِنَعْتِ أَنْصَارِ "سيلفانوس" أثناء انتخابه أسقفاً لمدينة (سيرتا) سنة 305م، ولَوْ تَأْتِي لَهُمْ ذَلِكَ لَوَضَعُوا الْأَسْقَفَ الدوناتِي فِي مَوْقِفِ حَرَجٍ، وَلَا لَبُّوا الْوَالِي "زينوفيلوس" ضده، نظراً أن البعض أصبح يحيط بالدوارين والمتعاملين معهم بعد ظهورهم على مسرح الأحداث⁴.

فإما أن الريفيين المذكورين في المحضر لم يكونوا "دوارين" ولا سلفاً لهم بل خليط من المزارعين والفلاحين الصغار، أي سكان الريف المجاور لمدينة (سيرتا) على العموم. وإما أنهم كانوا بالفعل سلف الدوارين ولكنهم لم يكونوا قد تحولوا بعد حوالي سنة 320م (أي وقت محاكمة سيلفانوس) إلى دوارين حقيقيين، أي بِسِمَاتِهِم التاريخية الأساسية التي ظهوروا بها بعد ذلك (من تنظيم وطريقة عمل ومبادئ...) ⁵.

¹-محمد المبكر، المرجع السابق، ص 174.

²-الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 551.

³-نفس المرجع، ص 551.

⁴-محمد المبكر، المرجع السابق، ص 175.

⁵-نفس المرجع، ص 175.

ويبدو أن صمت المحضر عن الدوارين ناتج عن جهل الأشخاص الماثلين أمام محكمة "زينوفيلوس" بوجودهم¹، وذلك أن تلك الأحداث كانت قد وقعت بمدينة (سيرتا)، أما المحاكمة فقد تمت بمدينة (تمقاد)، وكلتا المدينتين كانتا من أكبر المدن النوميديّة التي شهدت نشاطات الدوارين و عملياتهم.

ويمكن أن نستنتج إذاً أن حركة الدوارين لم تتضح معالمها إلا في سنة 320م، أي نفس السنة التي تمت فيها المحاكمة².

وإذا إتبعنا أحداث بروز الحركة الدوناتية بعد سنة 350م إلى العثور على إشارة ما إلى الدوارين؛ فإننا نصل إلى عام 313م حيث كان الانشقاق الدوناتى قد حدث، وأصبح المسيحيون الأفارقة منقسمون إلى تيار مؤيد للأسقف القرطاجي الكاثوليكي "كاكيليانوس" (Caecilianus)، وتيار معارض له برئاسة "ماجورينوس" (Majorinus)* ثم "دوناتوس الأكبر" (Donatus) بعد ذلك. وقد تقدم هؤلاء المناوئين إلى بروقنصل إفريقيا "أنوليوس" (Anolius) بوثيقتين لمطالبة فتح تحقيق حول سياسة "كاكيليانوس"، أي تعيينه كأسقف من طرف الأساقفة المتهمين بالتخاذل (Traditio) أيام الاضطهاد الأكبر (303-305م)³، كما يطالبون بتعيين أساقفة من (بلاد الغال) للنظر في هذه القضية، لأن في رأيهم أنّ الغالين سوف يكونون محايدين لأن بلادهم لم تعرف كثيراً ظاهرة التخاذل لضعف الاضطهاد في ذلك الإقليم. فبعث "أنوليوس" إلى الإمبراطور "قسطنطين" بالوثيقتين مُرفقتين بمحضر من الوقائع والأحداث بتاريخ 15 أبريل 313م. كما ذكر هذا المحضر على الخصوص أن المعارضين "كاكيليانوس" كانوا مُرفقين بجمهور من الشعب في مظاهرات صاخبة. فهل الدوارون من جملة هذه الجماهير المشاغبة؟ لا يمكن التأكد من كونهم كذلك لأن التعبير الوارد في المحضر

1- نفس المرجع، ص 175.

2- الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 552.

*ماجورينوس (Majorinus): إنتخب من قبل سبعين أسقفا نوميديا المقصيين من إنتخاب "كاكيليانوس"، أقام كنيسة معادية لغريمه الذي تلقى دعماً من السلطة الرومانية، يعتبر من أبرع الخطباء وله قدرة على الإقناع. المزيد أنظر عمران عبد الحميد، الديانة المسيحية في المغرب القديم النشأة والتطور (180-430)، المرجع السابق، ص 130.

3 - محمد المبكر، المرجع السابق، ص 176.

هو تعبير عام وغير دقيق. حيث كان الأمر يتعلق بدهاء المدينة والذين عبّروا عن استيائهم من اختيار "كايكيليانوس" أسقفا على مدينتهم¹.

وحسب ما ورد عن "بول مونصو" فإنه يعتقد أن عصابات الدوارين تكونت سنة 317م، بعد صدور مرسوم "قسطنطين" الذي قرّر نزع البازيليكات الخاصة بهم من يدّ المنشقين الدوناتيين، وقد اعتمد في ذلك على ثلاثة نصوص²، ونوجزها حسب ما ذكره الدكتور ربيع عولمي في ما يلي:

النص الأول: ورد عند "أوبطاميلي"، حيث يذكر مهمة الأسقف "أونوميوس" (Eunomius) و"أولومبيوس" (Olympius) الذين وصلا إلى قرطاج سنة 316م لقضاء 40 يوماً في مهمة رسمية والتي تتمثل في حسم الموضوع بين الكنيستين المتناقضتين وإقرار أيهما الكنيسة الحقّة.

ومن هنا يبدو أن الإمبراطور "قسطنطين" أراد تكوين فكرة واضحة حول هذه القضية ليتمكن بذلك من إصدار حكماً نهائياً ضدّ الدوناتية، وهو ما حدث بعد إصداره مرسوم سنة 316م.

علماً أن الأسقفين لاقيا استقبالاً سيئاً لدى وصولهما إلى قرطاج، حيث تعرضا إلى الكثير من المضايقات والإهانات. وهنا نتساءل هل كان الدوارين حقاً من بين العناصر المشاغبة؟ لا يمكننا الجزم بذلك، لأن التعبير الوارد في النص كان عاماً وغير دقيق، واكتفى بذكر عناصر مشاغبة فقط، وهذا ما يدل حسب رأينا أنهم لا يمكن أن يكونوا من بين هؤلاء المشاغبة³.

النص الثاني: الذي اعتمده "مونصو" والذي جاء على شكل خطبة ألقاها "دوناتوس" لتبجيل "الشهداء" الدوناتيين الذين راحوا ضحايا اضطهاد السلطة الرومانية بعد صدور حكم "قسطنطين" ضدهم سنة 316م، حيث يشير النص أن الدوناتيين قد تعرضوا لأعمال عنف

¹-نفس المرجع، ص-ص 176-177.

²-Monceaux(P), H.L.A.C., T4, p 179.

³-الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 554.

واضطهاد على يد جنود الرومان في مختلف مدن المغرب القديم وبالأخص في قرطاج. وأن الدوناتيين في تلك المواجهات لم يكونوا قادرين على التنظيم، ولم تكن لديهم القدرات الهجومية التي اتّسم بها عمل الدوارين، لذلك سقطوا بسهولة أمام عنف ضربات الجنود.

ثم إنَّ الأمر كان عبارة عن مظاهرات شعبية وقعت بمدينة قرطاج، بينما كان مجال الدوارين في أرياف باغاي. وكانت هجماتهم تستهدف المدن بداية من القرن الخامس ميلادي. فكيف يمكن أن نقول على تلك الجماعات أو الجماهير الشعبية على أنها من الدوارين؟¹

أما النص الثالث: حسب ما يراه محمد المبكر فإن "بول مونصو" قد استدللّ به من فقرة للقديس أغسطين والتي ذُكرت في الرسالة التي ردّ فيها على "بارمينيانوس" * (Parmenianus): «... ذلك ما حدث قديماً بعد صدور الحكم الذي جعلهم (الدوناتيين) ينشقون عن الكنيسة، فقد حاولنا نحن الكاثوليك منعهم من الاحتفاظ بكنائسنا، إلا أنّهم احتفظوا بها رُغماً عن الإمبراطور. وكانت مقاومتهم تلك لأوامر الإمبراطور من التّعنت بحيث أن عنف الدوارين الشهير رجّح الكفة لصالحهم، وأكثر من ذلك فإنهم (الدوارين) بتمرداتهم الثورية والدموية قاموا بمناوشة مبعوثي الإمبراطور المحمّلين بالصدقات إلى الكنسية، وتتبعها خطوة بخطوة عبر إفريقيا»².

هذا النص يمتاز بذكر صريح لاسم الدوارين وهو مخالف للنصوص الواردة سابقاً. لكنه يبقى غامضاً فيما يخص تحديد بداية العلاقة بين الدوارين الدوناتيين. فإذا كانت العبارات الأولى فيه تتعلق³ بإجراءات صادرة البازيليكا الدوناتية وإسنادها للأساقفة الكاثوليك⁴ غداة صدور

¹ نفس المرجع، ص-ص 554-555.

* بارمينيانوس: من بين أشهر زعماء الدوناتية، ولد بإسبانيا أو غاليا، رفض قرارات مجمع قرطاج سنة 348م بقيادة الأسقف الكاثوليكي "غراتوس" كما طالب باستعادة ممتلكات ومعابد الدوناتية بعد اضطهاد الدوارين ونفي زعمائهم. المزيد يُنظر، عمران عبد الحميد، المرجع السابق، ص 218.

² القديس أغسطين حسب محمد المبكر، المرجع السابق، ص 178.

³ نفس المرجع.

⁴ - Monceaux(P).,H.L.A.C., T4,p 62.

حُكم قسطنطين سنة 316م. فإن نهاية النص تتحدث عن مهمة "بولوس" (Paulus) و"مكارْيوس" (Macarius) * الذين أرسلهم "قنسطانس" إلى إفريقيا.

هكذا فإن النص يشمل فترة طويلة من 316م إلى 347م دون الإشارة إلى بداية حركة الدوارين.

يبدو إذاً أن رغم ما جاء به "مونصو" (Monceaux) أنه من الصَّعب التأكّد على وجود تعامل بين الدوارين و الدوناتيين في السنوات القليلة التي تلت صدور قانون "قسطنطين" سنة 316م، لأن النصوص المتوفرة ليست صريحة بما فيه الكفاية، وكلّها و ما عاد نصّ أغسطس لا تذكر الدوارين بالاسم¹. علماً أنّ الدوناتيين لم يكونوا بالمعنى الدقيق "زنادقة" بل كانوا مجرد منشقين، و في وقت لاحق تمّ استيعاب إنشقاقهم قانونياً².

أما نص أغسطس لا يمكن اعتباره مؤشراً توقيتياً دقيقاً. و أمام صمت مختلف المصادر العائدة لهذه الفترة، يبدو أن الدوارين لم يظهروا على المسرح التاريخي بمميزاتهم المعروفة و على الأقل تحت هذا الاسم إلا في فترة متأخرة أي حوالي سنة 320م، وبالتالي يتفق مع الملاحظة التي يمكن أن نشير إليها بصددها محاكمة "سيلفانوس" سنة 320م³.

ويبقى إذاً أنّ أقدم إشارة صريحة للدوارين حسب محمد المبكر، فهي تلك التي ذكرها أوبطاميلي في الفصل الرابع من كتابه الثالث، و التي سبق أن ذكرنا فيها الفقرة التي تتحدث عن حركة الدوارين بزعامة "أوكسيديو" و"فاسير" قبل صدور قانون الوحدة على عهد قنسطانس سنة 347م، والفقرة التي تُسرّد أحداث معركة "محلة أوكتافا" بين الدوارين و جنود "الكونت تورينوس" (Comte Torinus) حوالي سنة 340م. وما يُميّز نصّ أوبطاميلي هو

* بولس ومكارْيوس: هما مبعوثان إمبراطوريان أرسلهما الإمبراطور "قنسطانس" الذي كلفهم بتوزيع المون سنة 347م في المغرب القديم، خاصة في نوميديا التي كانت معقل الدوناتية لمحاولة إقناع الدوناتيين بالرجوع إلى الوحدة الدينية الكاثوليكية. المزيد يُنظر، الربيع عولمي، المرجع السابق، 425.
1- محمد المبكر، المرجع السابق، ص 179.

2 - Monceaux(P),H.L.A.C., T4,p 51.

3- محمد المبكر، المرجع السابق، ص 179.

إحتوائه على إشارات هامة، وهي وقوع تلك الأحداث قبل صدور قانون الوحدة على عهد الإمبراطور "قنسطانس" سنة 347م.

وقد وقعت أحداث "محلة أوكتافا" (Octava Locus) أيام كان "تورينوس" ¹ يقوم بمهام كونت إفريقيا حوالي سنة 340م. ويبدو إذًا أن أول ظهور لحركة الدوارين يعود إلى حوالي سنة 340م عندما تدخل هذا الأخير بناءً على طلب الأساقفة الدوناتيين ². والأرجح أنها بدأت قبل ذلك بمدة، لأن تدخّل جنود "تورينوس" أتى بعد عجز الأساقفة المنشقين عن إرجاعهم إلى الصواب في إطار الكنيسة، مما يفهم أن الحركة قد تمّ إستفحال أمرها، خاصةً أنها وصلت لدرجة لا يُستهانُ بها من حيث التنظيم وطريقة العمل والمبادئ.

وحسب ما يظهر في النص الثالث لأغسطين الذي سبق ذكره فإنّ كلّ هذا يفرض أن الدوارين ظهوروا قبل حادثة "محلة أوكتافا" (Octava Locus) بمدينة معينة، ويستحيل تحديد هذه المدة بكامل الدقة انطلاقاً من المصادر المتوفرة ³.

كل ما يمكن ترجيحه هو أن ظهور حركة الدوارين بسماتها التاريخية قد حدثت بعد سنة 320م، لأن ذكرهم لم يرد في محضر "زينوفيلوس" على عكس ما يمكن أن يتوقع من جهة أخرى، فإن وجودهم كان شيئاً واقعاً حوالي سنة 340م. لذا فإن ظهور الحركة كان في الفترة ما بين سنتي 320م إلى 340م، وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن المعركة لم تمرّ بفترة مُخاض قبل أن تظهر مكتملة أو بسماتها الجوهرية في التنظيم والمبادئ وطريقة العمل.

ومن ثم يمكن النظر إلى الريفيين المشاغبيين الذين وُرد ذكرهم في محضر "زينوفيلوس" على أنّهم أسلاف الدوارين، وُجِدَت جذورها في الظروف الاقتصادية والاجتماعية والدينية والسياسية التي شاهدها البلاد بداية القرن الرابع ميلادي.

¹ نفس المرجع ص 179.

² -François Decret.Mhamed Fantar., L'Afrique de Nord dans l'Antiquité histoire et civilisation des origines au V eme siècle.,p299.

³ -محمد المبكر، المرجع السابق، ص 180.

لكن ما يهمنا الآن هو ظهور الدوارين بهذه التسمية وبالملاحم الرئيسية التي كانت خلال القرنين الرابع والخامس ميلاديين. وحسب المصادر التي وصلتنا في تلك الفترة فقد توصلنا إلى نتيجة أن ذلك حدث قبل سنة 340م وبعد سنة 320م، وعلى وجه الترجيح بالنسبة للسنة الأخيرة¹.

ثانياً- تناقضات أوبطاميلي:

إن نصّ أوبطاميلي الذي أوردنا سابقاً يُعتبر أقدم إشارة صريحة للدوارين، والمصدر الوحيد الذي تفصّل فيه في فترة قبل سنة 347م. وعند قراءة النص يبدو لنا أنه يتضمّن عدّة تناقضات، وذلك حسب رأي الدكتور ربيع عولمي الذي سبق وأن تطرّق لدراسة هذا الموضوع، والذي لخصّ هذه التناقضات حسب ما يلي:

*حاول أوبطاميلي أن يُظهر الدوارين على أنهم دوناتيين قبل حادثة "محلة أوكتافا" سنة 340م، وقد أشار إلى أنّ: « هذه التصرفات جلبت الحد على الأساقفة الدوناتيين ». مما دفعهم إلى طلب تدخّل الجيش ضدّ الدوارين، ويُعتقَد أن هؤلاء الأساقفة ما كانوا يستحملون تصرفات هؤلاء الدوارين، لو لم تكن هناك علاقة تربطهم بهم.

والسؤال المطروح هنا هو، هل يمكن تصوّر علاقة أخرى غير تلك التي تربط بين الكنيسة وجموع المؤمنين بها؟

*يشير النص كذلك إلى أن الدوارين كانوا يقومون بأعمالهم الخرقاء²، كونهم متشردون يجوبون البلاد تحت قيادة زعمائهم "أوكسيدو" و "فاسير"، الذين كانوا يطلقون على أنفسهم على أنهم "رأساء القديسين" (Duces sanctrum)³ والمعروف أن الدوناتيين كانوا يعتبرون كنيستهم كنيسة القديسين، وهذا ما يُشير بانتماء الدوارين إلى تلك الكنيسة.

¹ - نفسه، ص-ص 178-181.

² - الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 558.

³ - Françoit Decret.Mhamed Fantar., Op.cit.,p 299.

*وحسب "أوديت فانيي" (O.Vannier) فإن أوبطاميلي يرى أن الدوارين كانوا يحاولون الاستشهاد بمختلف الطرق والوسائل، وأن مسألة الاستشهاد كانت قِيمة في زمن أوبطام، و موضوع نقاشات طويلة بين الكاثوليك و الدوناتيين، من خلال جعل الكنسية الدونانية من محيط الموتى العديد من الشهداء ، وهذا يوحي لانتمائهم للدوناتيين الذين يعتبرون كنيستهم كنيسة للشهداء¹.

وإذا كان أوبطاميلي قد وَصَفَ أعمال الدوارين على أنها أعمال إجرامية، إلا أننا في الحقيقة إذا رجَعنا إلى تلك الأعمال كما وُردت في النصوص² ، فإنها تتلخّص في رسائل التهديد التي كان يُرسلها رؤسائهم "أوكسيدو" و "فاسير" إلى مالكي نوميديا، مستهدفة بشكل خاص الأثرياء، ورُسام السكان الأصليين و كذا للأخذ بالثأر للعبيد من أسيادهم. كما أنّ هذه الهجمات لم تُكُن تستهدف فقط الكاثوليك بل كانت تشمل أيضا الملاك و الدائنين من الأسياد³.

بينما ترى "فانيي" (O.Vannier) أنّ تلك الأعمال كانت عبارة عن ثورة ضدّ المُستغلّين وأنها لا تشير إلى أيّ حزبٍ ديني ولا شيء من أعمالهم يُشير إلى حربٍ دينية، رغم أن أوبطام قد أشار أنه يترأسها زعماء دينيون⁴.

ونلاحظ أن الباحثون اختلفوا في رؤيتهم لنص أوبطاميلي، حيث يرى البعض أنه قد أضفى على الدوارين هذه الفترة المبكرة سمات دُوراري عصره الذين كانوا يُشكّلون عَسَاكِر الدونانية، تهاجم رجال الدين الكاثوليك وكنائسهم.

بينما حاول آخرون مثل "بريسون" (J.P.Brisson) إبعاد فرضية وقوع أوبطام في الخطأ، حيث أن الدوارين الذين سقطوا على يد جنود "تورينوس" حسب الظاهر هم من

¹-Vannier.O.,Op.cit.,p-p 16-17-18

²- الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 559.

³- Monceaux (P.), H.L.A.C., T4, p317.

⁴- Ibid,p 17.

الدوناتيين، وأن التناقض ليس في نصّ أوبطا و إنّما في الأحداث نفسها. حيث نلاحظ من هذا النص أنه هناك تناقضات بين المظاهرات الشعبية العفوية و رؤساء الكنيسة المنشقة¹.

كما أنّ "فانيي" (Vannier) لا تستبعد أن أوبطا الميلي حاول الإشارة إلى أنّ التحالف بين الدوارين والدوناتيين كان قائماً قبل حادثة "محلة أوكتافا" سنة 340م، وأن حركة الدوارين كانت وليدة الانشقاق الدوناتى، حيث شكّل هذا التحالف مع الدوارين عبئاً ثقيلاً على الدوناتيين، وأنه بينما يوبّخهم على ذلك؛ كان قادراً على إتهام الدوناتيين على أنهم هم مؤلّفو الدوارين².

وإذا كان أوبطا لم يُشير إلى ذلك بشكلٍ رسمي، فإنّ الكلمتين "رُعماء القديسين" (Duces sanctrum) بدون تعليق تكفي لجعل قادة المتشردين يبدون كقادة الكنسية المنشقة، لأن كنيسة "دوناتوس" تفتخر دوماً بكونها كنيسة الطاهرون والقديسين³.

كما تفترض "فانيي" (Vannier) أن معظم الدوارين كانوا يلجئون إلى الاستشهاد. فمن المفهوم إذاً أنّ عدداً من الميؤوسين أرادوا أن يجدوا في الموت نهاية أمراضهم، لكن على المدى الطويل في اتصالٍ مع الدوناتيين، إعتقد اليائسون أنهم يكسبون دور الشهداء من خلال ترك حياتهم.

أما الكاثوليك الذين يزعمون أنّهم أساقفة قرطاجة العظماء؛ ظلّوا في التقليد الأرثوذكسي يعدم قبولهم للشهداء منذ بداية الاضطهادات الوثنية، حيث وُضع هؤلاء الأساقفة القانون إلى جانبهم، و أظهروا أن كنيسة دوناتوس لم تكن في تقليد القديس "كبيريانوس" (S.Cyprien)، وأنها كانت خارج نطاق الكون. حيث لا يكتفي أوبطا بالقول أن الدوارين طلبوا الاستشهاد، والذي وصفه بأنه استشهاد باطل بقوله: «**Sub cupiditati falsi martyrii**»، حيث تُدكّر هذه الصفة بالجدل الديني حيث يتعلق الأمر حول تحديد حالات الاستشهادات الباطلة⁴.

¹-الربيع عولمي، المرجع السابق، ص-ص 559-560.

²-Vannier.O,op.cit.,p 17.

³-Ibid,p 17.

⁴-Ibid,p 18 .

ويُفهم من خلال الرسالة التي أرسلها الدوناتيين إلى الكونت "تورينوس" والتي وَرَدَ فيها أن الدوارين لا يمكن اصلاحهم في إطار الكنيسة؛ والكنيسة المقصودة هنا هي الكنيسة الدوناتية، وهو ما يوضح أن الدوارين كانوا دوناتيين¹.

بينما ترى "فانيي" (Vannier) أن عُنف الدوارين كان بغيضاً للجميع حتى مع الدوناتيين، لدرجة أنهم طالبوا بتدخل الكونت "تورينوس"، وبذلك فإن الأساقفة الدوناتيين كانوا مسئولين عن مذبحه الدوارين في موقع "أوكتافنيسيس" (Octavensis)، حيث بَزَرُوا في الرسالة استئنافهم وتَوَسَّلُوا إليه أن يُعيد المتمردين إلى العقل بالقوة، ولهذا نفهم من هذا الحديث أن التحالف بين الدوارين والدوناتيين قد بدأ سنة 347م، وأن حركة الدوارين لم تكن ذات طابع ديني قبل تلك الفترة².

وانطلاقاً مما ذكرناه سابقاً نتساءل: كيف كانت قضية الانتماء الديني للدوارين؟ وفيما تكْمُن طبيعة هويّتهم الدينية العقائدية؟

ثالثاً- قضية الانتماء الديني للدوارين:

من الصعب تجريد حركة الدوارين من صبغتها الدينية، وإن كانت خلفياتها الاجتماعية والاقتصادية لا تترك مجالاً للشك، إذ حدث انزلاق متقدم من كونها ظاهرة اقتصادية إلى ظاهرة دينية، حيث يظهر لنا هذا الانزلاق من تبجيل الدوارين لشهادتهم إثر "معركة أوكتافا". وهذا ما يدفعنا للبحث فيما إذا كانت حركة الدوارين حرباً مذهبية موجهة ضد الكاثوليك؟

ونلاحظ إذا حسب ما ذكره محمد المبكر في كتابه؛ أن أوبطاميلي لم يُشير بصراحة عن المذهب الذي كان ينتمي إليه الدوارين.

¹-الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 561.

²-Vannier.O,op.cit.,p20

لهذا علينا اتخاذ تأويلات النص بحدّز حول بعض الأحداث والمصطلحات الواردة فيه.¹

وإذا أمعنا النظر في نص رسالة الأساقفة الدوناتيين إلى الكونت تورينوس والذي استوحيناه من كتاب (Leclercq) والذي جاء على النحو التالي: «...الكنيسة لا تستطيع تصحيح هؤلاء الناس...»². فمحمد المبكر نفسه اعتمد على بريصون ليقدم دليلين من هذا النص نفسه، بحيث يشير إلى أن الدوارين هم دوناتيون بكل تأكيد، فالدليل الأول يتعلق بمصطلح الكنيسة والتي يقصد بها الكنيسة الدوناتية، نظراً لما كان ساريًا في العقيدة الدوناتية من وحدة الكنيسة المسيحية وانفرادهم دون غيرهم بالانتساب إليها، "فالكنيسة" في كلام الدوناتيين تنطبق على كنيستهم دون غيرها، والتي يعتبرونها الكنيسة الكاثوليكية الحقّة. وبالتالي يستبعدون منها كلّ المتخاذلين. ولكن هذه الكنيسة استعصى عليها إصلاحهم بالطريقة الدينية³.

أما الدليل الثاني يستخلصه من كون الدوارين الذين سقطوا في معركة "محلة أوكتافا" إثر تدخل جنود الكونت "تورينوس" اعتُبروا شهداء من طرف رُفقاءهم الذين خصّصوا لهم بهذه الصّفة أضرحة خاصة: "مذابح بيضاء"، "شواهد القبور". و هذين المصطلحين التقنيين: (Dealbatae arae) (مذابح بيضاء) و (Mensae)(طاولات القبور)، « لا يمكن ترك مجال للشك لأن الأمر يتعلق بمعتنقين للدوناتية فلا يمكن أن يكونوا كاثوليك طالما أن عهد اضطهاد الدولة الوثنية للمسيحيين قد انتهى منذ صدور مرسوم ميلانو سنة 313م⁴ ، وما دام أن الدوناتيين يعتبرون أنّ عهداً جديداً من الاضطهاد قد بدأ مع عمليات القمع التي تعرضت لها كنيستهم إثر صدور حكم قسطنطين ضدها سنة 316م.

¹-محمد المبكر، المرجع السابق، ص 191.

²-Leclercq (Dom H.), L'Afrique Chrétienne, T1, p 349.

³-محمد المبكر، المرجع السابق، ص 192.

⁴-نفس المرجع، ص 192.

ونلاحظ أن محمد المبكر يتفق تمامًا مع رأي "بريسون" (Brisson) بأن الدوارين منذ هذا التاريخ ينتمون إلى الدوناتيين. كما يعزّز هذا الاعتقاد كون هذه الأحداث وقعت في نوميديا التي كانت مَهْد ومَرْكز إشعاع الدوناتية، وأنها ظلت مَعقلها طيلة التاريخ الدوناتية.

وهنا تبدر إلى أذهاننا بعض التساؤلات حول ما إذا كان كل الدوارين الذين يتحدث عنهم النص دوناتيين أم كان بعضهم كاثوليك؟

وحسب محمد المبكر فإن "بريسون" (Brisson) يرى في حادثة "محلة سوبولوس" دليلاً على وجود دوارين كاثوليك. وقد أورد أوطا هذا الحدث كما يلي: «...ولقد بدأ الدوارون يَدفنون بعض هؤلاء (قتلى معركة محلة أوكتافا) في الكنائس فإن "كلاروس" (Clarus) كاهن "محلة سوبولوس" أرغم من طرف أسقفه على منعهم القيام بهذا الدفن. لذا فإنه على ما يُقال تقرر تعميم هذا المنع على الدوارين بما أنهم حرّموا من الدفن في بيت الله»¹.

وهذا ما يجعلنا نتساءل إلى أي كنيسة ينتمي إليها كلاروس؟

ترى "فانيي" (Vannier) أن نص أوطا لا يسمح لنا بأن نكون إيجابيين للغاية، بحيث لا يذُكر أن الكنيسة التي ينتمي إليها "كلاروس" وأسقفه ولا العناصر التي يتكوّن منها "السينودس" ربما كانوا كاثوليك وكذلك دوناتيين.

وما هو مؤكد أن "كلاروس" ليس لديه نفس المشاعر اتجاه الدوارين مثل الأساقفة. لذلك يبدو أن رجال الدين في الريف سواء كانوا كاثوليك أو دوناتيين هو أمرٌ لا يُمكن تحديده في ظلّ صمّت أوطا².

وحسب محمد المبكر فإنه يرى أن "بريسون" (Brisson) هو الآخر أن الأمر الذي تلقاه الكاهن "كلاروس" من أسقفه بَعْدَ الدفن في الكنيسة كان إجراء يتماشى مع الخطّ الكاثوليكي، أكثر مما يتفق مع سياسة الدوناتيين الذين بَجَلوا عدداً من شهدائهم منذ اضطهاد قسطنطين

¹- نفس المرجع، ص 193.

²-Vannier.O, Op.cit., p21

لكنيستهم سنة (317م-318م). وعلى هذا فإن "بريصوصن" (Brisson) يرى إمكانية أخذ هذا الأمر دليلاً على أن الكاهن من الكنيسة الكاثوليكية. ومن ثم فالصِّفة تشمُل الأسقف الذي رفض، وكذلك الكاهن الذي كان راغباً، لكنه أطاع رغبة أسقفه الرافِض. وأن لجوء الدوارين إلى الكنيسة (محلة سوبولوس) بالذات، ومن وجهة نظره فهذا دليل على أنها تتفق في العقيدة معهم¹.

ومن هنا يرى كلٌّ من "فانيي" ومحمد المبكر أنه يُمكن الإعتماد على هذا النص للقول بوجود بعض الدوارين الكاثوليك أيضاً. وأنّ الدليل الذي إتّخذه "بريصوصن" (Brisson) على انتماء بعض الدوارين إلى الكاثوليك يتناقض مع الدليل الثاني الذي استند إليه لإثبات دوناتية بعض الدوارين. بحيث انه إعتبر تبجيل الدوارين للشهداء دليلاً على أنّهم دوناتيين. وأن ظاهرة الاستشهاد توقفت عند الكاثوليك واستمرت عند الدوناتيين.

وإذا ما إتبعنا هذا المنطق؛ فإننا سوف نعتبر دُواري (محلة سوبولوس) دوناتيين أيضاً ولا كاثوليكين. وطالما أنهم أرادوا تكريم مؤتاهم بدفنهم بكنيسة تلك المحلة التي كانت تحت رعاية "كلاروس"².

فلاحظ أن تصرّف الدوارين كان موحداً في هذه النقطة، وبالتالي فإن ما طُبّق على الدوارين في "محلة أوكتافا" ينبغي أن يُطبّق على دُواري "محلة سوبولوس".

وحتى لو صحّ أن الكاهن "كلاروس" وأسقفه كانا كاثوليكين، باعتبار أن هذا الأسقف عارض دفن الدوناتيين في الكنيسة، فهل ذلك يدلّ حتماً على أن الدوارين الذين مُنعوا من الدفن كانوا كاثوليك³.

¹-محمد المبكر، المرجع السابق، ص-ص 193-194.

²-نفس المرجع، ص 194.

³-نفس المرجع، ص 194.

وحسب ما يراه "فانيي" (Vannier) ووفقا "لمونصو" (Monceaux)، ينبع هذا الدفاع العام من المُجمّع الكنسي الدوناتى بنوميديا، والذي يحظرّ الدفن في الكنائس الدوارين الذين قُتلوا في الاجتماعات. وهذا يبدو أكثر توافقاً مع الظروف التي مرّت بها هذه الأحداث.

فهل الدوناتيين هم الذين طالبوا بتدخّل الجيش ضد الدوارين؟¹

فلماذا إذاً نستبعد أن يكونوا هم أنفسهم الدوناتيين الذين قرروا هذا الحظر، وأن "كلاروس" وأسقفه كانا دوناتيين.

وإذا افترضنا وجود دوارين كاثوليكين، فكيف نفسر ما قاله أوبطا عن كون أعمالهم جلبت الحد على الأساقفة الدوناتيين، بينما لت تُلحق ضرراً بالأساقفة الكاثوليك.

وبهذا الصدد فإن محمد المبكر يرى أن انتماء الدوارين و أغلبهم السّاحق إن لم يكن في مجموعهم إلى الدوناتيين لم يُشكّل دليلاً إضافياً على أن الوجود الدوناتى في نوميديا الجنوبية كان في هذه الفترة ما قبل سنة 347م سائداً دون منازع، و أن الكاثوليك لم يُصبح لها حضور يُعتبّر في تلك الناحية إلا بعد تدخل السّلطة لصالحها سنة 347م². وحتى بعد ذلك فإن انتماء الدوارين للدوناتية أمرٌ لا شكّ فيه، خاصة وأنهم أصبحوا كما سنرى يُشكلون رؤوس رماح للانشقاق الإفريقي الذي وجدوا فيه تعبيراً عن سُخطهم وتذمّرهم، مما ساعد على انتمائهم إلى الدوناتية ووجودهم في منطقة واحدة؛ نوميديا والأجزاء المُجاورة من البروقنصلية ومن موريتانيا السطافية، وهي المنطقة التي كانت تظم الضيعة الشاملة (Latifundia) التي يتوفر فيها العمل الموسمي، وفي نفس الوقت المنطقة التي كانت مَعقَل الدوناتية.

وهذا الانتماء الشبه الكامل للدوناتيين يُفسّر أن النصوص الكاثوليكية والدوناتية على حدّ السواء لم تتحدث عن الدوارين الكاثوليكين. فالكُتاب الكاثوليك كانوا يقصدون الدوارين

¹-Vannier.O.,Op.cit.,p 21.

²-محمد المبكر، المرجع السابق، ص 195.

المناضلين الذين ساندوا الدوناتية، أما الكُتّاب الدوناتيين فكانوا يتحدثون عن المناضلين (Agonistae) وترى أن تسميتهم بالدوارين تظمّ تحقيراً لهم¹.

وعلى هذا الأساس فمن العبث أن نبحث عن دوارين كاثوليكيين المعاصرين لتلك الحركة، حيث أن تلك الكتابات ترى فقط الجانب الجدلي من حركة الدوارين.

أما المعضلة الأخيرة التي بقيت غير واضحة في النص، هي لو كان الدوناتيون دوارون، فلماذا طلب الأساقفة الدوناتيين تدخل الجيش ضدّهم؟²

و للإجابة على هذا السؤال، فإننا نذكر ما ورد عن "فانيي" (Vannier) أن الدوارين كان عنفهم بغضاً اتجاه الجميع حتى مع الأساقفة الدوناتيين³، خاصة و أنهم قد طالبوا بتدخل الكونت "تورينوس" لقمع هؤلاء المتعصبين من خلال الرسالة التي كتبها إليه بأنفسهم، لإعادة هذا النوع إلي رشدهم قائلين: «مثل هؤلاء الرجال لا يمكن تصحيحهم في الكنيسة»، «*hujus modi homines in ecclesia corrigi non posse*»⁴.

ونلاحظ إذا من خلال هذه الرسالة المبعوثة من الدوناتيين إلى السلطنة أنهم لم يريدوا تحمّل أيّ مسؤولية بخصوص تصرفات الدوارين. وأن هذا الموقف الذي اتخذه الدوناتيين كان بسبب كثرة الشكاوى الواردة من الملأك والأسياد الدائنين المؤثرين على السلطنة الزمنية.

ونلاحظ أن هذه الأخيرة قد كلفّت الكنيسة محاولة إقناع الدوارين بالتخلي عن تلك التصرفات، وهذا يدل على الرابط الروحي بين الأساقفة الدوناتيين والدوارين. ولما فشلت في محاولة إقناعهم⁵، وأن كل الوسائل الإنجيلية لم تنجح؛ كان من الضروري اللجوء إلى القوة،

¹ - نفس المرجع، ص-ص 195-196.

² - نفس المرجع، ص 196.

³ - Vannier.O., Op.cit., p 20.

⁴ - François Decret.Mhamed Fnter., Op.cit., p300.

⁵ - الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 572.

وهذا ما يُفسّر رسالة الأساقفة الدوناتيين، وتدخل القوات المسلحة والمشاجرة في موقع "أوكتافنيسيس" (Octavensis).

ويُفهم من هذا النص أن الأساقفة الدوناتيين قد بالغوا نوعاً ما في تنكّرهم لأعمال الدوارين، حيث أنهم لم يكتفوا بالإعلان عن فشلهم في إقناع الدوارين، بل طلبوا من قائد الجيش إرجاعهم إلى الطريق السوي¹.

وهنا هل يمكن لنا أن نشك في نزاهة أوبطاميلي، ونعتبر أنه كان يريد تأكيد مسؤولية الدوناتيين في مجزرة "محلة أوكتافا"؟

لا يمكن أن نجزم بهذا، حيث أن تصرفات هؤلاء الدوارين كما تتجلى من خلال النصوص والظروف التي عرفتها الكنيسة الدوناتية في تلك الفترة تُبيّن أن ما ذهب إليه أوبطاميلي يتماشى مع السياق التاريخي.

كما نلاحظ من هذا النص بعض السمات الرئيسية التي إتسم بها الدوارون من خلال الاستقلال التام عن رجال الكنيسة الدوناتية، وعدم الامتثال لأوامر أساقفتها، حيث أن الدوناتيين عجزوا عن إرجاعهم عن الطريق السوي في إطار الكنيسة، وأرغموا قسراً على عدم دفن شهدائهم في كنيسة "محلة سوبولوس"، ثم أن الدوارون هم الذين عينوا رؤسائهم (زعماء القديسين) دون تدخل الكنيسة الدوناتية في ذلك².

ومن بين السمات التي نستشفها من عدم اكتراث الدوارين للنزاع المذهبي بين الكاثوليك والدوناتيين. فعملياتهم الثورية لم تكن موجهة ضد أيّ جهة دينية، ولا لصالح أيّ كنيسة معينة. وإن كانت حركتهم تحمل بعض السمات الدينية. وهذا يظهر من موقفهم اتجاه شهدائهم، ومن

¹-Vannier.O.,Op.cit.,p 20.

²-الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 572.

الألقاب التي اِتِّسَمُوا بها: المناضلين (Agonosticos)، القديسون (Soncti). فإنهم لم يكونوا رُوادِ حزبٍ ديني ولا رؤساء الكنيسة المنشقة¹.

أما أهدافهم فكانت تتوافق مع أهداف الكنيسة الدوناتية، حيث كانت هذه الأخيرة تُحارب كنيسة المُتخاذلين (Traditores). أمّا حركة "أوكسيدو" و "فاسير" فقد كانت موجهة ضدّ طبقة المستغلين، كيف ما كانت عقيدتهم ومذهبهم. حيث كان الاختلاف واضحاً في طريقة العمل، وأن الكنيسة الدوناتية كانت تحاول أن تُظهر نفسها على أنها الكنيسة الحَقَّة؛ أيّ الكنيسة الكاثوليكية. وأن كنيسة "كاكيليانوس" هي كنيسة المتخاذلين والمتواطئة مع السُلطة الزمنية.

لقد تعرّضت الكنيسة الدوناتية للاضطهاد عند صدور قانون سنة 316م، فتوجّب بذلك طلب العفو من الإمبراطور قسطنطين الذي أصدر قانون يقضي بالتسامح الديني، و السماح للأساقفة الدوناتيين بالعودة من المنفى سنة 321م. كما وعد الكاثوليك تعويضهم عن بعض الكنائس التي انتزَعها منهم الدوناتيين، مثل كنيسة سيرتا (قسطنطينة حالياً) سنة 330م، فبنى لهم كنائس جديدة².

لقد استغلت الكنيسة الدوناتية هذا السِّلْم الديني لتتوسّع جغرافياً، وتمكنت بالإضافة إلى نوميديا التي كانت تُمثّل مَعْقِل وحصن الدوناتية. وتمكنت كذلك من الانتشار في موريتانيا، وفي سبيل ذلك تخلّت عن أحد مبادئها الأساسية بالتخلُّص من إعادة تعميد المعتنقين الجدد للدوناتية، وهذا لتسهيل التحاق الموريتانيين بها³. أما عملية إعادة تعميد المسيحيين المتخاذلين (Traditores)* وأصحاب البِدَع (Haeretici) أحد مبادئ الدوناتية الرئيسية، وهي تمثل نقطة الاختلاف الجوهرية بين الكنيسة الدوناتية والكنيسة الكاثوليكية⁴.

¹ - نفس المرجع، ص 573.

² - نفس المرجع، ص 573.

³ - Monceaux (P.), H.L.A.C, T 4, pp. 333-334.

***المتخاذلين Traditores**: من مصدر Traditio و الذي يعني تسليم الكتب المقدسة وأواني الكنيسة الكاثوليكية للسلطة الزمنية، وكان يُلق عليهم حزب "كاكيليانوس". للمزيد أنظر، الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 568.

⁴ - الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 574.

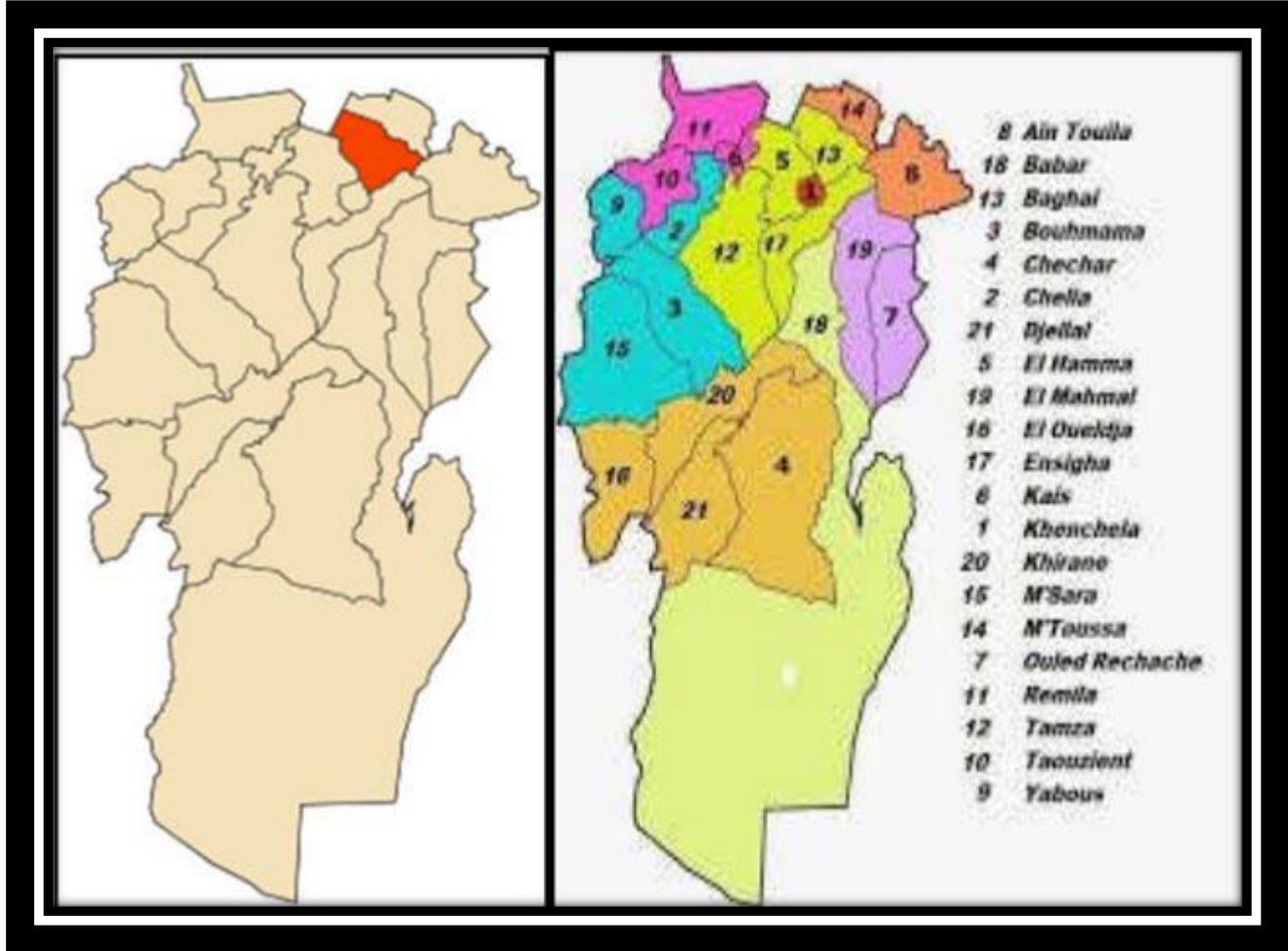
ويُضح لنا مما سبق ذكره أن الكنيسة الدونانية بعيدة عن التعصّب والتطرف اتجاه السُلطة الزمنية ومبادئها الأساسية. لذا نراها تتخلى على هذه المبادئ والتي تتعلق بإعادة التعميد، كي تكسب رضا المُعتنقين الجدد، في حين انتهج الدوارون طريق العنف والتهديد والسّطو لحماية المظلومين من الطبقة المستغلة بإسم القديسين وتحت شعار الكنيسة الدونانية نفسها¹.

وهكذا تتضح خلفيات أحداث باغاي سنة 347م (أنظر الخريطة رقم 6 صفحة 98)، ويُصبح من المنطق أن يُبررا الأساقفة الدونانيين من شغب وعُنف الدوارين وهذا العُنف الذي يمكن للكاثوليك استغلاله لتأليب السُلطة الزمنية ضدّهم.

ويبدو إذاً أن حركة الدوارين رغم انتمائها إلى الكنيسة الدونانية إلا أنها كانت تشكل حركة مستقلة لها مبادئها و أهدافها و تنظيمها و غاياتها الخاصة على الأقل سنة 347م، على عكس ما تذهب إليه الكتابات الكاثوليكية التي تعتبر الدوارين "عساكر و رؤوس رماحها" و على هذا يمكن القول أن العلاقة بين حركة الدوارين و الحركة الدونانية كانت قبل سنة 347م تنسّم بنوعٍ من الاستقلالية بعيدة عن ما يمكن وصفها بالتحالف، ولا يمكن الإدماج بين الحركتين².

¹- نفس المرجع، ص 574

²- نفس المرجع، ص 576.



خريطة رقم 6: موقع مدينة باغاي والمدن المحيطة بها.

نقلا عن: أويحي سعيدي، "مدينة باغاي، قلعة الدوناتيين"، مجلة التاريخ المتوسطي، المجلد 3، ع1، الجزائر، جوان 2021، ص 76.

المبحث الثالث: أحداث باغاي سنة 347م

إنّ ما وقع بنوميديا حوالي سنة 347م كان خطيراً، وذا أثر حاسم على تطور مجريات الأمور في إفريقيا. فإنه يُعتبر منعرجاً أساسياً بين الدوارين والدوناتية، وكذا بالنسبة لتطور الكنيستين المتناحرتين ومُهمٌ أيضاً حتى في الصراع السياسي للمنطقة. وفي هذا المبحث سوف نتعرف على أهم الأحداث التي شهدتها المنطقة.

في سنة 347م قام الإمبراطور "قنسطانس" بالتدخل في الشؤون الدينية في إفريقيا، فقام بإصدار قانون جديد لدمج الكنيستين المتنافستين وحل جميع الطوائف الانشقاقية، يؤكد حكم أبيه السابق الذي تم إلغاء تطبيقه بحيث قام بحسم النزاع سنة 316م لصالح "كايكيليانوس" ضدّ "دوناتوس" وزملائه. ورغم أن هذا الإجراء كان من وجهٍ قانوني يترك الدوناتيين في الحالة التي كانوا عليها منذ قانون "قسطنطين" سنة 316م، فألغى قانون التسامح الذي منحه ذلك الإمبراطور لكنيسته سنة 321م. وبهذا أصبح الدوناتيين مُعرّضين لعقوبة النفي إذا ما قاموا بأيّ دعوة ضدّ الكاثوليكين، و هذا بموجب حكم سنة 316م¹.

وفي سنة 347م قام الإمبراطور "قنسطانس" بإرسال إلى إفريقيا مفوضين وهما "بولس" (Paulus) و "مكارْيوس" (Macarius) لتكوين طائفة دعم الفقراء وتوزيع الإغاثة على المجتمعات والهدايا على قادة الأحزاب المؤثرين، ومحاولة إعادة تأسيس الوحدة الدينية والحدّ من الصراع بين الكنيستين المتخاصمتين².

حيث اتّسمت هذه البعثة في البداية بروح التسامح والسلام، لكن هذا لم يدم طويلاً، حيث تحوّل الأمر إلى حملة عنف ومجزرة ضدّ الدوناتيين، وهذا بعد التحذير الذي وجهه الأسقف "ماركلوس" (Marcellus) مع وفدٍ من عشرة أساقفة بإسم الكنسية الدوناتية في نوميديا.

¹-Monceaux (P.).,H.L.A.C.,T4.,p35.

²-Ibid,p 34.

فقام المبعوث "مكارْيوس" بسجن "ماركلوس" ومن ثم قَتَله ورمأه من سُفْح الجبل. وهكذا ظهرت البِعثَة بمظهرها العدائي اتجاه الكنيسة الدوناتية. حيث قام الأسقف الدوناتى بإعتراض طريقهم عندما اقتربوا من باغاي الواقعة في شمال الأوراس، وعَزَم على الوقوف في وجه هذين المبعوثين، وذلك بإرسال دُعاة إلى الأسواق وإلى أطراف المدينة¹، فتعرّضت البِعثَة إلى هجوم من طرف الدوناتيين والدوارين الذين دخلوا إلى حَلْبة الصراع إلى جانب الدوناتيين علناً².

وحسب ما يراه محمد المبكر وبإستِعاثته بكتاب أوبطا الميلي، وضّح أن مبعوثيّ الإمبراطور كانا خائفين من الأموال التي كانا يحملانها معهم لتوزيعها على الفقراء، فاضطراً لطلب المساعدة و الحماية من الكونت "سيلفستر" (Silvester) و جنوده، فلم يَكُن إِذاً في نِيَّتِهِم الهجوم، و لكن للدفاع عن النَّفس في حالة ما تعرّضوا للهجوم من قِبَل "دوناتوس"³، الذي كان قد جمع حشداً كبيراً من الدوارين لإتّخار المُون في البازيليكا الخاصة به التي تحوّلت إلى مخزن للحبوب و كَدَس الإمدادات هناك⁴.

وعند مشارف باغاي انفصل عن الفرقة العسكرية المرافقة للبِعثَة بعض جنود الاستطلاع (Metatores) المُكَلَّفِين بتهيئة الخِيَام لزملائهم؛ إلا أنهم لم يَلْقُوا الاستقبال اللائق على عكس ما تقتضي به تعاليم الرسول. وعلى مقربة من باغاي، هاجم الدوارين أولئك الفرسان فْجُرِح جنديان أو ثلاثة، ولما رأى رفقائهم تلك الجروح أرادوا أخذ الثأر من المعتدين، فإنقضوا على الدوارين، رغم محاولة رؤسائهم من نُصحهم وتهدئتهم، وبالتالي قُتِل بعض الدوارين⁵.

وهكذا مرّت الأحداث حسب رواية أوبطا الميلي. والواضح أن الغرض من سردها هو إزالة التهمة عن الكاثوليك بمسؤولية تدخل الحماية العسكرية ضدّ "دوناتوس" والدوارين.

¹-Vannier.O.,Op.cit.,p-p 13-14.

²- زموري خديجة، المرجع السابق، ص-ص 161-162.

³- محمد المبكر، المرجع السابق، ص-ص 208-209.

⁴-Monceaux (P.), H.L.A.C.,T4,p 34.

⁵- محمد المبكر، المرجع السابق، ص 209.

فهو يرى أن المبعوثين الإمبراطوريين لم يَطْلُبَا الحماية من الفرقة العسكرية إلا بعدما عَلِمَا استعدادات "دوناتوس" العدائية. ولم تهجُم هذه الفرقة إلا بعد أن أُصِيبَ بعض أفرادها بالجروح. وزعمائها حاولوا إقناع جنودهم بعدم الردّ بالمِثْلِ على ضربات الدوارين¹. ونتيجة لذلك توفي بعض الأفراد من الدوارين ضدّ قُوّات الكونت "تورينوس"².

وما نلاحظه من خلال ذلك، أنّ أوبطاً حاول التقليل من أهمية حادث باغاي من أنه اعتبره مُنطلق عمليات الرّدع التي شملت الكنيسة الدوناتية في نوميديا خاصة وفي إفريقيا بصفة عامة، فلا يتصور أن البعثة الإمبراطورية طلبت حماية كونت إفريقيا وتدخل الجيش لو لم يكن هناك خطر دائم يحسب ذلك. وأن ما وقع في باغاي كان يبدو حادثاً خطيراً³.

فالأرجح إذاً أن عدد القتلى من الجانب الدوناتى كان يتعدى بضعة دوارين، و أن عدد الجرحى من الجنود كان أكثر من اثنين أو ثلاثة، على عكس ما ادّعاها أوبطاً، أنه في الواقع لم يكن هناك ما هو أكثر شيوعاً في الإمبراطورية المُنحَلّة في القرن الرابع من الهجوم على قافلة من قُطاع الطرُق⁴، بل من الأرجح أن أوبطاً قلّل من أهمية الواقعة وذلك ربما ليقلّل من مسؤولية المبعوثين الإمبراطوريين و من مسؤولية الكنيسة الكاثوليكية في تلك الأحداث.

ومن جهة ثانية حسب ما يراه محمد المبكر؛ فإن أوبطاً وجه تُهماً دقيقة إلى أسقف باغاي، حيث حمّلهم مسؤولية أخذ المبادرة في مقاومة البعثة الإمبراطورية. أمّا الدوارون فقد كانوا مجرد أداة في يدّ الأسقف الدوناتى، الذي جمعهم في الزمن والمكان الذي سبق وأن حدّده لهم⁵.

¹- نفس المرجع، ص-ص 209-210.

²-Monceaux (P.).H.L.A.C., T4,p 471.

³- محمد المبكر، المرجع السابق، ص 210.

⁴-Vannier.O.,Op.cit.,p25.

⁵- محمد المبكر، المرجع السابق، ص 211.

لكن ما نلاحظه أنّ الدوارون قبل هذه الحادثة بأعوامٍ؛ كانوا مستقلين وغير مكترثين للخلافات المذهبية، ويرفضون إشارة الأساقفة الدوناتيين، وهذا ما لاحظته أوبتا¹.

وعلى هذا الصدد تتبادر إلى أذهاننا بعض التساؤلات المتمثلة في: لماذا ما وقع في نوميديا (باغاي) لم يقع في البروقنصلية (قرطاج)، رغم أن هذه الأخيرة كانت مقرّ زعيم الكنيسة الدوناتية؟ ولماذا لم تبدأ عمليات العنف إلا بعدما دخل الدوارون إلى حلبة الصراع؟ انطلقت أعمال العنف من مشارف مدينة باغاي بالذات، وذلك أن تلك المنطقة اتّسمت بظروفٍ خاصة جعلت منها إقليم مهيبٍ لمثل تلك المواجهات بين السكان والسلطة الرومانية، علماً أن نوميديا كانت مهد الدوناتية².

وقد ذكر أغسطين أنّ الأرياف ظلّت الحصن الحصين للكنيسة المنشقة، ويظهر ذلك في قوله: «...تحت تأثير التدخلات العنيفة لمحيطاتكم، التي لا تعترف عصاباتنا المسلحة بأيّ سلطة أخرى غير سُلطتكم، لن نضطرّ إلى الفرار من ريفنا مطلقاً إذا لم نكن كرهينة في المَدُن...»³.

فلا غرابة إذاً أن تكون البعثة الإمبراطورية عنيفة في هذا الإقليم دون غيره، ويظهر أن عمليات الدوارين موجهة ضدّ الملاك والسياد، والتي كانت متكررة في نوميديا، حيث عرف القسم الجنوبي منها عمليات "أوكسيديو" و "فاسير" حوالي سنة 340م. وظلّت تلك المنطقة حتى في عهد أغسطين تُمثّل حقلاً رئيسياً لعمليات الدوارين خاصة (باغاي). ولهذا يظهر منطقة نوميديا على أنها همزة وصل بين التمرّد الاجتماعي المتمثّل من طرف الدوارين والتمرّد الديني المتمثّل من طرف الدوناتية⁴.

¹-نفس المرجع، ص 211.

²-ربيع عولمي، المرجع السابق، ص 583.

³-Augustin(St), Lettre Contre Petillien.,II,LXXXIII,184.

⁴-الربيع عولمي، المرجع السابق، ص-ص 583-584.

ولنا أن نتساءل عن أسباب هذا التمرد ومن قادهم، هل هم الأساقفة الدوناتيين المُستاءين من تدخّلات الإمبراطور في شؤونهم أم هم الدوارون الراغبون في التعبير عن مطالبهم الاجتماعية؟

ويظهر أن الأساقفة الدوناتيين قد إكتفوا من تدخّل الإمبراطور في الشؤون الدينية لبلاد المغرب، رغم أنهم كانوا قد طلبوا نُصرتهم قبل ذلك بسنةٍ واحدة (346م).

لكننا نجد هؤلاء الأساقفة الدوناتيين لكوّنهم يُدركون أن السُلطة الزمنية قد تدخّلت لصالح السُلطة الكاثوليكية، وإن كانت مهمة المبعوثين تبدو مهمة سَلْمِيّة بغرض توزيع اللباس ومساعدات الإمبراطور لتهيئة الدوناتيين والرجوع إلى الوحدة الدينية. لكن سرعان ما إتّضح تحيّر المبعوثين الإمبراطوريين، فبِمُجرّد وصولهما إلى قرطاجة إتجهوا إلى كنيسة "غراتوس" (Gratos) الذي هو خليفة "كاكيليانوس" لممارسة شعائرهم الدينية وتجاهلا وجود "دوناتوس"، فكان من الطبيعي أن يفهم الدوناتيين أن قضيتهم قد حُكِم عليها المبعوثين مُسبقًا¹.

ومن ثم رفضوا تدخّل الإمبراطور في الشؤون الدينية كما اعتبروا ان الإمبراطور لا علاقة له بالكنيسة، كما وجه دوناتوس رسالة إلى جميع المجتمعات المنشقة منهم فيها رسميا من قبول الهبات و المساعدات التي أرسلتها لهم بغرض إحباط خطة المفوضين². وهكذا أظهر الأساقفة الدوناتيين موقفهم إتجاه البعثة الإمبراطورية، وأن رفضهم للهبات لا يُشكّل سببا كافيًا يدفع بهم للجوء إلى العنف. وأن هذا العنف لم يكن ليتمّ لولا تدخّل الدوارين المناضلين الذين قاموا بالهجوم على فرسان الفرقة العسكرية التي إستجد بها "بولس" و "مكارْيوس"³.

وإذا كنت الأحداث تُشير إلى الدوارين في اعتبارهم العنصر الذي واجه البعثة؛ فمن الواضح إذا أن هذا التدخّل لا يعود لرفض رجال الدين الدوناتيين لقانون "قنسطانس" وإنما يعود

¹-الربيع عولمي، المرجع السابق، ص-ص 584-585.

²-Monceaux(P),Op.cit.,p 34.

³-الربيع عولمي، المرجع السابق، 585.

إلى تمرد الدوارين. الذين كانوا منذ سنة 340م يقومون بأعمالهم تحت قيادة رُعاء القديسين و ضدّ إرادة الأساقفة الدوناتيين أحياناً¹.

وتعتقد "فانيي" (Vannier) أن عدد الدوارين قد تزايد بعد ما حدث في مجزرة "محلّة أوكتافا" حوالي سنة 340م². وذلك ربما أنّهم في منأى عن مضايقات السُلطة الزمنية، ولا يستبعد أن يكون بعض الرجال الدين الدوناتيين أبدو نوعاً من التعاطف مع حركة الدوارين.

إن تركز حركة الدوارين في المجال الحيوي للدوناتية (أيّ نوميديا الجنوبية) يعتبر دليلاً على شعبية الدوارين للدوناتية وتحريضهم على التمرد. وكان الكاثوليك يبحثون عن هذا الدليل، لذا لدى الإمبراطور "قنسطانس" للحصول على قانون جديد يؤكّد حكم "قسطنطين" ضدّ الدوناتية، والواقع أن هدف المبعوثين هو محاولة معرفة مدى صحّة اتهامات الكاثوليك للدوناتيين ومدى خطورة الأوضاع في المغرب القديم. وإلاّ فكيف لنا نفسّر توجّه المبعوثان إلى عاصمة الإقليم سيرتا (Cirta) قبل أن يصلا إلى باغاي؟ فالمبعوثين الإمبراطوريين تجنّباً التوغّل في تلك المنطقة لأنها تُمثل قلعة الدوناتية ومحيط تمرد الدوارين³.

وفي هذا السياق ينبغي أن نتلقّى إدعاءات أوبطاً بتحفظ، بإستعدادات أسقف باغاي "دوناتوس" هي التي دفعت بالمبعوثين لطلب الحماية من الكونت "سيلفستر" وفرقتة. ويبدو من الأرجح أنه كانا مَصحوبين بالجنود منذ دخولهما إلى نوميديا، لأنّ إنعدام الأمن في هذا الإقليم نتيجة عمل الدوارين كان يفرض عليهما أخذ الاحتياطات اللازمة. فالطُرُق نفسها لم تكن آمنة في عهد "أوكسيدو" و "فاسير". وحسب محمد المبكر فإنّ أوبطاً يُشير إلى هذا التفسير حين يقول: «...وأمام هذه الوضعيات الخطيرة فإنّ حاملي الكنوز المُخصّصة للفقراء إنتابهم

¹- نفس المرجع، ص 585-586.

²- Vannier.O., Op.cit., p 21.

³- الربيع عولمي، المرجع السابق، ص-ص 586-587.

الخوف، فأروا أن يلتمسوا من الكونت "سيلفستر" التدخل بالسلاح قبل أن يضيف أنهما لم يكن في نيتهما الهجوم، لكن للدفاع عن النفس في حالة هجوم "دوناتوس"»¹.

وهذا ما يفهم أيضاً من نصوص أغسطس الذي يشير أن الدوارين: «بتمرداتهم الثورية و الدموية كانوا يناوشون المبعوثين خطوة بخطوة خلال تحركاتهم عبر إفريقيا»².

وما يهمنا أن نستدل أنّ تمرد الدوارين ربما كان السبب العميق فإن تدخل المبعوثين عسكرياً في الجهات الجنوبية من نوميديا، وربما أيضاً كان سبباً في تدخل الإمبراطور نفسه في الشؤون الدينية لإفريقيا بإيعاز من الكاثوليكيين ونُسجل أيضاً أنّ هذا التدخل لم يتخذ طابع العنف بسبب عصيان الأساقفة لقانون الوحدة بقدر ما كان ردّ فعل السلطات على عنف الدوارين وتهديدهم للأمن في شمال الأوراس. ويتطابق هذا التفسير للأحداث مع سلوك البعثة الإمبراطورية والعنف الذي طبع تصرف "مكارْيوس" و "بولس" إتجاه الدوارين والدوناتية على السواء³.

وحسب ما ذكره محمد المبكر عن "مارتروي" (F.Martroye) أنّ عمليات الردع التي قاما المبعوثان الرومان جاءت من الناحية القانونية كعقاب لتمرّد باغاي، وأن ذلك تمّ وفقاً للقانون العام الذي يعتبر المحرضين على التمرد والمترأسين له مُتهمين بالمسّ بأمن الدولة (Majestas) وأنّ المتواطئين معهم مُتهمون بممارسة الشغب العمومي و جزاء الجريمة الأولى الإعدام، و العقوبة على الثانية الإعدام أو النفي⁴.

وهكذا لم يتعرض الأساقفة الدوناتيين لما تعرّضوا إليه من النفي والحبس، وبسبب انتمائهم للمذهب الدوناتى كما سيحدث ذلك في عهد "هونوريوس" (Honorius) سنّتي 405-

¹-أويطا حسب محمد المبكر، المرجع السابق، ص 217.

²-أويطا حسب محمد المبكر، نفس المرجع، ص 217.

³-محمد المبكر، المرجع السابق، ص 217.

⁴-نفس المرجع، ص 217.

412م، ولكن لكون السلطنة اعتبرتهم مُحرضين للدوارين ومتواطئين معهم. ومن ثم أُلحقت بهم العقوبات الصارمة وبكُل ما علقت به شبهة التعامل مع الدوارين¹.

ويبدو أن المبعوثين الإمبراطوريين "بولس" و "مكارْيوس" قد تجاوزا مهمتهما القانونية البَحثة، أَنهما بِالغوا في القمع والتنكيل بالأساقفة الدوناتيين، هذا حسب شهادة الكاثوليك أنفسهم. وقد برَزَ "مكارْيوس" بِصفة خاصة في عمليات القمع لِدرجة أن الدوناتيين ينعنون الكنسية الكاثوليكية بِلقب جزب "مكارْيوس" (Pars Macarii)، وعلى تلك الفترة التي اضْطهد فيها الدوناتيين إسم "زمن مكارْيوس" (Tempora Macariana)².

ويرى "بريصوصن" (Brisson) أن جُرم الدوناتيين في تقدير السلطنة الرسمية لم يُكن في الإنشقاق الديني بِقدر ما كان يتجلى في تأليب السُكان ضد تلك السلطنة نفسها³.

وبهذه النظرة فإن المُحرك الأساسي لتلك الأحداث لا يتمثل في رجال الدين والدوناتيين الذي رُبما تجاوزَهم الأحداث في تلك الفترة، ولكن في عنف الدوارين الذين كانوا يُهددون الأمن من نوميديا بِاسم (زعماء القديسين) تارة، و (المناضلين) تارةً أخرى وأحيانا ضد إرادة الدوناتيين أَنفسهم.

ويجدر بنا أن نتناول بِمزيد من الدقة والتحليل طبيعة العلاقات بين حركة الدوارين والدوناتية سنة 347م، والمُنعرج الذي شكَلته معركة باغاي على مسارات الأحداث بنوميديا. وفي هذا السياق يمكن أن نتساءل، ماذا وقع في نوميديا وفي باغاي تحديداً سنة 347م؟ وهل يُمكن اعتبار ذلك مؤشراً للتحالف بين الحركتين؟ أم تمرّد الدوارين إتخذ فقط طابع الدفاع عن الدوناتية ضد السلطنة الزمنية في شؤون إفريقيا الدينية؟ ثم ما هي دوافع الدوارين من وراء الهجوم؟

¹- نفس المرجع، ص-ص 217-218.

²- الربيع عولمي، المرجع السابق، ص-ص 588-589.

³- بريصوصن حسب الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 589.

وحسب ما ذكره الدكتور ربيع عولمي فإنه يرى أن "بريصون" (Brisson) قد ذكر أن أسقف باغاي الدوناتى ساندَ الدوارين معنوياً لكن دون أن يتدخل فعلياً كما قد ذكره أوبطاً. وربما لأن "دوناتوس" كان يتطلع إلى ما ستستفيد منه الكنيسة المنشقة إذا ما تعاونت مع الدوارين.¹ وتعتقد "فانيي" (Vannier) أن عملية الهجوم على القافلة من قِبَل "قُطاع الطُرُق" كان يُعتبر أمراً عادياً في ظلّ الأوضاع التي عرفتْها الإمبراطورية الرومانية في تلك الفترة.² وأنّ هجوم الدوارين على حاملي الكنوز كان بمُبادَرة منهم، كما قاتلت صانعي الوحدة (Opérarii Unitatis).

يَتَّضِحُ مما سبق أن اللُصوص (Lotrones) كانوا قد خدِموا بذلك مصالح الكنيسة المنشقة (الكنيسة الدوناتية)³ ، دون أن يشعروا بذلك، وبهذا نرى أن التحالف بين الدوارين والدوناتيين في باغاي تمَّ بعد معركة باغاي سنة 347م، وأنها لم تكن قبل ذلك كما ذكرها أوبطاً.⁴

وحسب ما صرّحت "فانيي" (Vannier) فإننا نتساءل من حقيقة هذا التحالف إذا كان قد وقع قبل أو بعد أحداث باغاي؟ ومُنذ الوُهلة الأولى قد تأكّدت السُلطة الرومانية بوجود علاقة تربط بين الدوارين والدوناتيين أو مع بعض الأساقفة النوميدي، وإلا لَمَّا عاملت أولئك الأساقفة بعُنفٍ وتتكيل.⁵

وترى "فانيي" (Vannier) أن "دوناتوس" أسفّف باغاي ما يجعله البادئ وقائد المقاومة، وأتّه و بلا شكّ قد لعب دوراً هاماً في أحداث باغاي التي وقعت سنة 347م. كما تُثبِتُ أنّ رؤساء الكنيسة المنشقة في إفريقيا كلٌّ من "دوناتوس" و "بارمينيانوس" الذي (يُعتَبَرُ خصم

1-الربيع عولمي، المرجع السابق، ص-ص 588-589-590.

2-Vannier.O.,Op.cit.,p 25.

3-Ibid,p 26.

4-الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 590.

5-الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 590.

أوبطاً) أنه لم تكن لديهم علاقة مُساومة مع الدوارين، ولم يكن لدى الكنيسة الدوناتية في روما المزيد منهم، و ربما تجاهلتهم و تجاهلت وجود اسم الدوارين¹.

وهكذا كان موقف الكنيسة الدوناتية الرسمي، وموقف أساقفتها اتجاه الدوارين التي كانت أعمالهم تجلب الانتقاد لهم، خاصة بعد ممارسة الدوارين أعمال العنف على الكاثوليك، لدرجة أن أعمالهم أصبحت مظهر الحرب الدينية ضد الكنيسة الكاثوليكية. إلا أن هذا لا يعني عدم وجود علاقة تربط بين الدوارين ورجال الدين الدوناتيين، بل كانوا بعض الأحيان يتراسون اجتماعاتهم في الأرياف. علماً أنهم كانوا يعيشون في نفس الظروف، والتي كانت تتميز بكثرة الأبرشيات في القرى والمزارع والضيعة (Villae, Saltus, Fundi). وكان هناك فرق من أساقفة المذن الكبرى الساحلية مثل هيو-ريجيوس (عناية حالياً) الأساقفة الذين كانوا على رأس الأبرشيات في الأرياف و القرى في المناطق الداخلية². فكان ممثلي القرى والضيع يقصدون جنثليق (كبير أساقفة الإقليم) ويطلبون منه أن يدفع راعيهم إلى مرتبة الأسقف وذلك ليجعل من بلدتهم أبرشية جديدة.

لم يكن "الإكليركيين" (Clerici) الذين يعيشون في المذن يرغبون في الذهاب إلى تلك المناطق النائية، وهذا ما يدفع بالجنثليق لإختيار مرشحاً في عين المكان، وبالتالي فلم يكن من النادر أن يصبح أحد الفلاحين مكلفاً بمهامه الدينية العليا في القرية. ونجد أمثلة في محضر مناظرة قرطاج لبعض الأساقفة الذين كانوا سيواجهون صعوبة لتوقيع اللوائح إذ أنهم لا يتقنون اللغة اللاتينية بجدارة. فكان صغار الكهنة في العديد من الأرياف يندرون من أسر المزارعين بالحصّة (Cloloni) المرتبطين بالأرض. فكان عليهم أن يقدموا الحصّة إلى المالك الذي يعمل فوق أرضهم، أما البعض الآخر كانوا يرتقون إلى منصب ديني أعلى، فينتقلون من مكان لآخر بقرار من الجنثليق، الذي كان عليه أن يعوض الملك المعني عن المزارع الذي يعمل في أرضه³.

¹-Vannier. O., Op.cit., p-p 22-23.

²-ربيع عولمي، المرجع السابق، ص-ص 591-592.

³-محمد المبكر، المرجع السابق، ص-ص 224-225.

فلا شكّ إذاً أن هذا التحالف بالكاد يُمكن أن يكون بين الجماهير الشعبية و جماهير من المؤمنين والمتمردين، ومن بين الشعبية سيكون من المناسب بلا شكّ عدد قليل من الأساقفة ورجال الدين الشعبيين وذلك في بعض الأرياف النوميديّة¹. ولا نستبعد في هذا السياق أن يكون بعض الأساقفة قد تعرضوا لضغطٍ شعبي من طرف الجماهير المؤمنة في الأرياف التي كانت تتعاطف مع المُصلحين الاجتماعيين الذين نصّبوا أنفسهم حُماةً للعبيد والمديون والمظلومين، ومن المُحتمل أنّ هذه الجماهير قد استاءت من الموقف الذي إتّخذه بعض أساقفتها إتجاه الدوارين سنة 340م.

ولقد سبق أن سجّلنا مؤشراً لهذا التعاطف بين الدوارين و بعض رجال الدين الدوناتيين في تصرف "كلاروس" كاهن "محلّة سوبولوس" والذي تردّد في تنفيذ تعاليم أسقفه التي تنصُّ بتحريم الدوارين من تشريف قتلاهم و دفنهم في الكنيسة حوالي سنة 340م، و سوف تتكاثر الأمثلة لهذا التقارب في عهد أغسطس، لذا يُستبعد أن يكون تعاطف و تعاون من هذا القبيل قد وُجد بين الدوارين سنة 347م و أسقف باغاي الدوناتي و بعض زملاءه النوميدي، إلا أنّ هذا التقارب و إذا كان يُساعد في فهم بعض جوانب الأحداث سنة 347م لا يكفي لتفسير موقف الدوارين من البعثة الرومانية².

ويبدو إذاً أنّ رواية أوبطاميلي التي تُحمّل الأساقفة الدوناتيين المسؤولية الكاملة والمباشرة؛ لا تفسر كل شيء، لأن تمرد الدوارين حدث قبل سنة 347م، ولأنّ الدوارين كانوا المُحرّك الرئيسي في المُقاومة. وأن وصول المبعوثان الإمبراطوريان مع الفرقة العسكرية إلى نوميديا الجنوبية، كان يحملُ معاني كثيرة. فقد كان يُنذّر لبداية عهد جديد من الاضطهاد الديني شبيه بالاضطهاد الذي عرفته إفريقيا في عهد الإمبراطور "ديوكليتيانوس" (سنة 303-305م). كما إتّخذ محلة عسكرية ضدّ الأهالي وعمليات تطهير بوليسية ضدّ الدوارين من جهةٍ أخرى.

¹-Vannier.O.,Op.cit.,p 23.

²-محمد المبكر، المرجع السابق، ص-ص 225-226.

كما تضافرت عدّة عوامل دفعت الدوارين إلى مناهضة السُلطة الزمنية والذين كانوا يرون في مقاومتهم أنها حربٌ مقدّسة واجتماعية ضدّ الأسياد والمُلاك الذين يُشخصون الوجود الروماني، وكان الدوارون بتدخّلهم في الصراع الديني بين الدوناتية والكاثوليكية لم يكن دفاعاً عن كنيسة "دوناتوس" ولا ضدّ الكنيسة الكاثوليكية؛ بقدرٍ ما كان مُناهضاً للسُلطة الرومانية التي كانت تُمثّل كل وسائل العُنف والقمع.

ولقد ظهر أن تمرد الدوارين وتحولهم من الميدان الاجتماعي إلى الميدان الديني قد حدث مرّتين:

***الانزلاق الأوّل:** حيث كان الدوارون منذ ظهورهم على مسرح الأحداث يُعرفون بهذا اللقب وبمُساهماتهم التاريخية المعروفة حوالي سنة 348م، يقومون بعملياتهم تحت رئاسة زعمائهم القديسين وبيحثون على الاستشهاد الإرادي.

***الانزلاق الثاني:** نستخلصه من تدخّل الإمبراطور "قنسطانس" وأحداث باغاي في نوميديا، والذي يُعتبر أهمّ من الانزلاق الأوّل، وذلك لأنّ اضطهاد كل من "بولس" ومكاربيوس" وما نتج عنه من تقوية الكنيسة الكاثوليكية وإضعاف الكنيسة الدوناتية؛ أعطى للصراع الديني أبعاداً جديدة ورؤية واضحة في أذهان الأفارقة، ومن بينهم الدوارون¹.

ونلاحظُ مما سبق تزايد عدد الكنائس والأساقفة الكاثوليك تحت إشراف السُلطة الرومانية. وأصبح الوجود الكاثوليكي أمراً واقعياً في مختلف أرجاء بلاد المغرب القديم، حتى في المناطق التي كانت حصناً للحركة الدوناتية. فقد انعقد المُجمع الكنسي الكاثوليكي في قرطاج سنة 348م برئاسة "غراتوس" (Gratus) الأسقف الكاثوليكي، الذي افتتح كلمته بِشكر الله وأثنى على تدخّل الإمبراطور "قنسطانس" الذي أرسل المبعوثين إلى إفريقيا. ويتّضح من ذلك أن الكاثوليك عبّروا عن ترحيبهم بتدخّل السُلطة الزمنية إلى جانبهم، في حين وُجّهت ضربة غلى الكنيسة الدوناتية، والتي كادت أن تقضي عليها، لولا إعتلاء "يوليانوس" المُرتدّ (Jullien

¹-الربيع عولمي، المرجع السابق، ص-ص 593-594.

(L'apostat) العرش الإمبراطوري خلال فترة (360-361م)، وأصبح ذكر الكنيسة الكاثوليكية أو الدولة الرومانية في تلك الفترة نفس الشيء.

أما الحركة الدوناتية مثلت التمرد على السلطة، ويُمكن تلخيص الأحداث بتعبير بسيط؛ وهو أنّ الدوارون تبنوا القضية الدوناتية في الصراع الديني ضدّ الكنيسة الرسمية، فكان التحالف بين الطرفين وقع بعد أحداث باغاي سنة 347م، وليس قبلها. وهذا حسب ما ذكرته "فانيي". وأن هذا التحالف كان نتيجة للظروف الاجتماعية والسياسية في نوميديا في تلك الفترة.

فلقد إمتزج التمرد الديني والاجتماعي والسياسي مع طريقة عمل الدوارين، فأعطوا بذلك طابعاً مُميّزاً للحركة الدوناتية¹.

¹ - نفس المرجع، ص 595.

المبحث الرابع: علاقة حركة الدوارين بالحركة الدوناتية بعد سنة 347م

يُعتبر القديس أغسطين المصدر الرئيسي الذي يتضمن إichاءات حول الدوناتية والدوارين، حيث تعود أقدم إشارة ضدّ الدوناتية لسنة 392م، وآخرها يرجعها إلى حوالي 428م إلى 429م، أيّ قبل وفاته مباشرةً.

وخلال هذه الفترة الممتدة على ما يُقارب 40 سنة كان أغسطين يصفُ تصرُّفات الدوارين ويُندد بأعمالهم، وكانت كتاباته تدخُل في إطار الجدل الكلامي مع الدوناتيين، ولم يتناول الدوارون إلاّ عرضاً، وتمتاز إشاراتهِ للدوارين بتشابهها الكبير مع بعضها البعض. وفي هذه الإشارات تبرز عناصر جديدة من حين لآخر، حيث نتمكن من خلالها إستخلاص نوعية العلاقة بين الدوارين والدوناتيين في هذه الفترة، وتطوّر العلاقة مُقارنةً على ما كانت عليه سابقاً¹.

ويبدو عند قراءة أغسطين أن حركة الدوارين أصبحت مُلتحمة بالانشقاق الدوناتِي، حيث أنه لا يُفرقُ بينهما؛ أي أنه يُخاطب الدوناتيين وكأنّه يقصد الدوارين، ويُعمّم على الدوناتيين في بعض الفقرات تلك التصرُّفات التي يُنسبُها إلى الدوارين في فتراتٍ أخرى، كالإنتحار بهدف الحصول على الشهادة، فالمعروف أنّ الدوارون هم الذين إشتهروا بإستخدام العصا في غاراتهم وليس الدوناتيين، وعندما يُخاطب الدوناتيين فإنّه يُعدّد في لائحة واحدة جرائم متنوعة كإعادة تعميم أولئك المسيحيين الذين دخلوا إلى الدوناتية².

فالانشقاق والهرطقة هي جرائم من الواضح أنّها من عمل "الإكليروس الدوناتِي"، وجرائم أخرى تدخل في إختصاص جرائم الدوارين كالقتل والتعذيب والنهب والتلصُّص³.

¹ -محمد المبكر، المرجع السابق، ص 232.

² -حمودي نبيلة، مقاومة المور للإحتلال الوندالي، المرجع السابق، ص 43.

³ -محمد المبكر، المرجع السابق، ص 233.

كان أغسطين يؤكّد على الروابط العميقة التي تربط بين الدوناتيين و الدوارين، حيث يذكرهم في بعض الفقرات بهذه الطريقة « دُوارِيكُمْ »¹ وهو يُخاطب الدوارين، أو «عصاباتكم»² ، وفي بعض الأحيان يكتفي بالتعميم فيقول « دُويكُمْ » و يقصد رجال الدين الدوناتيين أحياناً و الدوناتيون بمن فيهم الدوارون أحياناً أخرى.

ويُتضح ممّا يبق أن الدوارون حسب أغسطين كانوا يُشكلون رؤوس رِماح الدوناتيين وعساكرها التي تُهاجم بهم رجال الدين والكنائس الكاثوليكية، حيث يُخاطب أغسطين الأسقف الدوناتى "كريسكونيوس" (Cresconius) في حوالي 405-406م قائلاً: «...في كلّ يوم نُعاني من الشرور المُهولة التي يقوم بها كهنتكم ودواريكم، وهي أذى وأمر من شرور كلّ اللصوص والنهابين، إنهم يتوفرون على أسلحة مُهولة ومن كلّ نوع، وتسكّعهم الرهيب لا يُزعج راحة الكنيسة وسلامتها فحسب لكن راحة وسلامة البشرية جمعاء»³.

ويظهر من خلال هذا النص أن الدوارين كانوا يُهاجمون على وجه الخصوص رجال الدين الكاثوليك و الكهنة و حتّى الأساقفة، كما روى لنا أغسطين على وجه الإساءات التي تعرّض لها "سيرفوس" (Servus) من مدينة "ثوبرسيكو-بور" (Thubursicum-Bure) و "ماكسيميانوس" (Maximianus) أسقف باغاي الكاثوليكي في نوميديا⁴ ، وذلك حوالي سنتي 303-304م إلى محاولة اغتيال من قِبَل عصابات مُسلحة بقيادة كهنة دوناتيين، وعندما ذهبوا إلى البلاط الإمبراطوري بروما قصد معاينة جروحهما من طرف الإمبراطور "هونوريوس" (Honorius) وجدوا هناك عدداً من رجال الدين والأساقفة الكاثوليك الذين تعرضوا لتعذيب رهيب من طرف مجموعة من عصابات الدوارين وضربوهم دون رحمة⁵. وبذلك تمّ تقديم الدوارين من خلال أسقف هيبو-ريجيس (عنابة) كجناح مُسلح ضدّ

¹-Augustin(St), Let. Cont. Petil. II, LXXXV,18.

²-Ibid, II, XCI, 201.

³-القديس أغسطين حسب الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 597.

⁴-Serge Lancel., «Les circoncensions », Encyclopédie Berbère.Vol 13,1994,document C 70,le 01 Mars 2012,pp 1962-1964.

⁵-Monceaux(P)., H.L.A.C, T4,p 63.

الدوناتيين، ومع ذلك فإنّ العلاقة بين الدوارين والكنيسة المنشقة مُعقّدة ويجب تقديرها بطريقة دقيقة¹.

وحسب ما ذكره الربيع عولمي فإنّ أغسطين يخاطب الدوناتيين بعد مناظرة قرطاج 412م قائلاً: « إنكم أنتم أيضاً على بيّنة من كلّ الولايات التي يُعاني منها ذوّنا بسبب الجنون المسعور لرجال الدين و دوّاري حزب دوناتوس: فهناك كنائس أُحرقت و أشخاص إنترعوا قسراً من بيوتهم التي نُهبّت أو هُدم كلّ ما كان موجوداً بها، و هم أنفسهم أشبعوا ضرباً وتمزيقاً وطُمست عيونهم بل تجاوز المُعتدون ذلك ولم يتردّدوا في قتل ضحاياهم...»²، فيظهر من هذا النص أنّ الدوارين كانوا أداة طيعة بيدّ الدوناتيين، إذ يرى أن تزايد عملياتهم قبيل ظهور قانون "هونوريوس" 405م³ إنّما هو ردّ فعل الدوناتيين ضدّ التّهجّم الكاثوليكي عليهم بصدّد إنشقاق الماكسيميانيين*⁴.

ونراه يُردّد على الأسقف "كريسكونيوس" سنة 405-406م قائلاً: « عندما سمعنا نبأ قبول ذنوبكم برجوع الماكسيميانيين إلى حظيرة الدوناتية وكانوا قد أدانواهم من قبل، وإننا نشرنا الخبر في كلّ الأرجاء و بكلّ ما أوتينا من قوّة فلم يجد ذوّكم أيّ جوابٍ على أحداث قريبة العهد واضحةً وضوح الشمس، لذا فاتّهم أصبحوا يلجؤون أكثر فأكثر وبوقاحة متزايدة إلى عُنف الدوارين وعصاباتهم المجنونة، فبدؤوا يستعملون الإرهاب ليحولوا بيننا وبين نشر الحقيقة الكاثوليكية ويمنعوننا من إخزائهم وإظهار مُغالطاتهم»⁵.

¹ -Serge Lancel., Op.cit.,p 1964.

²-القديس أغسطين حسب الربيع عولمي، المرجع السابق، ص-ص 598-599.

³ - Monceaux(P)..H.L.A.C, T4,p 57.

*إنشقاق الماكسيميانيين: ظهر بقرطاج سنة 392م وانتشر في منطقة البيزاكنيا تحت زعامة الشماس الدوناتى ماكسيميانوس، ويعتبر أهم إنشقاق عرفته الدوناتية. للمزيد أنظر Monceaux (P.), H.L.A.C,T4, pp 57-62.

⁴-ربيع عولمي، المرجع السابق، ص 599م.

⁵-القديس أغسطين حسب محد المبكر، المرجع السابق، ص 237.

وقد عجز الكاثوليك عن محاولة إقناع الدوارين بالتوقف عن هذه الأعمال الخارجة عن القانون، فخاطبهم أغسطين بشكل مباشر دون أي جدوى: «لكن من أخطب ومتى أخطب؟ وإنّي لا أجد وقتاً ملائماً للخطاب، حتى في الصباح تجدهم مخمورين سُكاري...»¹.

ومن ثم فإنّه يُحمّل على الأساقفة الدوناتيين مسؤولية عُنف الدوارين، فحسب قوله أنّهم يملكون القدرة على التأثير عليهم ومنعهم من القيام بالأعمال الشائنة، ويتّضح إذاً من وجهة نظر أغسطين أنّ لا فرق بين حركة الدوارين والدوناتيين وأنّها كانت حركة واحدة وتتمثّل في الإنشقاق الدوناتي.

أمّا ذنب الدوارين تمثّل في كونهم يعملون تحت كنف الدوناتية ويمنعون بالقوّة إخوانهم في المذهب من الالتحاق بالكنيسة الكاثوليكية، وبالتالي فإنّ الإكليروس المنشق يتحمّل مسؤولية تصرفاتهم خاصّة أعمال العُنف ضدّ الكنائس والأساقفة الكاثوليك².

وهنا نتساءل فيما إذا كان أغسطين صادقاً عندما أكّد تمرد الدوارين الذي كان جزءاً لا يتجزأ من الحركة الدوناتيية، وهل بالفعل تخلى الدوارون عن مطالبهم الإجتماعية وانحلوا كلياً في المطالب الدينية؟

وعلى ما يبدو أنّ نصوص أغسطين رغم تشابهها إلا أنّها تحمل بعض التناقضات فيما يتعلق في تبعية الدوارين للأساقفة الدوناتيين. فتارةً نلاحظ أنه يجعل من الدوناتيين أسياداً وزُعماء للدوارين، وتارةً أخرى نفهم من سياق كلامه أنّ الدوارون احتفظوا بنوع من الإستقلال في الحرية والعمل³.

ويشير أغسطين في فقرات أخرى إلى أن الدوارين كانوا يعملون تحت أوامر "الإكليركيين الدوناتيين" ويخاطبهم في إحدى رسائله سنة 409م قائلاً: «...تذكروا أعمال دُواريكم وكاهنيكم (Clerici) الذين كانوا دوماً رؤساء لهم».

1- القديس أغسطين حسب محمد المبكر، المرجع السابق، ص 237.

2- محمد المبكر، المرجع السابق، ص-ص 236-238.

3- الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 600.

وفي نصّ آخر يعود إل سنة 411م يقول: «...بينما كان دُواركم يقترفون أشنع الجرائم تحت قيادة الكهنة». وفي فقراتٍ أخرى يتحدث عن الدوارين أنهم: « كالحرس الخاص للكهنة الدوناتيين »¹.

ويذكرُ أغسطين أن عددا من الأساقفة الدوناتيين تزعموا بعض العصابات من الدوارين²، وربما كان يقصد "أوبطاطوس الجيلدوني" خصوصا مع أساقفة آخرين؛ « كان بودهم أن يفعلوا مثله لكن الإمكانيات أعوزتهم »³.

كما يُشير أغسطين من جهة أخرى في أكثر من مكان إلى أنّ موقف الدوناتيين كانوا أبعد ما يكونون عن الموافقة الكاملة عن أعمال الدوارين وأنهم كانوا يتبرون من عنفهم و أعمالهم⁴.

وتتدرج احتجاجات الدوناتيين من إدّعاءاتهم أنهم بكلّ بساطة يجهلون الدوارين إلى التأكيد بأنهم يحتملونهم صابرين، أما من خلال ردّه على "بارمينيانوس" (Parmenianus) حوالي 400م فيقول أغسطين: « عندما نُحيط الدوناتيين علماً باعتداءاتهم(الدوارين) فإنهم يفعلوا كما لو كانوا يجهلون هذه الفئة المكروهة أو يدعون بكلّ وقاحة و ضدّ ما يعرفه الجميع أن لا شأن لهم بهذه الاعتداءات...هذا إذا كان أن يجهل أساقفة الدوناتيين في عين المكان في إفريقيا أفعال و حركات الدوارين الدوناتيين أو يقولون أنه لا دخل لهم فيها».

وفي نصّ آخر يرجع إلى حوالي 405-406م يقول فيها: «حسب ما يظهر فإنّ هذه الأعمال الشائنة لا تصل إلى آذان دُويكم».

¹-نفس المرجع، ص 601.

²-Bruno Pottier, « Les Circoncellions. Un mouvement ascétique itinérant dans l'Afrique du Nord des IV^o et V^o siècles », in Antiquités africaines.,N°44, 2008, p97.

³-ربيع عولمي، المرجع السابق، ص 601.

⁴-حمودي نبيلة، مقاومة المور للاحتلال الوندالي، المرجع السابق، ص 42.

لكن الدوناتيين كانوا في الغالب يتحاشون الجواب عن هذه التّهم ويلتزمون الصّمت، لذلك لم يرد اسم الدوارين بتاتاً على لسانهم، غير أن أغسطين يُشير أحياناً إلى أنهم كانوا يُعلنون على عدم رضاهم عن أعمال الدوارين بشهادة هذين النصين:

النصّ الأوّل يرجع لنهاية سنة 393م: «أنظروا أيّ خُبثاء تَظْمُون في صُفوفكم، فإذا كنتم أنتم كذلك تغضون عنهم فلماذا لا يكون هذا الغضّ في إطار الوحدة؟ (وحدة الكنيسة)»¹.

النصّ الثاني يرجع لحوالي سنة 400م: «إنني أتُرك هذا جانباً (أعمال الدوارين)، لأنّ هناك منكم من يحتجّ إزاء هذه الأحداث باستنكاره لها في الحاضر و الماضي، إلّا أنهم على حدّ قولهم لا قدرة لهم فيها، فيستحملونه من أجل السلام (أي سلامة الكنيسة الدوناتية ووحدها)».

فلاحظ إذا من خلال النصوص الكاثوليكية السابقة عدم وُرود اسم الدوارين في كتابات الدوناتيين، أو أنّ هؤلاء الأخيرين يتحاشون ذكرهم، مع ذلك فقد أُثير كمشكل الدوارين في مناظرة قرطاج سنة 411م، حين تمّ إتهام الدوناتيين بالتعامل مع الدوارين فكان جوابهم: « إنّ ما يفعله الدوارون لا دَخْل للدوناتيين فيه»، ويبدو إذاً أن موقِف الدوناتيين من الدوارين كان مُتذبذباً، فلاحظ أنهم لا ينكرون تصرفات الدوارين كُلياً، كما أنهم لا يؤيّدونهم تماماً. وقد يكون موقف الأسقف الدوناتيّ "ماكروبيوس" (Macrobius) وهو خصم أغسطين في مدينة هيبو-ريجيس (عنابة) أحسن مثال على ذلك².

فقد استعان هذا الأسقف برفقتهم إلى "هيبون" (Hippon) غزون عام 409م لكنه لم يلبث أن سئم من تصرفاتهم بعد صدور قانون جديد للتسامح مع الكنيسة الدوناتية (409-410م)، ويُخاطب أغسطين في رسالة يعث بها إليه قائلاً: « إنكم تتعهدون بمنح التعويض للمُلاك المتضررين (من أعمال الدوارين) لكنكم لا ترغبون بالوفاء بوعودكم تماماً، لأنكم تخشون عداوة اللُصوص الجريئين الذي لو يتورّع كهنتهم عن الإعتماد عليهم من قبل ذلك

¹- محمد المبكر، المرجع السابق، ص-ص 239-240.

²- الربيع عولمي، المرجع السابق، ص-ص 602-603.

أن الدوارين يتبجحون بالخدمات التي أسدوها إليكم سابقاً فهم يذكرونكم ويعددون أمامكم ما فعلوه من أجلكم قبل هذا القانون التسامحي الذي سُررت له غاية السرور لأنه أعطاكم الحرية، إنَّ الفضل يرجع إليهم حسب ما يقولون في كون كهانتكم استطاعوا الاحتفاظ بملكياتهم و كنائسهم بعدما نهبوا دُوننا وكذا كُهاننا، فإذا أنتم أردتم معاملتهم بصرامة فستبدون شديدي النسيان للجميل، و النكران للمعروف»¹.

ويظهر لنا من خلال هذه النصوص السابقة أن موقف الدوناتيين لم يتغير كثيراً اتجاه الدوارين، إذ تباينت وجهة نظر الطرفي فيما يتعلق بطريقة العمل، ومن ثم استنكار الدوناتيين لأعمال العنف التي كان الدوارين يقومون بها².

حيث يظهر لنا أن الدوارين كانوا يُهاجمون الكنائس والأساقفة الكاثوليك والمُلاك والأسياد والمُرابين، فإنزلقت حركتهم من المطالب الاجتماعية إلى المطالب الدينية، الأمر الذي أدى بالدوارين إلى تبنيهم قضية الدونانية³.

أما الربيع عولمي فهو يرى أن "بريسون" (Brisson) صرح أن الدوارين كانوا ينظرون أساساً إلى أن الدونانية أنها نوعاً ما كدين للفقراء⁴. وهكذا يبدو أن العنصر الديني أصبح ملتحماً بالعنصر الاجتماعي، وأنَّ الثورة الاقتصادية و الاجتماعية تأخذ بُعداً دينياً⁵.

نستنتج مما سبق أنه هناك نوعٌ من التحالف كان قائماً بين حركتي الدوارين والدونانية، وأنَّ هذا التحالف قد تطور نظراً نتيجة لنفس الظروف التي مرَّت بها الحركتين حتى بلغا درجة النُضج في أواخر القرن الرابع ميلادي⁶.

1- القديس أغسطين حسب محمد المبكر، المرجع السابق، ص 241.

2- الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 604.

3- محمد المبكر، "حركة الدوارين في شمال إفريقيا في القرنين الرابع والخامس ميلادي"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الرحمان، 7ع، المغرب، 1984، ص 267.

4- الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 604.

5- عمران عبد الحميد، "ثورة الدوارين الريفية وارتباطها بالحركة الدينية الدونانية 347-411م في بلاد المغرب القديم"، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة المسيلة، د ع، دت، ص 81.

6- حمودي نبيلة، مقاومة المور للإحتلال الوندالي، المرجع السابق، ص 42.

لقد كان موقف الدوناتيين من تمرد الدوارين متذبذباً¹، فقد ذكر أغسطين أن بعض الدوناتيين يستنكرون عنف الدوارين، في حين كان البعض الآخر يتعامل معهم علانيةً، وربما ترأسوا عصاباتهم، و الراجح أنّ كبار الأساقفة الدوناتيين كانوا في معظمهم يتجنبون التعامل مع الدوارين، وهذا ما يوحي به إعرافات أغسطين²: «حقاً لستم كلّمكم معربدون، ولا كلّمكم بخلاء، ولا كلّمكم رجال عنف، إلاّ أنكم جميعاً هراطقة، ومن ثم فإنكم زنادقة مُدنسون».

ونلاحظ على ما يبدو رغم أن أغسطين اعترف بوجود عدد من الدوناتيين الذين يرفضون عنف الدوارين، لكنه اغتنم الفرصة لأشراك كل الدوناتيين في تمرد الدوارين. حيث يرى أنّ أعمال عنف الدوارين تشكل خطر على الكنيسة الرسمية وعلى النظام الروماني، بل أنها تهدد الإمبراطورية برمتها³. ويتجلى ذلك من خلال النص الذي كتبه أغسطين إبان صدور قانون "هونوريوس" ضدّ الدوناتية 405-406م: «...إن هذه العقوبات خفيفة جداً، بل تكاد لا تعتبر إذ ما قابلناها بأعمال ذويمك الجنونية، إنكم تحملوننا حتى مسؤولية الإجراءات التي تتخذها السُلطة الزمنية ورغما عنها لكي تقي نفسها من اعتداءات ذويمك».

كان من السهل على الكاثوليك أن يقنعوا الدولة بالتدخل ضدّ الكنيسة الدوناتية، إذا هم استطاعوا أن يلوثوا سمعتها بإشراكها في تمرد الدوارين، لذا فإنّ احتجاجات الأساقفة الدوناتيين تتضمن جانباً من الصدق، وإن لم تكن صادقة تماماً كما سنرى بعد قليل، و يمكن تفهم موقف "بيتيليانوس" (Petilianus) أسقف قسنطينة الذي لا يريد أن يُعاب على كنيسته وجود مجرمين أمثال "أوبط الجيلدونى" والدوارين في عدادها، وكذا ينبغي تقييم موقف "كريسكونيوس" (Cresconius) أحد النُحات المنتمين إلى الدوناتية عندما يُنكر حماقات الدوارين و جنونهم و تقديسهم المُدنّس والمنكر لجثث المنتحرين⁴.

1-الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 604.

2-حمودي نبيلة، مقاومة المور للاحتلال الوندالي، المرجع السابق، ص 43-44.

3-الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 605.

4-محمد المبكر، شمال إفريقيا القديم، المرجع السابق، ص-ص 243-244.

لقد كانت الكنيسة الكاثوليكية تبعاً لاستراتيجيتها منذ البداية تحاول أن تُظهر للسلطة الرسمية أنّ عنف الدوارين ينبغي إعزائه للكنيسة المنشقة، وبالتالي فإنّ السبيل الوحيد للقضاء على هذا التمرد والعنف هو القضاء على الدوناتية¹.

لقد كانت الكنيسة الكاثوليكية في إطار الجدل الفقهي يردون على إدعاءات الدوناتية بكون كنيستهم كانت "كنيسة القديسين"، "كنيسة الشهداء"، وأن هؤلاء القديسين هم وحدهم يملكون القدرة على التعميد أو إعادتها، إذ أنّ صحة التعميد مرتبطة بقداسة خادم البشر أو المُعمد (Minister)، فكان ردّ الكاثوليك أنه إذا كان "أوبطاطوس الجيلدوني" والدوارين وأمثالهم يملكون القدرة على التعميد فأين قداستهم وهم يرتكبون أشنع الجرائم؟

لذا كان معظم الأساقفة الدوناتيون يستنكفون عن تصرفات الدوارين حتى لا يُحرّجوا في مجادلاتهم الفقهية نع الكاثوليك من جهة، وحفاظاً على مصالح الحركة الدوناتية نقدياً لإنقاذ السلطة الرومانية منهم من جهة ثانية، وولتمس ذلك في موقف "ماكروبيوس" (Macrobius) الأسقف الدوناتى من دواى هيبو-ريجيوس (عنابة)، فبالرغم من أنهم استعانوا بهم للدخول إلى المدينة إلا أنه لم يلبث أن سئم من تصرفاتهم خاصة ما تعلّق بتعويض الملاك عن خسارتهم جراء أعمال الدوارين. فقد كان "ماكروبيوس" يرغب على غرار عدد من الدوناتيين في تعويض الملاك والأسياذ عن خسائرهم، إلا أن الدوارين كانوا يُعيقون تنفيذ تلك الرغبة. وبهذا الصدد نتساءل كيف لنا أن نفسر تعارض موقف كل من الدوارين والأساقفة الدوناتيين بخصوص تعويض الملاك².

إذا كان موقف الدوارين من الملاك ثابتاً وهو موقف عدائي منذ بداية القرن الرابع ميلادي فإنّ موقف "ماكروبيوس" وبعض الدوناتيين الآخرين لم يكن متشككاً اتجاه الملاك حتى لو كان أعدائهم في المذهب حتى لو كاوا مضطهدين.

¹ -Vannier.O.,Op.cit.,p 24.

² -الربيع عولمي، المرجع السابق، ص-ص 606-607.

فهل كان ذلك الموقف خوفاً من السلطنة الرومانية أو تعبيراً مظهرياً عن حُسن نيّتهم بعد صدور قانون التسامح مع الدوناتيين؟ ولماذا التخوف من الدوناتيين؟ ألا يذكرون هذا الموقف في حوادث "محلة أوكتافا" (Locus Octavensis) سنة 340م حينما طلب الأساقفة الدوناتيين تدخّل السلطنة الرسمية ضدّ الدوناتيين¹.

في حوالي سنة 393م يخاطب أغسطين الدوناتيين فيما يخص علاقتهم وموقفهم من الدوارين قائلاً: «ومع ذلك فإنكم تستحملون هؤلاء النَّاسَ، أخطأً أو خوفاً منهم؟ لست أدري هل هذا حال كلّ السياسيين الذي يُفجرون القوى البهيمية بالتهوّر ثم يفزعون لكونهم أصبحوا غير قادرين على التحكم فيها؟»، لا يبدو الأمر كان يمثل بهذه البساطة التي تُذكرنا بموقف بعض الكُتاب الغربيين إزاء المظاهرات العالمية والحركات النقابية والسياسية في أوروبا خلال القرن العشرين. فهذه القوى البهيمية كانت قادرة على الوصول إلى درجة معينة من التنظيم وأسلوب العمل وتطبيق المبادئ، ثم إنّ تمرد الدوارين بخصائصه وجد قبل أن يتدخلوا في النزاع الديني بين الكنيستين أي قبل 347م، لذلك لا يعدو أن يكون قولٌ من هذا القبيل جزءاً من الإستراتيجية الكلامية التي تزعمها أغسطين.

وللتوضيح أكثر فإنّ نوعٌ من الانزلاق من المطالب الاجتماعية إلى المطالب الدينية رُبما حدث عند الدوارين ورُبما عثرنا على أثرٍ لهم في مهاجمتهم للكنائس والأساقفة الكاثوليكين. غير أن تمرد الدوارين من المنطلق إلى النهاية احتفظ بطابعه المُعادي للمُلاك والأسياد والمُرابين، دون أن يكون للدوناتيين مسؤولية في المطالب الاجتماعية، على العكس بل كانوا يناهضونها².

يمكن القول إذاً حسب محمد المبكر أنّ أحد المُعاصرين رغم تحيزه الشبه الواضح للكاثوليكين أنّ الدوناتيين لم يبدوا اهتماماً خاصاً بالمطالب الاجتماعية والانقسام للمضطهدين ونزع الملكية من المُلاك هي نقطة تدخّل في برنامج الدوارين. وأنه حتى لو افترضنا أنّ

¹ - نفس المرجع، ص 607.

² - محمد المبكر، شمال إفريقيا القديم، المرجع السابق، ص-ص 145-146.

الكنيسة الدوناتية كانت كنيسة الفقراء فإنّ ذلك لا يرجع إلى إيديولوجية خاصة بها¹. وعلى هذا الأساس يمكن أن نتساءل هل كلّ الدوارين يُشكلون خطرًا على الدوناتيين أنفسهم؟

كانت الكنيسة الدوناتية على غرار نظيرتها الكاثوليكية تزخرُ بأموالها و ثرواتها التي كانت تتمسكُ بها، وكانت تظم في صفوفها فئةً من الأغنياء في تلك الفترة حوالي سنة 400م، وعلى سبيل المثال نشير إلى تلك السيّدة التي تُوفيت وأوصت بممتلكاتها لأحد الأساقفة الدوناتيين المدعو "أوغسطينوس" (Augustinus) الشيء الذي لم يُعجب أخوها الذي يُعدُّ أحد النبلاء، فقام بتقديم شكوى للإمبراطور لاسترجاع إرثِ أخته التي كانت منخرطة في حزب "دوناتوس"، فلبى الإمبراطور طلبه واستعاد ثروة أخته، حيث يروي أغسطين هذه الحادثة قائلاً: «تضمّن نصّ القرار إشارة إلى الدوارين توقُّعًا لأيّ معارضة عنيفة من جهتهم، و كذلك لطبيعة الإسعافات والوسائل الكافية بصدّهم لأنّ تلك الحالات كانت عادية، فقد اشتهر الدوارين بمثل هذه الأعمال الشائنة وأظهروا في عدّة مشاجرات شراستهم بحيث لم يكن بالإمكان أن يفضي المُشتكي إلى الإمبراطور ولا الإمبراطور نفسه عن ذكر الدوارين».

ونلاحظ من النصّ مدى خطورة الدوارين على تطبيق القوانين في المغرب القديم في نظر أغسطين، طالما أن رسالة المُشتكي و جواب الإمبراطور توقَّع معارضةً من طرفهم². ومنه نستخلص أن الكنيسة الدوناتية كانت غنية وذلك راجع إلى استفادتها من هبات أتباعها.

مع العلم أنّ الكنيسة المنشقة كانت تظم في حزبها الأغنياء والطبقة الأرسطوقراطية الذين ناصروها بكلّ ما لديهم³، ولكن تصرفات الدوارين لم يكن من شأنها أن تُرغب أولئك

¹ نفس المرجع، ص 146.

² ربيع عولمي، المرجع السابق، ص 609.

³ حمودي نبيلة، مقاومة المور للإحتلال الوندالي، المرجع السابق، ص 41.

الأغنياء في الإنتماء أو البقاء في الكنيسة الدوناتية، ومن ثمّ يُمكن تفسير موقف الأساقفة الدوناتيين من الدوارين الذي كان موقفاً مُتذبذباً¹.

ويبدو أن السُلطة أصبحت تُضيق الخناق على المُلاك ومن يقوم مقامهم (أكاروا ضيعتهم) ليقوموا بتنفيذ فعّال للقوانين في أراضيهم في قانون "هونوريوس" الصادر سنة 405م، نجد أن المُلاك الذين يسمحون بعقد تجمعات دوناتية فوق أراضيهم سيتم إدانتهم ومُصادرة ضيعتهم، وإذا تمّت تلك التجمعات بدون علمهم وبإذنٍ من أكارى ضيعتهم (Conductores) أو وكلائهم (Procuratores) بها فإنّ هؤلاء الأخيرين يتعرضون للجلد والنفي لمدى الحياة².

وقد أشرنا سابقاً من خلال القانون الصادر بتحريم الدوناتية إثر مناظرة قرطاج سنة 411م إلى مقتضياتها، ورأينا أنّ الضغط صار مُركّزاً على مستأجري الضيعة، سواءً التي كانت بيّد الإمبراطور أو تلك التي كانت ملكاً للخَواص، حيث أنّهم هُددوا سنة 414م حيثُ تم إصدار قانون يُنصُّ على فسخ عقدهم مع مالكي الأرض³.

ولا يبدو أن السبب في تهاؤن بعض المُلاك وبعض الأكارين في تطبيق القوانين على فلاحهم وعبيدهم؛ يرجع إلى قوتهم، فقد كانوا متشبّثين أكثر من يرههم بالدوناتية، بل إنّ المُشرع اعتبرهم ضمنياً كاثوليكين بما أنّهم وُكِّل إليهم تطبيق القانون على الأشخاص الموجودين تحت إشرافهم ورعايتهم (العبيد، المزارعون الدوارون)، ويبدو أنّهم كانوا يتحاشون المواجهة مع اليد العاملة تحت إشرافهم بسبب مشاكل مذهبية، لأنهم لن يربحوا أيّ شيء من تلك المواجهة التي يُمكن بالعكس أن تُلحق ضرراً بإنجاز الأعمال الفلاحية والسُير العادي للأعمال في الضيعة. فإنّ الأكارين هم الذين تشددوا مُقتضيات القانون عليهم بصفة خاصة، حيث كانوا يستغلون الأرض في مُقابل أداء الإتاوة وما كانوا يَرجونه هو تحقيق الربح.

¹-الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 609.

²-محمد المبكر، شمال إفريقيا القديم، المرجع السابق، ص 248.

³-Saumagne(CH).،«Ouvrières Agricolos ou rôdeur de celliers ?Les circoncillions d'Afrique»، p 351 .

أما الملاك مهما اختلفت مذاهبهم العقائدية (مُشركين أو دوناتيين أو كاثوليك)، فإنهم على الأرجح يُعاكسون أيّ محاولة تدخّل حكومي في شؤون ضيعتهم، وذلك للحفاظ على سلطتهم واستقلالهم في أراضيهم، وقد كان موقفهم مُتعصّبًا لدرجة أنّ أغسطين عمل على إقناع بعضهم بالضغط على فلاحهم كي يكفوا عن الدوناتية وذلك سنة 401م، ويرى أن مفاتيحهم في هذا الموضوع كانت تتضمن عدّة مخاطر. وكانت القديسة "ميلانيا" (Milania) كاثوليكية مُتحمّسة، وتملك أراضي قر ب مدينة "ثاغاست" (Thagaste) (سوق أهراس)، يوجد بها أسقف دوناتي حوالي سنة 410م¹. ويذهب كثيرًا من الباحثين إلى ما أحر سقوط الدوناتية الموقف المتدبب الذب إتخذه الملاك منها وتهاونهم في تطبيق القوانين التي صُدّرت ضدّ الدوناتية على فلاحهم.

ويرى أولئك الباحثين أن تشدّد السلطة الرومانية إتجاه الملاك خاصةً بعد مناظرة قرطاج سنة 411م حيث إنتهى ذلك الاجتماع بإدانة الحركة الدوناتية و إنحيازهم إلى صالح الكاثوليك، الأمر الذي سجّل الهزيمة لهذه الحركة من الناحية القانونية²، إلاّ أنّ حيوية الدوناتية تمكنت من تجاوز أزمات صعبة كإضطهادات سنة 347م. وفي هذا السياق يحقّ لنا أن نتساءل ما الذي دفع الملاك إلى تغيير مواقفهم؟ وهل ذلك يعود إلى تشدّد السلطة الرومانية إتجاه الغير مكثرئين منهم لتطبيق القوانين على فلاحهم الدوناتيين؟ يبدو أن السلطة كانت صعبة أمام هؤلاء الملاك بحث عجزت عن إرغامهم على تسديد الضرائب مهما اختلفت مصالح السلطة فإنّ الطرفين يتفقان على ضرورة الحفاظ على الأمن في البلاد لمواجهة الدوناتية.

فقد عرفت العلاقة بين الدوناتية والدوارين تقاربًا متزايدًا في أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس ميلادي، ومهما كانت طبيعة ذلك التقارب وأسبابه فإنّ الكنيسة الدوناتية

¹ -محمد المبكر، شمال إفريقيا القديم، المرجع السابق، ص-ص 248-249.

² -حميدة نشنش، "إجراءات الإمبراطور هونوريوس للقضاء على الحركة الدوناتية(393-423م)"، مجلة الباحث-المدرسة العليا للأساتذة الشيخ مبارك ميلي-بوزريعة، مج 13، ع 1، 25 سبتمبر 2021، ص 569.

يبدو أنها متورطة مع الدوارين الذين كَثَّفوا هجماتهم على الملاك والدائنين والأسياذ على الكنائس الكاثوليكية ورجال الدين الكاثوليك أيضاً¹.

ومن ثم أصبح الدوارون جزءاً من الصراع الديني بين الكاثوليك والدوناتيين، الذي تميّز بتركيز أغسطس و زملائه الكاثوليك دعايتهم الموجهة إلى الدولة عن طريق البعثات إلى الإمبراطور و إلى الملاك عن طريق رسائل أغسطس، فمن الواضح إذا أن مصلحة الدولة و مصالح الملاك أصبحت تقتضي مكافحة الدوناتية، بالرغم من أن بعض الملاك الدوناتيين ظلوا متشبثين بعقيدتهم².

ورغم صدور قانون 30 جانفي 412م الذي ينصُ فرض غرامات مالية على الدوناتيين³، وقانون سنة 414م الذي ينص على تطبيق الحظر على الدوناتيين حتى ولو كانوا كاثوليكين. وهكذا كان معظم الملاك منذ نهاية القرن الرابع ميلادي إما مُشركين وإما كاثوليك، لذا يمكن القول إن تغير موقف الملاك اتجاه الدوناتية له الفضل والأثر البالغ في التعجيل بسقوطها.

وقد أشارت نصوص أغسطس إلى تنكّر رجال الدين الدوناتيين للدوارين لم يكن لمنعهم من توظيفهم في الفترات الصعبة التي اجتازتها الكنيسة المنشقة⁴.

فمنذ سنة 393م نجد أغسطس يخاطب الدوناتيين بصدد موقفهم من الدوارين: «لكن إذا طردهم (يقصد الدوارين) زعمائكم فلن يجدوا نصيراً لبسطِ سُلطانهم».

وفي ردّه على "بتيليانوس" (Petilianus) أسقف القسطنطينية حوالي 400م يُصرح: «...الواقع أن شرّاً ذِمَّتكم المنشقة تستمد قوتها في غالب الأحيان لا من صولجان الله وعصاه ولكن من عصيهم هم، تلك العصى التي تعتقد أنها تجعلكم في مأمن من قوانين روما نفسها...»، إن أقوال أغسطس لا تخلو من تضخيم، لكن المرء يستطيع أن يفهم ان

1-الربيع عولمي، المرجع السابق، ص-ص 611-612.

2-نفس المرجع، ص 612.

3-حميدة نشنش، المرجع السابق، ص 570.

4-الربيع عولمي، المرجع السابق، ص-ص 612-613.

التعاون الذي وُجد بين الحركتين المضطهدين ربما إنطلاقاً من 347م كان يظهر بوضوح في الفترات العصبية التي اجتازتها الكنيسة الدوناتية، وفي الواقع ضيق الخناق تدريجياً على الكنيسة المنشقة بعد إنتهاء فترة التسامح في عهد "يوليانوس" المُرتدّ سنة 362م، وخاصة في عهد "ثيودوسيوس" (Theodosius)(379-395م)، و "هونوريوس" (Honorius) (395-423م)¹.

لقد ظلّ رجال الدين الدوناتيين خلال تلك الفترة رغم القوانين التي صُدّرت ضدهم يحاولون إقناع السلّطة الرومانية بأنهم يمثلون الكنيسة الكاثوليكية الحقّة، كما كانوا يلجؤون إلى السلّطات في بعض الظروف لمحاولة التخفيف من حدّة القمع الذي تعرّضت لها الدوناتية، أو الإلتماس للعقوبات ضدّ المُنشقين عنها، ومما دفعهم إلى ذلك أن الكاثوليك كانوا يتأثرون بمسامح السلّطة الزمنية ويوجهونها وفق ما يُساعد مصالحهم².

غير أن التعاون الذي وُجد أحياناً بين الدوارين والدوناتيين كان ظرفياً ومنسوباً بنوع من الحذر والتخوف من جانب الدوناتيين، كما أنه لا يكتسي فعالية نسبية إلا لوجود جناح متطرف في الكنيسة الدوناتية نفسها، كما رأينا نفس الظاهرة في الفترة السابقة³.

وهنا لا يجب علينا أن نغفل أنه خلال هذه الفترة أن الكنيسة الدوناتية بحدّ ذاتها كانت مُنشقة على نفسها؛ أيّ أنه ظهر جناحان متخاصمان:

-جناح معتدل يُمثله زعماء الإكليروس الأعلى؛ وهو الجناح الذي رفض التعامل مع الدوارين أو يودّ إستغلالهم بدون أن يتورط في الإعتراف بمشروعية أعمالهم.

-جناح آخر مُتطرف يمثله بعض الأساقفة مثل "أوباطوس الجيلدوني" وعدد من رجال الدين الصغار المُتعاملين مع الدوارين⁴.

1 - محمد المبكر، شمال إفريقيا القديم، المرجع السابق، ص-ص 251-252.

2- الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 614.

3- محمد المبكر، شمال إفريقيا القديم، المرجع السابق، ص 254.

4- حودي نبيلة، مقاومة المور للاحتلال الوندالي، المرجع السابق، ص-ص 43-44.

كما يظهر لنا أغسطين وهو يصفه أولئك "الإكليركيين" مع الدوارين بهذه النعوت: «...هذه المخلوقات الفظة والمخبولة التي لا تدرك ولا تحتمل ما ننصحها بها لمصلحتها»¹.

هذا ما يُذكرنا بموقف "كلاروس" كاهن "محلة سوبولوس" (Locus subulensis) الذي تردّد في تنفيذ أوامر أسقفه التي تنص على منع الدوارين من دفن ضحاياهم في بيت الله². كما يظهر أنّ مثل هؤلاء الكهنة كانوا أقرب من رؤساءهم إلى الجماهير الشعبية خاصة في الأرياف، وهناك فقط يمكن أن نتحدث على تعاون حقيقي بين الدوارين و الدوناتيين³.

وفي هذا الصدد يمكن أن نتساءل لماذا أعمال الدوارين أصبحت موجهة ضدّ الكاثوليك؟ ويبدو أن معظم الملاك قد أصبحوا من الكاثوليك في نهاية القرن الرابع ميلادي، إذ كانت الدوناتية في نظرهم هي كنيسة الفقراء. فقد اعتبر أغسطين انفصال الدوناتيين عن المتخاذلين (Traditores) انفصالا جسديا وليس روحيا، كما كان يكتفي به الكاثوليك قائلًا: «المؤمنون يخرجون من وسط المذنبين وينفصلون عنهم بالقلب مؤقتًا خشية أن يكون السبب في انفصال روعي عن الأخيار بدل الانفصال الجسدي عن الأشرار».

وحسب ربيع عولمي فقد حاول "بريسون" (Brisson) أن يُظهر هذا الانفصال بين المتخاذلين وذرياتهم الكاثوليك من جهة وبين الشهداء وخلفهم الدوناتيين على أنه انفصال بين الأغنياء والفقراء. ويبدو أن هذا الانفصال لم يحدث بسبب اعتبارات دينية و لكن لأسباب سياسية⁴، حيث أن الأغنياء لم يكونوا كلهم كاثوليك و الفقراء كلهم دوناتيون⁵، فإن القول أن الدوناتية كانت كنيسة الفقراء يمكن قبولها بتحفظ حيث أصبحت الدوناتية من حيث تكوينها السوسولوجي تظم نسبة كبيرة من الفقراء في نهاية القرن الرابع، لا بسبب مبادئ خاصة أو إيديولوجية مسيحية متميزة تمدح الفقراء وتندّد بالثروة⁶، بل إن إنتماء

¹-محمد المبكر، المرجع السابق، ص 254.

²-Vannier.O., Op.cit.,p 21.

³-محمد المبكر، المرجع السابق، ص 254.

⁴-الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 615.

⁵-محمد المبكر، "حركة الدوارين في شمال إفريقيا في القرنين الرابع والخامس ميلادي"، المرجع السابق، ص-ص 267-268.

⁶-نفس المرجع، ص 267.

أولئك الفقراء إليها هو الذي أدى إلى ظهور بوادر في تلك الإيديولوجية، ولكن بوادر طفيفة ومستعملة لأغراض جدلية.

إن إنتماء الدوارين للدوناتية يرجع إلى ظروف الإضطهاد التي كانت تعاني منها الكنيسة الدوناتية، ورغم أن مونسو جعل من الدوارين عصابات من اللصوص فإنه أدرك أن الحلف بين الدوارين والدوناتية لم يكن إلا حلف المتمردين وجبهة المتضررين ضد أصحاب الأمر في البلاد. وكان عليه أن يضيف أن تلك كانت دليلاً على فشل الإستعمار الروماني في إفريقيا¹.

ولكن ما نلاحظه في هذه الثورة أن الدوناتييين والثوار الريفيين كانوا يفتقرون للقيادة السياسية، فالدوناتية التي كانت قيادة دينية لم تكن قادرة على قيادة الحركة إلى النصر بمفردها، فكانت تحتاج إلى دعم سياسي الذي كانت تفتقر له وكانت تُغرة وعامل من عوامل ضُعفها، مما دفع بها وبالثوار الريفيين في الإنخراط في حركة "فيرموس" (Ferminai)، من أجل تقوية الضعف وتوسيع جبهة النشاط الثوري. حيث كان لهذا التحالف الثلاثي تعبيراً لكل طرف على رغبته في العمل تحت زعامة سياسية تُوجد الجهود وتُجند الإمكانيات لبُلوغ هدفهم المُشترَك.

¹- محمد المبكر، شمال إفريقيا القديم، المرجع السابق، ص-ص 256-257.

الفصل الرابع: ثورتى فيرموس وجيلدون وعلاقتهما بثورة

الريفيين.

المبحث الأول: ثورة فيرموس (الإطار التاريخي)

أولاً: ماهية ثورة فيرموس.

ثانياً: أسباب ثورة فيرموس.

المبحث الثانى: الإطار العام لثورة فيرموس وعلاقتها بثورة

الريفيين.

المبحث الثالث: ثورة جيلدون (الإطار التاريخي)

أولاً: شخصية جيلدون.

ثانياً: أسباب ثورة جيلدون

المبحث الرابع: ثورة جيلدون وعلاقتها بثورة الريفيين.

لقد كانت منطقة بلاد المغرب القديم خلال نهاية القرن الرابع ميلادي لا تزال تحت السيطرة الرومانية، إلا أنّ هذه الأخيرة لم تصل بسيطرتها إلى بعض الأقاليم مثل مرتفعات السهوب التي كتن يُديرها أمراء محليين مُشكّلين بذلك وحدات مُستقلة نسبياً خاصةً في الجبال. ومن بين تلك القبائل نذكر خمسُ قبائل شكّلت حِلْفًا خُماسياً. (أنظر الخريطة رقم 7 صفحة 133)، والتي عُرفت بعدائها للرومان. ولم يتوقف الأمر عند قبائل الحلف الخُماسي بل امتدّ التمرد إلى المناطق الجبلية المُستعصية على السيطرة الرومانية، كما هو الحال بالنسبة لقبائل البوار (BAVARIS) الذين ظلّوا رافضين للسلطة الرومانية. وبالتالي تمكنوا من زعزعة استقرار مقاطعة موريتانيا الطنجية بين سنتي 233م و235م، ثم موريتانيا القيصرية على الحدود الشرقية المتاخمة لمقاطعة نوميديا. فاضطرت روما بعد ذلك بالاعتراف بحُكم الزُعماء المحليين كحقيقة واقعة؛ نظراً لِمَا يتماشى به النظام الاجتماعي القبلي المحلي.

ظَلَّت تلك المناطق تهدد الوجود الروماني، حيث أنها كانت تثور من حينٍ لآخر، مما أدّى إلى تضرُّر المُعمّرين من جراء ثورات عارمة خلال القرنين الرابع والخامس ميلادي، ما دفعهم باللجوء إلى السُلطة الرومانية للاحتماء تحت جناحها، والتي بدأت هذه الأخيرة بعقد تحالفات مع بعض زُعماء القبائل بهدف الحفاظ على مصالحها وإثارة الفتن بين تلك القبائل. لكنها فشلت في إحكام السيطرة العسكرية خاصةً وأن بعض القبائل ظلّت غير خاضعة لها. ولكن هذا لا ينفى وجود أهالي مترومين ومرتبطين بالإمبراطورية.

وفي هذا الصدد سنعالج في هذا الفصل علاقة ثورة الريفيين بأهم الثورات التي شهدتها القرنين الرابع والخامس ميلاديين، والذي سوف نتعرض فيه لثورتي فيرموس وجيلدون، وإطارهما التاريخي وكذا الظروف التي أدّت إلى قيامها، مع إظهار العلاقة التي تربطها بثورة الريفيين (الدوارين).

المبحث الأول: ثورة فيرموس (372 م-375 م).أولاً: ماهية ثورة فيرموس:

اندلعت ثورة فيرموس (Firmus) من سنة 372م إلى غاية 375م في المجال الجغرافي الذي استعصى على الإحتلال الروماني والمُتمتع بنوعٍ من الاستقلالية؛ كانت تسكنه بعضُ الأسر العريقة اتي وصفتها المصادر التاريخية "بالمَلَكِيَّة" (Regulis) والتي كانت تربطها علاقة مع الحاكم الروماني، ومن أشهر تلك الأسر نذكر أسرة "فيرموس" (Firmus) بن "نوبل" (Nubel)، والتي كانت تُسيطر في تلك الفترة على منطقة واسعة من موريتانيا القيصرية¹. والتي تمتد من جيجل إلى لمباز شرقاً إلى قرطنة (Cartenna) (تنس) غرباً، وأوزيا ومسيلة جنوباً². (أنظر الخريطة رقم 8 صفحة 138).

لقد تزعم فيرموس* الطبقة المسحوقة من رعايا مذن موريتانيا القيصرية وزُعماء النُحلة الدوناتية المناهضة للسلطة والثوار الريفين. وأصبح هذا الأمير في نظرهم كُفرصة لتحقيق طموحاتهم. وبهذا تمكن فيرموس من جلب الثأر الذي أحدثته ثوراته.

إهتم الكُتاب المُعاصرين لحركته، ودوّنوا بذلك أخبار الأحداث التي تخلّت تلك الثورة، وشيئاً من الأساليب السياسية التي عالج بها الرومان الوضع بالإضافة إلى إنطباعات بعض الكُتاب حول الآثار التي أحدثتها هذه الحركة في أواسط المجتمع الريفي والحضري، الذي كان عُرضة لنشاط رجال الدين الذين تصارعوا حول زعامة الكنيسة.

¹-بوقفة نور السدات، سياسة روما الثقافية في بلاد المغرب القديم وموقف السُكان منها، رسالة ماجستير في التاريخ الثقافي والاجتماعي المغربي عبر العصور، المرجع السابق، ص 288.

²-محمد الهادي حارش، ثورة فيرموس 372م-375م، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، ع 7، 1993، ص 11
*فيرموس اسم من أصل لاتيني حسب ما تذكره أغلب المصادر، وهو أحد أبناء الملك نوبل، كان حامياً ومعترفاً به للدوناتية خلال تمردده ودخل الأسقفية المنشقة. للمزيد أنظر:

-Laport. (J.P), «Nubel, Sammac, Firmus, et les autres une famille berbère dans l'empire romain», L'africa roman, 16-19 décembre 2010, pp 983-987.

ومن بين هؤلاء الكُتاب نذكر أميان مارسلان (Ammien Marcellin)** الذي يُعدُّ مصدرًا أساسياً لهذه الثورة.

تركت ثورة فيرموس بصمتها في الوثائق الأثرية (النقوش) التي تضمنت معطيات هامة أكّدت مضامين المصادر الأدبية. ونذكر من بينها النقيشة التي عُثِر عليها في الكنيسة التي أُنسبت إلى إحدى القديسات بالمقبرة الشرقية لتييازة المدعوة "صالسا" (Salsa)، والتي نصّت على ما يُفيد طمع فيرموس في كُرسي الإمبراطور، بالإضافة إلى نقيشة

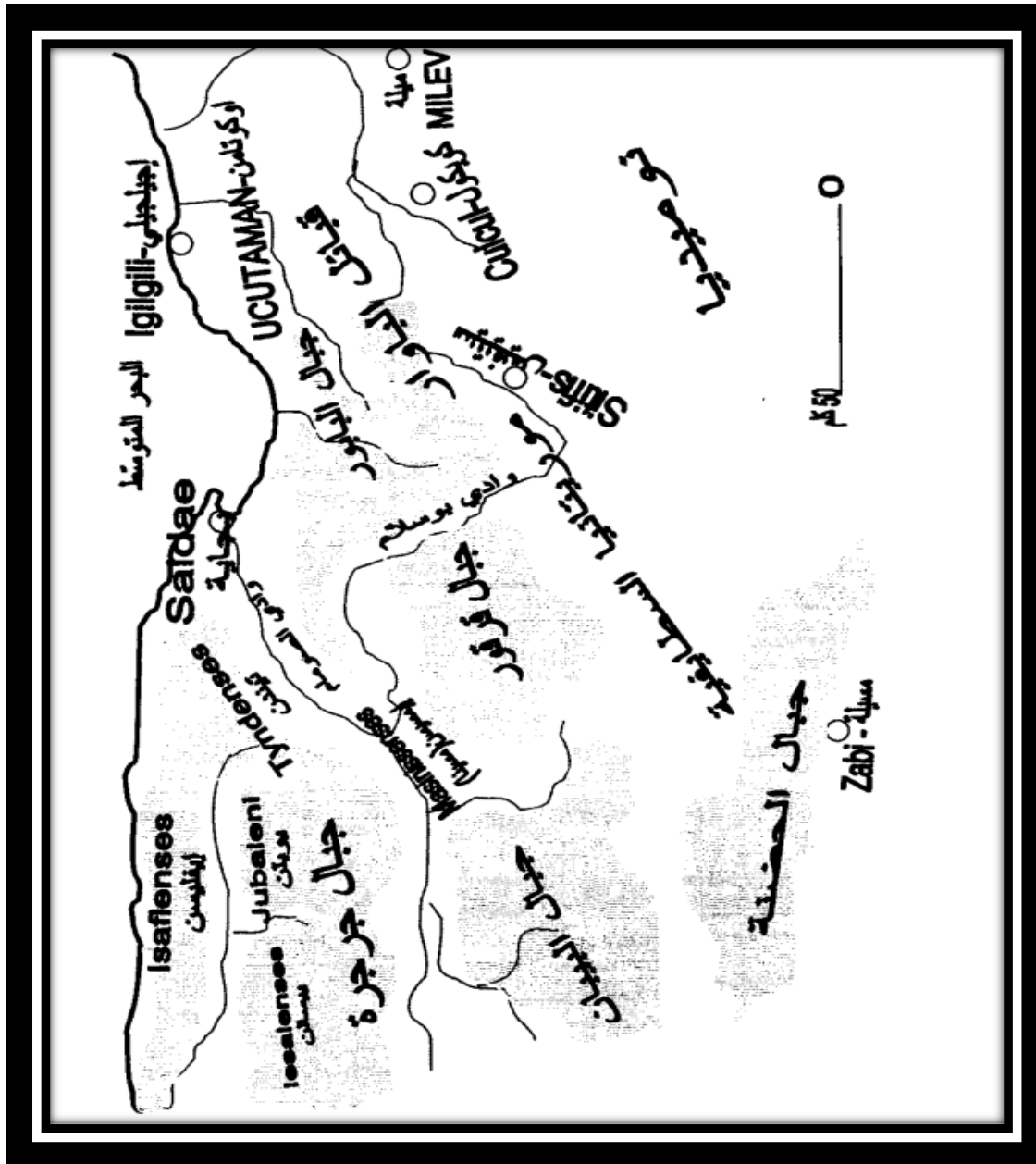
"رو سكونيا" (Rusgunia) (برج البحري حالياً)، التي تعود إلى القرن الرابع ميلاد، والتي تتضمن اسم والد فيرموس "فلافوس نوبل" (Flavius Nubel) الذي كان قائداً لوحدة عسكرية من المساعدين، بالإضافة إلى العثور على نقيشة أخرى بوادي الشلف بموقع حصن "تيقافا كاسترا" (Tigava Castra) (بين مدينتي عين الدفلى والشلف)، والتي نصّت على سيطرة حركة فيرموس في المنطقة وغيرها.

ويدل توزيع الوثائق المذكورة على الأقاليم المتباعدة على إنتشار حركة فيرموس ونجاحها في السيطرة على المقاطعات القيصرية¹.

** أميان مارسلان وُلِد حوالي 320م بإحدى المدن الكبيرة التابعة للإمبراطورية الرومانية، وهي مدينة أنتيوش Antioche، توفي في 390م بروما، قاتل لفترة طويلة في ألمانيا وبلاد الغال ورافق الإمبراطور جوليان في رحلته الاستكشافية إلى بلاد فارس. للمزيد أنظر:

-Bouillet (M.N.), Dictionnaire Universel d'Histoire et de Géographie, p 68

¹- محمد البشير شنيّتي، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، بحث في منظومة التحطم العسكري لليمس الموريتاني ومقاومة المور ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص-ص 354-356.



خريطة رقم 7: قبائل البوار والحلف الخماسي خلال القرن الرابع ميلادي

نقلا عن: - محمد العربي عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، المرجع السابق، ص 162.

ثانياً: أسباب ثورة فيرموس:

كانت أسرة "نوبل" (Nubel) من بين الأسر التي كانت تتعامل مع الحاكم الروماني، إلا أن "نوبل" كان يحتل مكانة هامة في حُضن المقاطعة وكان الملك الأكثر تأثيراً على القبائل المورية¹. وبعد وفاته حوالي سنة 370م ترك العديد من الأولاد من زوجته ومحظياته²، نذكر من بينهم فيرموس (Firmus) و جيلدون (Gildon) ماكزيسيل (Macszel)، زاماك أو سوماك (Sommac\Sammac) ديوس (Dius)، و مازوكا (Mazuca) وشقيقتهم كيريا (Cyria) هي المرأة الوحيدة المعروفة في الأسرة والتي امتلكت كنوزاً هائلة، كما لعبت دوراً ناشطاً كداعية من خلال توزيع الأموال على السكان لتعزيز دعمهم لشقيقتها فيرموس³.

قبل أن نبدأ في عرض الأسباب التي أدت إلى اندلاع حرب فيرموس، يظهر لنا وفقاً لرواية أميان مارسلان والمؤرخين المعاصرين له، أنهم قد ألقوا مسؤولية نشوب هذه الثورة على الكونت "رومانوس" (Conte Romanus)* الذي إتهم بجلب هذه المتاعب للإمبراطورية⁴.

بحيث عمل على إثارة الفتنة وزرع الفرقة بين أبناء نوبل (Nubel)⁵، من خلال مساندته لزاماك (Sammac) ووقوفه ضد أخيه فيرموس، مما دفع بهذا الأخير لقتل شقيقه. الأمر الذي تسبب في شقاقٍ وحرب نتيجة لانتقام رومانوس من مقتل حليفه⁶، الذي كان شديد الارتباط به والذي كان ربما عميلاً له⁷.

¹- عمران عبد الحميد، الديانة المسيحية في المغرب القديم النشأة والتطور (180م-430م)، المرجع السابق، ص 264.

²- Ammien Marcellin, histoire, T,3 trad., Lourdet, Librairie Boysset, Paris, 1777, XXIX, 5, 2.

³-Decret,F.et Fantar,M.,L'Afrique du Nord dans l'antiquité, histoire et civilisation des origines au V eme siècle, p 334.

* رومانوس: حاكم روماني اشتهر بسلوكه المشبوه، حيث اشتكى منه رعايا مدينتي طرابلس ولبدة، من شؤون تصرفاته حيث حرف حقائق اللجنة التي أوفدها الإمبراطور فالنتينيانوس إلى عين المكان. للمزيد أنظر: محمد البشير شنيطي، التغييرات الاقتصادية والاجتماعية، المرجع السابق، ص 358.

⁴- محمد الهادي حارش، ثورة فيرموس، المرجع السابق، ص 11.

⁵- حمودي نبيلة، الدوناتية ودورها في مقاومة الرومان خلال القرنين الرابع والخامس ميلادي، المرجع السابق، ص 43.

⁶- Ammien. (M.). Histoire de Rome livre XXIX,5.

⁷-Laport (J.P).,Op.cit, p 989.

وهذا ما يعدُّ السبب الرئيسي لهذه الحرب، أما الأسباب الخفية لهذه الحرب تعود إلى عمل الإدارة الرومانية على تحريض المور ضدّ بعضهم البعض و ذلك بهدف إشعال حروب أهلية، كالتى عرفتها مملكة نوميديا خلال عهد الملك يوغرطة مع أبناء عمه عام 105 ق-م¹. حيث إنحاز "رومانوس" إلى الأمير زاماك (Sammac)* ضد فيرموس الذي حسم الأمر باغتيال أخيه "زاماك"، تماما كما وقع لأذربعل على يد يوغرطة سنة 112م². ما دفع بذلك بطّلب أنصار "زاماك" (Sammac) بمعاقبة فيرموس الذي بدى مجرما في نظرهم وفي نظر القانون الروماني. إلا أن هذا الأخير كان قد حظي بمكانة قوية عند قومه الموريين، الذين رأوا في مناصرة الرومان "لزاماك" تدخلا في شؤون الأسرة الموريتانية³.

كما تطرق محمد الهادي حارش إلى الأوضاع التي كانت عليها إفريقيا و التي شهدت صراعا دينيا قسّم المنطقة إلى معسكرين معادين؛ الأول كان من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرسمية، و الثاني من الدوناتيين المنشقين الذي كان معظمهم من الأهالي، وأعطوا لهذا الصراع طابعا عرقيا و دينيا، و أن الانشقاق كان بالنسبة لهم كفرصة للوقوف ضد العبودية، حيث عملت على زرع الأمل فحدث تحالف بينهم و بين فيرموس⁴.

مع حُكم "فالريان" (Valerian) سنة 364م سادت الفوضى بين الموظفين وعمّ الفساد بين صفوفهم على مختلف مستوياتهم، نذكر على سبيل المثال "رومانوس"، ومع استمرار الاستنزاف الاقتصادي وتبني روما لسياسة التهميش الداخلي تحالف العديد من القبائل مع الثورة، وذلك دليل على استيائهم من الوجود الروماني⁵. فمن الواضح أن هذه الثورة كما تلمح لها الروايات انها حدثت سنة 372م، إلا أنه هناك من يُرجعها إلى فترة أسبق أي إلى سنة 370م بعد أحداث لبدة.

¹-أبوبكر سرحان، المقاومة الوطنية المورية للاحتلال الروماني(40-429م)، مجلة الدراسات الإفريقية، ع42، جويلية 2017، ص 51.

* ساماك: ابن نوبل من إحدى خبيلاتة، ارتبط مع الكونت الروماني رومانوس الذي أقام معه علاقة صداقة قوية وهو ما شكل خوفا عند أبناء من تقدّم ساماك عليهم في الزعامة، فتمّ اغتياله في ظروف غامضة ما نتج عن ذلك صراعاتٍ دامية. للمزيد أنظر: عمران عبد الحميد، المرجع السابق، ص 264.

²-محمد ابشير شنيّتي، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني ج2، ص 359.

³-أبو بكر سرحان، المرجع السابق، ص 52

⁴-محمد الهادي حارش، ثورة فيرموس، المرجع السابق، ص 12.

⁵-عمران عبد الحميد، مقاومات الاحتلال الروماني ثورة فيرموس 372م أنموذجا، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، ديسمبر 2016، ص5.

اندلعت الثورة من الجبال المجاورة لصالداي (Saldae) (بجاية حالياً) بالقرب من قصر "بيترا"* بقيادة فيرموس، ثم انضمت إليه القبائل البدوية، إلى جانب الفلاحين المستقرين والقبائل الجبلية التي لم تكن خاضعة للرومان¹. كما انظم إليه الثوار الريفيين، وهذا ما سنوحي إليه في المبحث التالي.

* قصر بيترا **Patri Palatini** تقع في منطقة ملاكو على بُعد 25 كلم إلى الجنوب الغربي من تنكلات، والتي كانت تابعة لزاماك Sammac. للمزيد أنظر: الربيع عولمي، المسيحية في المغرب القديم ودورها في أحداث القرنين الرابع والخامس ميلادي، المرجع السابق، ص 634.
¹ نفس المرجع، ص 6.

المبحث الثاني: الإطار العام لثورة فيرموس وعلاقتها بثورة الريفيين.

يتمتدّ الموقع الجغرافي الذي شملته ثورة فيرموس حسب محمد الهادي حارش من جبل ولمبار شرقاً إلى تنس (الشلف) غرباً وأوزيا (Ozia) ومسيلة جنوباً¹.

أما "غبريال كامبس" (G.Camps) فهو يرى أن الثورة تركزت في أماكن أخرى مثل أوزيا (سور الغزلان، أو مالي سابقاً)، والتي كانت تقاطع طرق ذات أهمية لمدينة الساحل مثل إيكوزيوم (Icosium) وروسوكونيا (Rusugunia) وروسوكورو (Rusucuru) وتوبوسوبتو (Thubusupto) وصالداي (Saldae)، وذات أهمية أيضاً للمدن التي تتواجد بوادي الشلف (Chélif) مروراً عبر رايبوم (Rapidum) و تانزاموسا (Thanzamusa) الواقعة في الجير (Limes) على المسارات الصعبة لجبال التيطري (Titteri) مع سيتيفس (Setifs) (سطيف حالياً) أخيراً عبر جبال البيبان (Les Monts de Bibanes)².

استهّل فيرموس ثورته بمهاجمة عاصمة مقاطعة موريتانيا القيصرية مدينة قيصرية (Caesarea) (إبول-شرشال)، حيث أمر أخاه مازوكا (Mazuca) بإقتحامها وإضرار النار فيها³، والاستيلاء على مدينة إيكوزيوم (Icosium) (الجزائر) وحصار تيبازة (Tipaza)، لكن دون جدوى، في حين استولى أتباعه على كارتينا (cartenna) (تنس)⁴.

وبهذا تمكن فيرموس من السيطرة على المنطقة الشرقية من موريتانيا القيصرية، الأمر الذي أثار الهلع والخوف في صفوف الجيش الروماني، فسارع الإمبراطور فالنتيان الأول (Valentien I) (264م-375م) لإرسال الدوق ثيودوسيوس (Théodosius)* إلى إفريقيا للقضاء على فيرموس وحلفائه⁵.

¹-محمد الهادي حارش، ثورة فيرموس، المرجع السابق، ص 11.

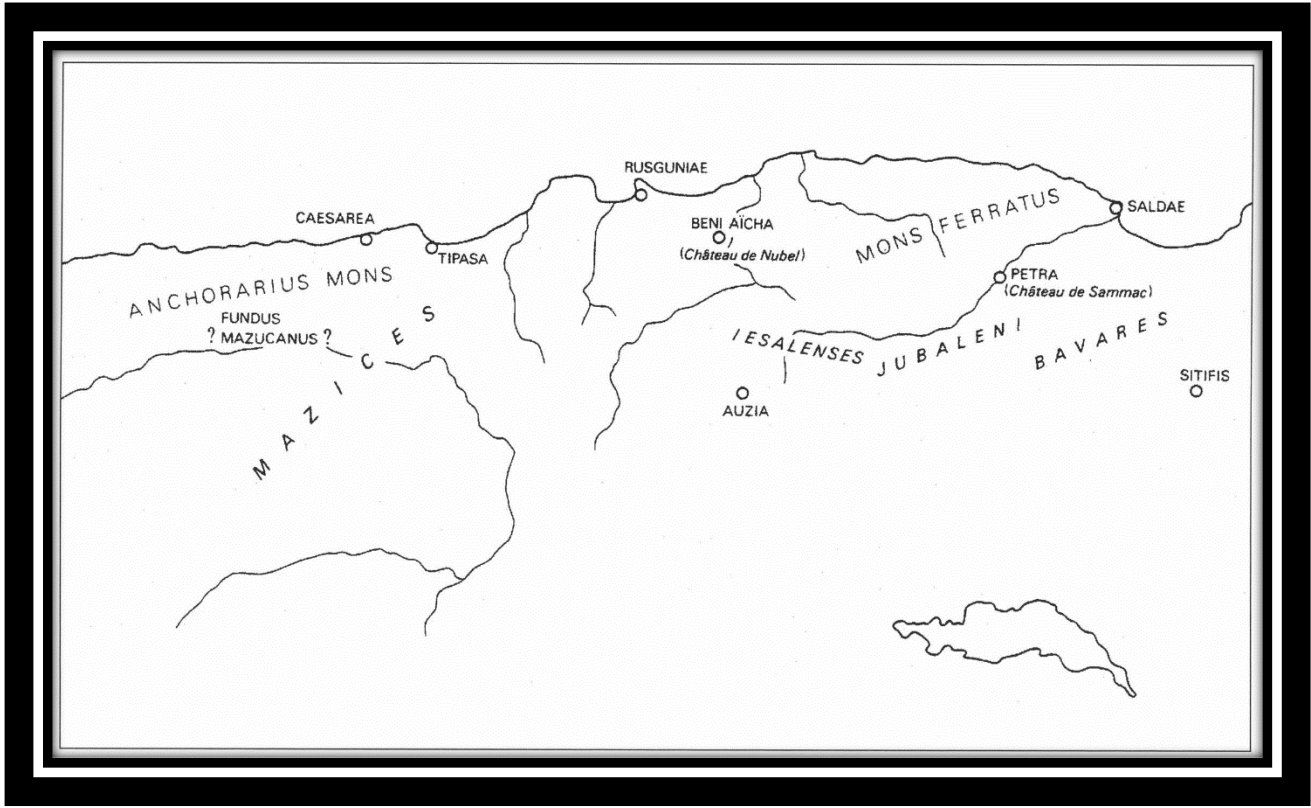
²-G. Camps, «Frmus»,encyclopédie berbère.Vol n° 19,1998,p4.

³-الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 632.

⁴- Decret,F.et Fantar,M.,Op.cit., p 335.

***ثيودوسيوس** سياسي روماني وقائد عسكري خلال القرن 4م، ولد في إسبانيا، اشتهر بحرب المؤامة الكبرى (367-368م) قاد جيش الفرسان في زمن الإمبراطور فالنتيان الأول، أعيد سنة 376م على يد غراتيان. للمزيد أنظر منصور خديجة، الدوناتية وثورات القرن الرابع في شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص 271.

⁵-Ibid.



خريطة رقم 8: مناطق نفوذ نوبل وأسرته

نقلا عن:

-G. Camps, «Frmus»., encyclopédie berbère. Vol n° 19,1998, p3.

بعد بلوغ ثيودوسيوس لميناء جيجل عام 372م، تلقى مساعدة من جيلدون Gildon شقيق فيرموس¹. وجهاز جيشًا خاصًا به، ودعا أعضاء مكاتب مختلف الحكومات المدنيّة والعسكرية للانخراط في الجيش الروماني، كما أجبر المندوبين القادرين على حمل السلاح للإلتحاق بهم، ليُشن حربًا ضدّ فيرموس والتي دامت مدّة ثلاث سنوات تراوحت بين الانتصار والهزيمة بين الطرفين المتصارعين.

أولاً: مراحل ثورة فيرموس:

لقد مرّت ثورة فيرموس بعدة مراحل والتي سندرجها على النحو التالي:

المرحلة الأولى: بعد نزول ثيودوسيوس في ميناء جيجل قام بعزل رومانوس من قيادة العمليات، وكلفه بحراسة الحدود المتاخمة لمقاطعة قيصرية، وفي نفس الوقت عين جيلدون شقيق فيرموس والقائد "ماكسيموس" (Maximus) لتولي مهمة إلقاء القبض على "فينيكنتيوس" (Vincentius)، بإعتباره شريك "رومانوس" في أعماله التعسفية، وتوجه بذلك إلى سيتيفيس (Sitifis) (سطيف) واتخذها قاعدة له بعدما احتلها².

ويظهر أن ثيودوسيوس كان متخوفاً في البداية، حيث أنه لم يتعود هو وجيشه على المناطق التي تكثُر فيها السلاسل الجبلية، والبحيرات والأحواض، خاصة تلك المناطق الواقعة بين سيتيفيس (سطيف) وإبول (شرشال) بين الأطلس الصغير والأطلس الكبير. وهذا ما جعل الملك فيرموس يختار هذا الموقع ليكون مسرحاً للحرب، والذي اعتمد فيها على تقنية حرب العصابات³.

¹-G. Camps., Op.cit., p 6.

²-منصوري خديجة، المرجع السابق، ص-ص 254-255.

³-نفس المرجع، ص 255.

إتجه بذلك ثيودوسيوس إلى مدينة ثوبوسيكوتو (Tubusuctu)* وتواجه هناك مع قبيلتي تيندن (Tyndenses)** وماسينسيسن (Masinssenses)*** والتي كانت تحت قيادة "ماكزيسيل" و "ديوس" أخوي فيرموس وتمكن بذلك من التغلب عليهم¹. (أنظر الخريطة رقم 9 صفحة 141).

وإتجه نحو تيبازة، ثم شرشال وصولاً لمنطقة القبائل ربما ضواحي قصر "كبوس" (قصر شبال)، وواد "سباعو" (Sibaou) إلى غاية سهل متيجة عن طريق الثنية بني عائشة².

وبعد أن أدرك فيرموس أن الوضع قد تغير، حاول التعامل مع ثيودوسيوس وطلب الصلح من خلال بعض الكهنة المسيحيين، واشترط ثيودوسيوس تقديم بعض الرهائن، وتمكن من استعادة إيكوزيوم (Icosium)، ثم ذهب ثيودوسيوس إلى قيصرية ووظف جحافله لرفع تلك المدينة من تحت الأنقاض، واستدعى جميع قواته إلى موقع قريب من سطيف، يُسمى "بانكريانا" (Panchriana)، ثم توجه نحو "توبوسوتو"، وبعد اصطدامه مع قبائل "تيندن" و"ماسينسيسن" احتلّ بذلك على حصن "لامفوكتونيس" (Oppidum Lamfektense)****³. وبالتالي يُحتمل أن تكون قرية من "بيترا" واستولى بذلك على الموارد الغذائية لتموين مخازنه⁴.

*ثوبوسيكوتو: هي مدينة تيكلات تبعد حوالي 15 كلم حوالي مدينة بجاية. أنظر الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 633.
 **تيندن: يتمركزون في إقليم أفناين (بني وجليس وأيث عامر)، محمد العربي عقون، المرجع السابق، ص 161.
 ***ماسينسيسن: هم اليوم قبيلة ماسنا أو إمسيسن، يتمركزون في الضفة اليمنى لوادي الساحل. أنظر المرجع السابق، ص 161.

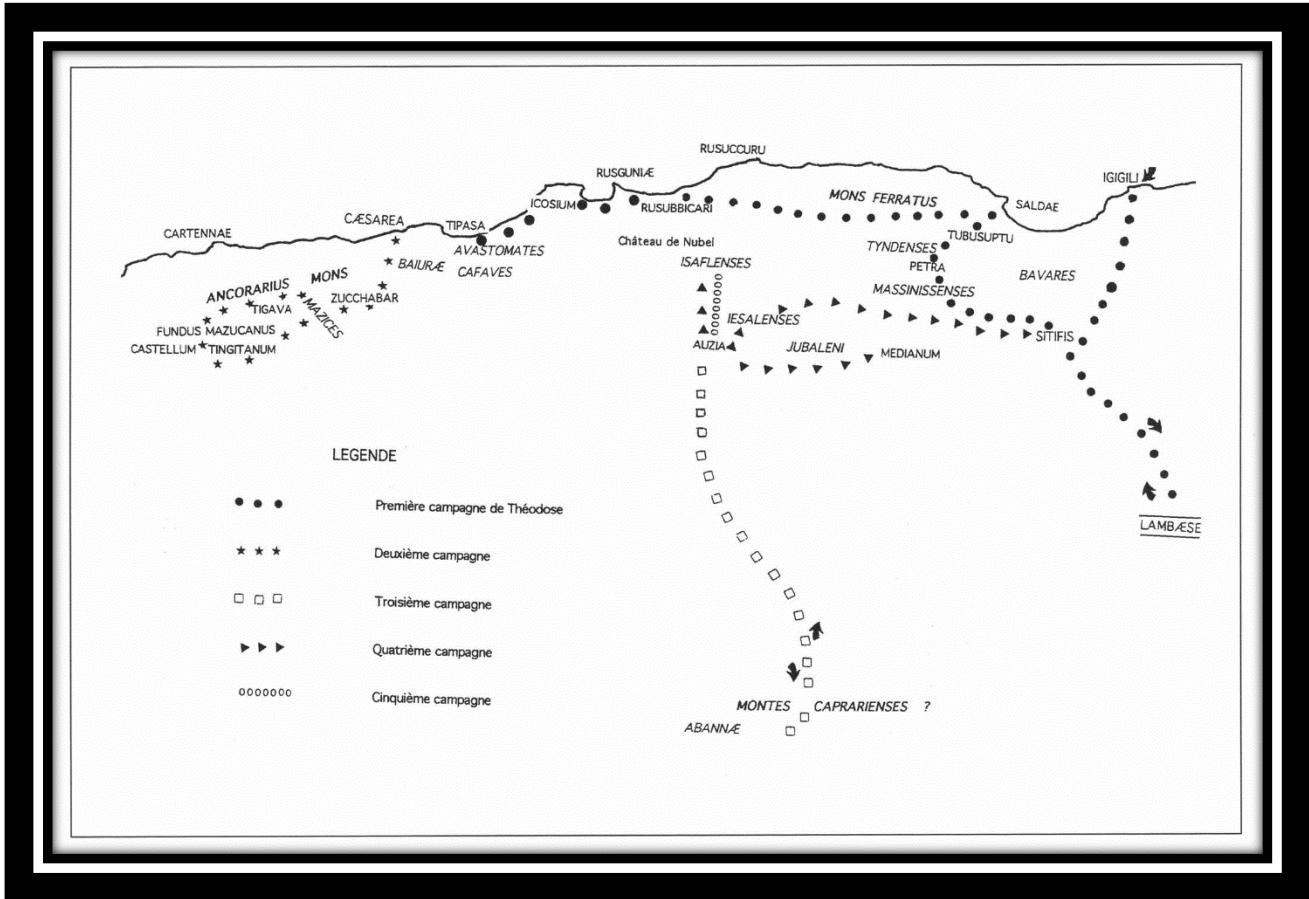
¹-منصوري خديجة، المرجع السابق، ص 255-256.

²-الربيع عولمي، المرجع السابق، 634.

****لامفوكتونيس: حاول تحديده بخرائب مسناوة عند قبائل بني وجلي على نهر غمنو قرب قرية بوملال. أنظر الربيع عولمي، المرجع السابق، 635.

³-Mercier (E.), Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbère), T1, Paris, Ernest Leroux, 1888, p 134.

⁴-منصوري خديجة، المرجع السابق، ص 256.



خريطة رقم 9: مواقع ومسارات القبائل التي سلكها ثيودوسيوس.

-G. Camps., Op.cit., p5.

نقلا عن:

المرحلة الثانية: في تلك الأثناء كان فيرموس يسعى لإثارة القبائل مرة أخرى¹، ولما علم ثيودوسيوس بالأمر توجه من قيصرية نحو بلدة "زوكابار" (Zuccabar) (مليانة حاليا) الواقعة في منتصف الطريق فوق جبل "ترانسليينسيس"² وأمر بإعدام فرسان الكتيبة الرابعة المُسلحين بالسهم وبعض المشاة من فيلق فلافيا وكاتريكس القسطنطينية (Flavia Victix) (Constantinia)، بسبب انضمامهم إلى قُوات فيرموس، وإعدام "بالانس" (Bellenes) وهو أحد قادة المعازيس، و"فريكيوس" (Fercius) الذي كانت روما عينته حاكما على هذه القبيلة بسبب تأييدها لفيرموس³.

انتقل ثيودوسيوس إلى "تيغافا" ثم إلى كاستولوم طنجيطانوم (الأصنام-الشاف حاليا)، حيث التقى بالمعازيس وقتل كل من لم يستطع الفرار منه، ثم هاجم قبائل "الموزون" (Musonus) وعند وصوله إلى "أدنييس" (Adnesse) (ضواحي مليانة) علم ثيودوسيوس أن تحالفا رهيبا كان يتشكل ضده من شعوب مختلفة في العادات واللغة، وأثارت العاصفة فيه بتحريضات ووعود من "كيريا" (Cyria) شقيقة فيرموس التي كانت لديها كنوز هائلة وأظهرت كل عناد جنسها في جهودها لدعم شقيقها⁴.

ثم فكر ثيودوسيوس في عدم تساوي الجيشين المتنافسين، بحيث أن جيشه يبلغ سوى 3500 جندي، وبهذا سوف يخاطر بخسارته وخسارة جيشه، فاضطر للتراجع إلى الورا بسبب اندفاع الجماهير التي كانت أمامه، وتمكن من إكتساب ملكية "مازوكا" دون التعدي عليه تحت أسوار تيبازة في فبراير سنة 374م⁵.

ويذكر أميان مارسلان أن ثيودوسيوس قضى فترة طويلة في تيبازة بالعمل في الخفاء لمحاولة كسب حلفاء فيرموس إلى طرفه، حيث قام بإغرائهم بالمال، وأحيانا أخرى بالتهديد

¹-Mercier (E.), Histoire de l'Afrique septentrionale, p 134.

²-Ammien (M.), Histoire de Rome livre XXIX, 5,20.

³-منصوري خديجة، المرجع السابق، ص 257.

⁴-Ammien (M.), Op.cit., 5, 28.

⁵-Ibid, 29,30.

وفي بعض الأحيان بالتسامح عن التجاوزات التي ارتكبوها سابقا، وهي تُشبه العملية التي استخدمها "بومبي" ضدّ (Mithridates) سابقا¹.

المرحلة الثالثة: عندما تخوف فيرموس من نجاح ثيودوسيوس في كسب تأييد بعض القبائل، تراجع وهرب إلى جبال "كابرايانسيس" (Montes Caprarienses)*، هذا الهروب الذي استغله الجيش الروماني حيث تمكن من خلاله على إحتلال معسكر فيرموس ونهبه. ثم واجه ثيودوسيوس بعد معركة خاضها ضد القبائل الإثيوبية المتواجدة بالمنطقة مما دفعه للتراجع².

لكنه لم يمض وقت طويل في إستئنافه للهجوم وتمكن من الإستيلاء على مدينة "كونتينسيس" (Contensis) التي كان قد إختارها فيرموس لإنشاء مستودع للسجناء وذلك لبُعد موقعها وصعوبة مقربتها، وطالب ثيودوسيوس من قبيلة "إسفلانسيس" (Iseflanses)** بتسليم فيرموس وبعد رفضهم أعلن الحرب على القبيلة، ووقعت بينهم حرب دامية، فقام ثيودوسيوس بكسر القبيلة³.

المرحلة الرابعة: تعرضت قبيلة "إسفلانسيس" (Iseflanses) إلى خسارة كبيرة، إلا أنّ فيرموس تمكن من الهروب بفضل سرعة حصانه الذي تدرب على الركض بين الصخور والمنحدرات، أما شقيقه "مازوكا" (Mazuca) تم أخذه بجروح قاتلة، وأرادوا إرساله إلى قيصرية، لكنه تمكن من الإنتحار بتوسيع جرحه بيديه، وعرض رأسه المنفصل على أنظار سُكان المدينة⁴.

¹-Ibid, 5, 33.

*كابرايانسيس: هي جبال مجاورة لبلاد قبيلة أيث عبان التي لجأ إليها فيرموس، وهي بعيدة عن ميدان العمليات العسكرية التي شهدتها نيبازة، وتقع بين شطّ الحضنة والصحراء. أنظر الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 639.

²-منصوري خديجة، المرجع السابق، ص 258.

**إسفلانسيس: يرجح البعض أنها أسلاف قبائل فليسة. للمزيد أنظر: محمد العربي عقون، المرجع السابق، ص 161.

³-Ammien (M.), Histoire de Rome livre XXIX, 5, 39,40.

⁴-Ibid, 5, 42.

حاول ثيودوسيوس محاربة قبائل "اليوباليني" (Jubaleni)* ، إلا أن طبيعة المنطقة الجبلية منعتهم من الدخول في مغامرة ليست لصالحه، وإضطر للعودة إلى "أوديانس" (Castalum Audiense)** ، حيث قدمت له القبائل "إسالينسيس" (Isalenses) فرض الطاعة وزوّدت القوات الرومانية بالمؤن وبعض الفِرَق العسكرية، ثم اكتشف القائد الروماني بعد إقامة قصيرة بقلعة "ماديانوم" (Monimantum Medianum)*** عودة فيرموس إلى قبائل "إسفلانيسيس" وواجه "إغمازن" (Ighemazen) المُعين من طرف روما ملكا على هذه القبائل على رأس 20 ألف رجل وهزمه. ثم عاد إلى "ديوديانس" (Castalum Diodiense) (ضواحي سور الغزلان) ثم عاد إلى سطيف¹. (أنظر الخريطة رقم 10 صفحة 145).

المرحلة الخامسة: بعد عودة ثيودوسيوس إلى سطيف مرورا "بأوبيدوم" ليستأنف الحرب ضد "إسفلانيسيس"، وبعد انهزام هذه القبائل ونظرا لحرص ملكها إغمازن على سلامة حياته ومُلكه تحالف مع ثيودوسيوس، وساعده في محاولة القبض على فيرموس، حيث طلب من القائد الروماني تكثيف هجومه ضدّ أفراد قبيلته مقابل أن يترك له حرية التصرف².

اشتدت المعركة التي كانت قائمة بين الجيشين، فحاول فيرموس الفرار لكن تمكن إغمازن من القبض عليه، وهذا ما دفع بفيرموس للانتحار. وحُرم إغمازن من شرف تسليمه حيًا لثيودوسيوس الذي بعد أن تأكد من جثة فيرموس عاد إلى سطيف³.

*اليوباليني: تسكن جبال الأطلس إلى الجنوب من التيطري، يقرب المصطلح باللغة العربية "جبلين" Djebalin على خلاف بعض المؤرخين الذين يرون أن موطن هذه القبائل غير بعيدة عن أوزيا في منطقة تمتد من باب الحديد إلى مضائق "بالسترو" (Palestro) الأخرسية. أنظر الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 641.

**أوديانس: هو الحصن الذي ذكره أميانوس يتطابق مع قلعة لا زالت آثارها إلى القرن الماضي قُرب عين بسام، وأوزيا Auzia تكون قد تهدمت على إثر ثورة سنة 297. ومنذ تلك الفترة لم تُصبح مركزا لليمس الأوزياني (Limes Auziensis). أنظر نفس المرجع، ص 641.

***قلعة ماديانوم: هي برج مجانية حاليا في منطقة "برج بوغرييريج". للمزيد أنظر نفس المرجع، ص 641.

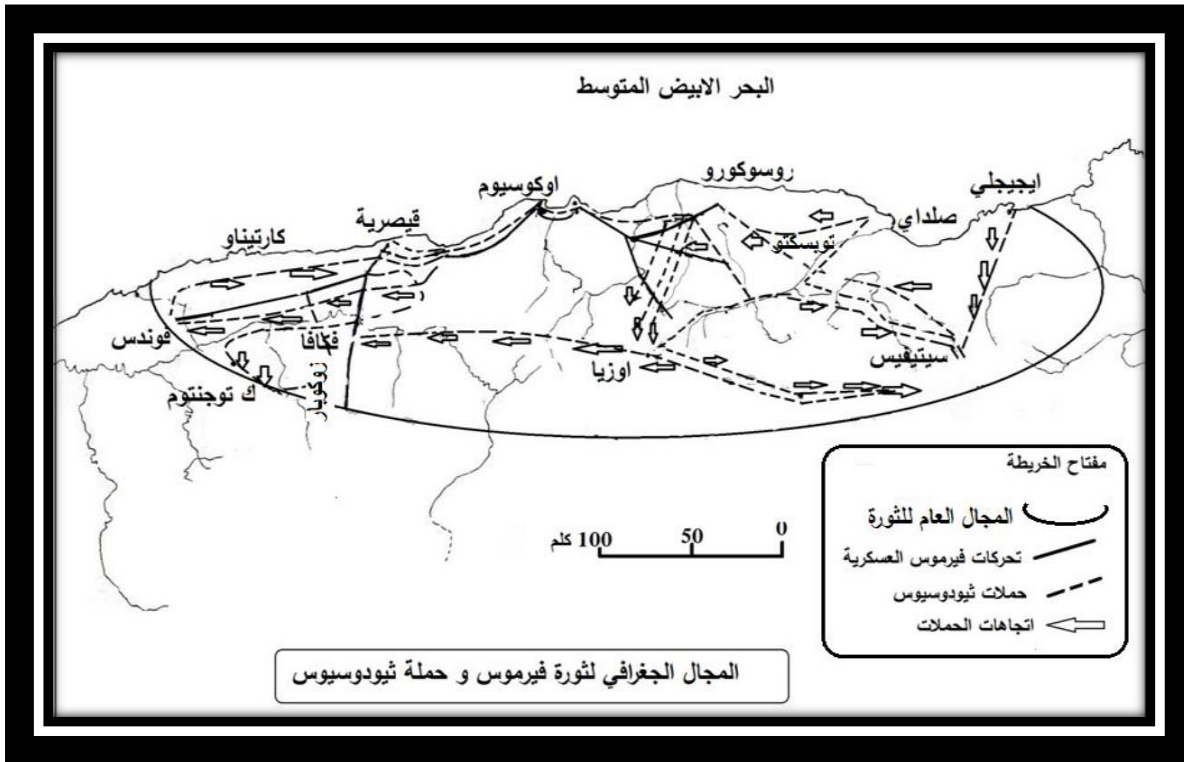
¹-منصوري خديجة، المرجع السابق، 258-259.

²-نفس المرجع، ص 259.

³-نفس المرجع ص 259.

نستنتج في الأخير أن ثورة فيرموس قد مسّت أراضي واسعة، بحيث امتدت من التلّ الوهراني غربا إلى سطيف (نوميديا) شرقا، مرورا بموريتانيا القيصرية وحوض الشلف، وجبال الونشريس ومنطقة القبائل، وبلغت الصحراء ومنطقة الحضنة.

وإن دلّ هذا على شيء؛ فهو يدلّ على التلاخّم الإجتماعي بين مختلف القبائل التي ساهمت في هذه الثورة، بحيث أن الثّوار الريفيين (Circoncellions) شكلوا سندا قويا وملحوظا لثورة فيرموس.



خريطة رقم 10: المجال الجغرافي لثورة فيرموس و حملة ثيودوسيوس.

نقلا عن: عمران عبد الحميد، الديانة المسيحية في المغرب القديم-النشأة والتطور- (180-430 م)، المرجع السابق، ص

ثانياً: ارتباط ثورة فيرموس بثورة الريفيين:

عرفت إفريقيا خلال فترة ثورة فيرموس اضطرابات مسّت كل المنطقة تقريباً، بحيث تمكنت من تهديد أهم الأقاليم الرومانية، خاصة وأن إفريقيا كانت المُمون الرئيسي لها بالقمح إلى جانب مصر، فتمكن فيرموس أن يكسب في وقتٍ قصير ثقة الأهالي¹. ولم يُعلن فيرموس الحرب ضدّ الرومان إلاّ بعد أن تلقى الدعم منهم، علماً أنهم كانوا ينتظرون الفرصة اللازمة للتخلّص من الاضطهاد المُسلّط عليهم من طرف السُلطة الرومانية، فإنضمّ إليه بذلك كل من الدوارون والدوناتيون وقدموا له الدعم اللازم للتخلّص من عبودية واضطهاد الرومان².

ولعل الدافع الكبير الذي شجّع القبائل على الالتفاف حوله وتأمّلهم في إقتراب ساعة الخلاص النهائي من السيطرة الرومانية³.

لقد جاءت هذه الثورة في الفترة التي شهدت إحتقان كبير بين السُلطة الرومانية والإنشقاق الذي مسّ الكنيسة، فإختارت السُلطة بالإنحياز إلى الكنيسة الكاثوليكية، أما الدوناتية فقد عانت من أشدّ العقوبات التي أُحقت بها⁴. فتحالفوا مع فيرموس لهذا الغرض، كما تحالف فيرموس معهم، حيث أن طموحاته الإستقلالية كانت ذات طابع إنتقامي اشتركت مع طموحات الدوناتية الدينية والسياسية وكذا طموحات الدوارين الإجتماعية ضدّ عدوٍ مشترك، وهو السُلطة الرومانية، فتمّت بذلك تسميتهم (بالفيرمانيين) بمعنى رجال فيرموس.

حيث رأى فيرموس في الدوناتية وأتباعها الريفيين مُعيناً بشريا، وجنّد منهم جيشاً كان بأشدّ الحاجة إليه، كما هو حال أسقف مدينة روسوبيكاري الدوناتية الذي عبّد الطريق

¹-زموري خديجة، القديس أغسطين بين السلطة الرومانية والمجتمع المحلي، المرجع السابق، ص 168.

²-أويحي سعيدة، الديانة المسيحية في المغرب القديم من نهاية القرن الثاني ميلادي إلى بداية القرن الخامس ميلادي (180-

411م)، المرجع السابق، ص 233.

³-زموري خديجة، المرجع السابق، ص 168.

⁴-نفسه.

لفيرموس، فتمكن هذا الأخير من الإستيلاء على مدينة ساحلية تابعة له، ورأوا فيه القائد العسكري الذي ينشدونه¹.

تطلب القضاء على ثورة فيرموس سنّ خمس حملات عسكرية ضدها، والتي قادها القائد ثيودوسيوس بأمر من الإمبراطور فالنتيان، وبعد تلك الحملة الشرسة والتي تضمّنت حرق الممتلكات وبيع الأسر للمرتزقة وأسّر النساء بهدف عزل الأهالي عن الثورة، وبهذه السياسة تحققت رغبة روما من القضاء على ثورة فيرموس، بعد أن نقل ثورته إلى الونشريس و زكار والبليدة بعدما فقد كل ممتلكاته².

نتيجة لذلك دفع الدوناتيون والدوارون ثمناً باهضاً لتورطهم في هذه القضية³، حيث فقدوا سندا قويا ومعبراً حقيقياً عن طموحاتهم التحريرية حيث لأن الإمبراطور فالنتيان الأول بإصدار قانون في خضم المواجهات العسكرية بين فيرموس و ثيودوسيوس وذلك في 20 فيفري 373م موجهاً إلى بروقنصل إفريقيا يوليانيوس (Julianus) ينصّ على منع و تحريم إعادة التعميد التي يمارسها الدوناتيون، ويأمر بعزل أي أسقف يُخالف القانون.

وبعد وفاة الإمبراطور فالنتيان الأول خلفه ابنه غراتيانوس (Gratianus)* وهو في سنّ الثماني سنوات، وواصل سياسة والده بصرامة أكثر، فأصدر مرسوماً بدوره في 22 أفريل سنة 376م ينصّ على مصادرة الأماكن التي تُعقد فيها إجتماعات المنشقين الدوناتيين، كما أصدر عقوبات صارمة على كل من يتساهل معهم.

كما وجّه مرسوماً آخر لكاهن إفريقيا نيكوماكوس فلافيوس (Nicomachus Flavuis) في 17 أكتوبر سنة 377م، يؤكد فيه قرارات القانون السابق التي نصّت على منع إعادة التعميد ومنح كنائس الأساقفة المنشقين المتهمين بإعادة التعميد إلى الكاثوليك مع مصادرة منازلهم وممتلكاتهم.

¹-محمد البشير شني، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني ج2، المرجع السابق، ص 361.

²-زموري خديجة، المرجع السابق، ص 169.

³- Decret.F.et Fantar. M., Op.cit., p 337.

*غراتيانوس(367-383م): ابن الإمبراطور فالنتيانوس الأول، عُرف بحربه ضدّ فيرموس. للمزيد أنظر: ربيع عولمي، المرجع السابق، ص 650.

وبهذا تمكن ثيودوسيوس من تفكيك تحالف القبائل المورية ولو لفترة قصيرة، وكرست سياسة (فرق تسد) من خلال خيانة إيغمازن (Ighemmazen) وإضعاف حيوية الحركة الدوناتية وحركة الدوارين¹.

نستنتج مما سبق أن ثورة فيرموس كانت ثورة قومية تحريرية ذات أبعاد سياسية إقتصادية وإجتماعية ودينية، حيث كان هدفها تحرير سكان المنطقة من الإستعمار الروماني واستعادة أراضيهم وممتلكاتهم. كما نلاحظ أن هذه الثورة كانت ذات أهداف مشتركة مع ثورة الدوارين وهو ردّ الاعتبار لسكان المنطقة الذين جردوا من حقوقهم.

¹-ربيع عولمي، المرجع السابق، ص-ص 644_646.

المبحث الثالث: ثورة جيلدون (الإطار التاريخي)أولاً: شخصية جيلدون:

بعدما أُخمدت ثورة فيرموس، عرفت منطقة شمال إفريقيا فترة من الهدوء والاستقرار، وذلك نتيجة لتحالف جيلدون مع الإمبراطور ثيودوسيوس ضد فيرموس، إلا أن السلطة الرومانية كانت متخوفة من أن تنثور القبائل المحلية ضدها، لذا رأت أنه من الضروري أن تسيطر على الوضع، فقررت تعيين شخصية من أصل إفريقي محلي، فوجدت في جيلدون (Gildon) الشخصية المناسبة التي كانت تبحث عنها.

جيلدون الذي هو أحد أبناء نوبل (Nubel)، وُلد على الأرجح سنة 340م وهو من أقوى حكام الأمم المغاربية وبشكل أكثر تحديد من اليوباليني (Jubaleni) في موريتانيا القيصرية ربما في البيبان (Bipans)، ويُعدّ اسم جيلدون من أصل بربري وأميري، وهو نُطق لكلمة (GLD) التي عُثر عليها في النقوش الليبية والتي تعني كلمة (Aguellid) أي "الرئيس" أو "الملك"¹.

وُلد جيلدون في بيئة على الرُغم من أنها مغاربية إلا أنها كانت مُترومنة، ونظراً لمكانته المرموقة، و نتيجة للخدمات التي قدمها لروما؛ كفاثته بتعيينه كونت على إفريقيا وقائداً لفرقتين من الميليشيات (Comes et mgister utriusque militae)² برتبة الدوق، كما أشار إلى ذلك القرار الصادر في 30 ديسمبر 393م، وقد عُين قبل هذا التاريخ سنة 387م وبقي دوقاً لإفريقيا لمدة عشر سنوات أو أكثر، واستقرّ بقرطاج إلى جانب البروقنصل بروبنيوس (Probinus)، كما أنه كانت تربطه علاقة جيدة مع روما و ذلك إلى غاية سنة 394م.

لقد تميز الوضع في روما في الفترة الموازية لثورة فيرموس بالإضطرابات والصراع والضُعف الشديد، ولم تكن بمقدورها التوسُّع والسيطرة³. حيث يظهر لنا من خلال رواية

¹-Modéran (Y.), « Gildon », Encyclopédie berbère, 1 Octobre 1998, p1.

²-Ibid.

³-عمران عبد الحميد، الديانة المسيحية في المغرب القديم النشأة والتطور، المرجع السابق، ص 276.

كلوديان * (Claudien) أن روما كانت قد أصابها الكثير من المصائب؛ كإنتشار المجاعة وتفشي العدوى والأوبئة، بالإضافة إلى الفيضانات التي أحدثها نهر التيبير (Tibre)¹.

ونتيجة لهذه الأوضاع إعتدت روما على منطقة بلاد المغرب القديم التي كانت تملأ لها خزانها، حيث أصبح مصير روما مرتبطاً بمواسم الحصاد والرياح²، ومع نهاية خريف سنة 397م توقف جيلدون عن تموين روما.

قبل وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس سنة 395م قام بتقسيم السلطنة الإمبراطورية إلى قسمين على ولديه؛ حيث قدم الجزء الغربي لهونوريوس (Honorius)** وهو في عمر العشر سنوات ونصف، أما النصف الشرقي أنسبه إلى أركاديوس (Arcadius) الذي كان يبلغ ثماني سنوات، ليكون بذلك أول أباطرة الشرق الذي حكم بين 395م و408م، حيث أشركه والده في الحكم منذ أن بلغ ستة سنوات من عمره وذلك سنة 383م.

أما هونوريوس فقد كان تحت رعاية ستيليكون (Stilichon)***، وعلى غرار هذا الانقسام تزعت أركان الإمبراطورية، خاصة بعد أن أعلن جيلدون تبعية إفريقيا إلى سلطنة أركاديوس (Arcadius)، وقطع صلته بالإمبراطور هونوريوس الذي كان يهدف إلى إستغلال التنافس الموجود بسن الأخوين من أجل الإستمرار في السلطنة³.

*كلوديان أو كلوديانوس: شاعر لاتيني وُلد حوالي 365م بالإسكندرية بمصر، إنتقل إلى إيطاليا في سنر مُبكر ثم ارتبط بالسليكون Cilicones (وهو الوزير الأول في عهد الإمبراطور هونوريوس)، وكان من المقربين لديه، ونظرًا لمكانته أقام له مُعاصروه تمثالاً يحمل نقشًا في فروم تراجان بروما، توفي في منتصف القرن الخامس ميلادي. للمزيد أنظر ربيع عولمي، المرجع السابق، ص 649.

¹-Claudien, La guerre contre Gildon., trad par M. Nisard, Pris 1837, 1.

²-Ibid., V 50.

**هونوريوس: هو الابن الثاني لثيودوسيوس الذي ترفي وهو بعمر الست سنوات، تقاسم الإمبراطورية مع شقيقه أركاديوس، وحكم كإمبراطور الغرب تحت وصاية ستيليكون، توفي سنة 408م وهو بسن الثامنة والعشرين. للمزيد أنظر: عمران عبد الحميد، المرجع السابق، ص 277.

***ستيليكون: هو القائد المفضل للإمبراطور ثيودوسيوس، من أصل وندالي، تزوج من سيرينا ابنة أخ الإمبراطور قبل وفاته سنة 395م، ثم صار وصيا على هونوريوس. للمزيد أنظر: عمران عبد الحميد، المرجع السابق، ص 277.

³-عمران عبد الحميد، المرجع السابق، ص 277.

ثانياً: أسباب ثورة جيلدون:

بقي جيلدون لفترة محافظاً على ولائه للإمبراطور نظراً للدعم الذي كان يتلقاه من الرومان، فكان يُنظرُ إليه من قِبَل أهله وقبائل المور على أنه خائن، وأدرك ما حدث لشقيقه فيرموس، لذا رأى أنه من الضروري إصلاح ما قام به، فكانت أولى خطواته التي أقدم عليها هي تنكُّره للديانة الرسمية للرومان والمتمثلة في عبادة الإمبراطور¹.

بالإضافة إلى رفضه لطلب الإمبراطور ثيودوسيوس سنة 392م بمَدّه بالمساعدات والمحاربتين في حربه ضدَّ أعدوه الوثنيي يوجين².

وتُعَدُّ هذه الحادثة أولى حالات رَفْض جيلدون للسلطة الرومانية، ومع نهاية القرن الرابع ميلاد بدأت الاضطرابات التي ضربت الإمبراطورية الرومانية ليبدأ معها الانهيار³.

بحلول عام 395م قام جيلدون بتحديد مقدار مساعدات الحبوب التي كانت تصل لروما من شمال إفريقيا، والحدّ من خدمة الأئونة (الضريبة السنوية عن المحاصيل الزراعية) قبل أن يقطعها تماماً في خريف العام التالي⁴.

وتثبتت هذه الحركة الاقتصادية ما ذكره الشاعر كلوديان (Claudien) في كتابه (La guerre contre Gildon) بقوله: «هذا المورد الذي سرقه جيلدون مني عندما اقترب الخريف من نهايته: اليوم بعيونٍ خجولة، أقيسُ الأمواج، وأبحث عما إذا كانت هناك سفينة على سطحها، أو إذا منح الطاغية بدافع التواضع، اللُصوص بسبب النسيان، بعض المساعدة التي أتلقاها من المور، ليس كإشادة ولكن كمساعدة، يسعدُ كلَّ صباح أن يُعطيني مثل عبده، طعامي الذي يَزِنه بأبهة مهينة، يستمتع بدموع شعبي يُعَلِق لحظة خروجي، ويبيع لي محاصيلي...»⁵.

¹- أبو بكر سرحان، المرجع السابق، ص 52.

²- Decret, F. et Fantar, M., Op. cit., p 339.

³- عمران عبد الحميد، المرجع السابق، ص 278.

⁴- Decret, F. et Fantar, M., Op. cit., p 339.

⁵- Claudien., V 58-73.

تحدّى جيلدون للمراسيم الإمبراطورية، وأصبح بذلك المُعلن الحامي للدوناتية وأتباعها الدوارين، وفي الوقت نفسه جمع ثروة هائلة لدرجة أنه قرّر إنشاء إدارة خاصة به¹، حيث كان القائد الذي تُحيط به فيالق المُشاة و فرّق الخيالة، فقام بعقد تحالفات مع شيوخ القبائل و قدّم لهم الأموال، فصارت قوته الضاربة².

بوفاة ثيودوسيوس انقسمت الإمبراطورية إلى قسمين، وقطع جيلدون كلّ صلّاته بهونوريوس (Honorius) إمبراطور الغرب، وأحال إفريقيا إلى سُلطة أركاديوس (Arcadius) إمبراطور الشرق، فتعذّرت عليه مراقبته لإفريقيا نظراً لبُعد المسافة وذلك سنة 395م³.

تفطن جيلدون بعد ذلك إلى القحط الذي كانت تعاني منه روما، بإعتبار أن القمح كان كمادّة أساسية لها، فقرّر إستغلاله كسلاح ضدّها.

أثارت الخطوات التي أقدم عليها جيلدون غضب مجلس الشيوخ الروماني، لذا عملت على ضرب الأهل ببعضهم البعض، فلجأت إلى القائد الموري ماكزيسيل (Macszel)* الذي إستجاب لطلب الرومان فوراً ووضع نفسه في خدمتهم و أُقْب بقائد الجيوش الرومانية، فإنتقل ماكزيسيل من قرطاجة بإتجاه موريتانيا للإحاطة بجيلدون، إلا أن هذا الأخير هُزم بعد مواجهات عديدة، وذلك بموقع أميادارا (Ammeadara)(وهي حيدرة حالياً بالجزائر)، فحاول الفرار عن طريق البحر، لكنه نم القبض عليه ووُضِع في السجن ليُشنق بعد ذلك⁴. (أنظر الخريطة رقم 11 صفحة 153).

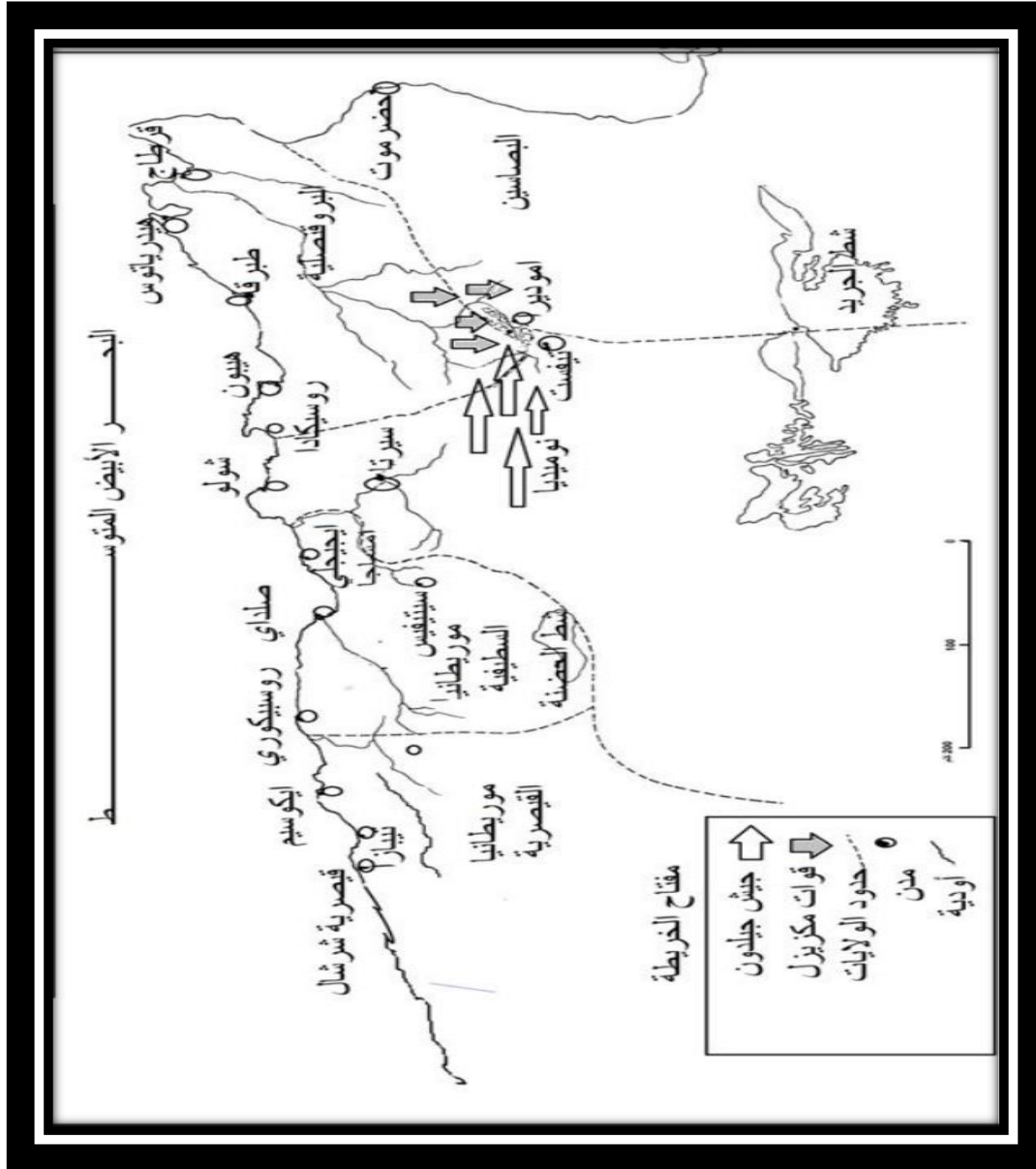
¹-Decret,F.et Fantar,M.,Op.cit., p 339.

²-عمران عبد الحميد، المرجع السابق، ص 279.

³-شارل أندري جوليان، تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص 306.

*ماكزيسيل: من بين أبناء نوبل السبعة. للمزيد أنظر الربيع علمي، المرجع السابق ص 624.

⁴-أبو بكر سرحان، المرجع السابق، ص 54.



خريطة رقم 11: موقع المعركة الفاصلة بين جيش جيلدون وقوات ماكزيسيل.

نقلا عن: -عمران عبد الحميد، المرجع السابق، ص 283.

المبحث الرابع: ثورة جيلدون وعلاقتها بثورة الريفيين:

يظهر لنا أن جيلدون لم ينطلق على مبادئ دينية، علماً أنه كان وثنيًا، إلا أنه وقف إلى جانب أسقف تاموغادي أوبطاطوس في حربه ضد الرومان، الذي كان مستشارًا له وأعطاه قوة كبيرة في القيادة، لدرجة أنه لُقِبَ بالجيلدوني، حيث إن هذا الأخير قام بدعوة الدوناتيين إلى تنظيم فرقٍ مُحاربةٍ إلى جانب الدوارين بغرض مساعدة جيلدون¹. إذ كان هذا الأخير يعتمد على دعم الدوناتيين لتعزيز الجيش الإفريقي تحت قيادته².

كما أن مساندة هؤلاء له لم يكن ذا مُنطلقٍ ديني، بل كان لردِّ الحيف والظلم. ووجد فيهم تطلعات تناسب سياسة مشروعه لمقاومة روما التي عملت على استنزاف ثروات المنطقة، فتوحّد الهدف والمسعى في ثورة شاملة عديدة الأطراف، ضمّت الأمير والقائد الحربي جيلدون، كما ضمّت القبائل المتحالفة، والقوة الدينية الدوناتية بالإضافة إلى الطبقة العامة من الدوارين.

فقام جيلدون بمكافأة الدوناتيين و أتباعها الدوارين بتوقيف متابعة الدولة لهم، و همّش المراسيم القاسية التي أُصدرت في حقهم، وقام بمنع الجيش من تنفيذ تلك المراسيم والقرارات، ومنح للدوناتيين تفضيلاً عن خصومهم الماكسيميانيين (الفرقة المنشقة من الدوناتيين)³.

نلاحظ إذاً أن ثورتي فيرموس وجيلدون كانت من الثورات التي ميّزت القرن الرابع ميلادي، حيث تحولت من ثورات اجتماعية إلى حركات ذات مطالب تحريرية دينية، خاصة بعد تحالفها مع الدوناتية وثورة الريفيين، وذلك لمواجهة الكنيسة الرسمية والسلطة الرومانية⁴.

¹- عمران عبد الحميد، المرجع السابق، ص 279.

²-Warmington (B.H.), The North African provinces from Diocletian to the Vandal conquest, Cambridge, London, 1954,p 97.

³-عمران عبد الحميد، المرجع السابق، ص280. فيما يخص مصطلح الماكسيميانيين، أنظر: صفحة 118.

⁴-ربيع عولمي، المرجع السابق، ص 660.

إلا أن روما تمكنت من التصدي لثورتي هذين الأخوين ومواجهتهما، خاصة وأنها كانت تحسن تأليب زعماء القبائل وإثارتهم على بعضهم البعض. فوجهت بذلك ضربة قاضية للدوناتية وثورة الريفيين فقللت من نشاطهما، وتمكنت من السيطرة على الوضع.

الخاتمة

في الأخير تمكننا من التوصل إلى بعض النتائج التي سوف نختم بها موضوعنا والتي نوجزها فيما يلي:

• لقد تمكنت الديانة المسيحية من الدخول إلى بلاد المغرب القديم عن طريق أساليب مختلفة (عن طريق الحواريين أو عن طريق الرومان عبر بعثاتهم التبشيرية أو عن طريق التجار).

• ساعدت مجموعة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والدينية على توغل الديانة المسيحية في بلاد المغرب القديم بالرغم من المصاعب التي اعترضت طريقها عرقلت مسيرتها، إلا أنها لقيت إقبالا واسعا من طرف سكان المنطقة خاصة الطبقات البسيطة من فلاحين وعبيد، حيث وجدوا في هذا الدين الجديد الراحة النفسية والإطمئنان الروحي، إذ أنها أعادت الاعتبار ورفعت من شأن النفس البشرية في رسالتها التبشيرية.

• لم تعترف الديانة المسيحية بعبادة الأوثان ولا حتى تأليه الإمبراطور، مما أثار غضب السلطة من هذا الدين وسخطها عليه، بينما تسارع سكان المنطقة إلى الدخول في هذا الدين فتزايد بذلك عدد معتققيها تدريجياً. فتوسعت الهوة ونشبت صراعات بين الفئات الاجتماعية من أغنياء وفقراء نتيجة السياسة المنتهجة من طرف السلطة التي قامت باحتكار جميع مصادر الثروة في أيادي الطبقات الثرية والملاك المتحالفين معها على حساب السكان البسطاء في المدن والأرياف وذلك في القرنين الثاني والثالث للميلاد.

• نتج عن إنتشار الديانة المسيحية سلسلة من الإضطهادات التي بدأت من عهد "الإمبراطور نيرون" وتليه اضطهادات الإمبراطور ديوكلسيانوس (Diocletianus)(303-305م) ومن بين أسباب هذه الاضطهادات عدم قبول المسيحيين المُجندين بالقيام بالخدمة العسكرية نظراً لمبادئها السامية التي تتدبُ بعدم قتل الروح البشرية فقام هذا الأخير بتدمير الكنائس وحرق الكُتُب المُقدسة، فتواصلت هذه الإضطهادات من قِبَل الأباطرة الذين توالوا من بعده.

• تم الاعتراف بالديانة المسيحية كديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية بعد تولي قسطنطين الحُكم، فعرفت المنطقة فترة من الهدوء والتسامح الديني مما أدى إلى تلاحُم مُعتققي هذا الدين فيما بينهم، الشيء الذي لم يدُم طويلاً.

• حاول الإمبراطور قسطنطين سنة بعد إقراره بالديانة المسيحية في الإمبراطورية الرومانية خلال مرسوم ميلانو 313م لحلّ أزمة الإنشقاق بين الطرفين، إلا أنه مال إلى طرف الكاثوليك وسعى للتحكّم في القرارات وتوجيه النشاطات الدينية لخدمة السُلطة الرومانية، الأمر الذي أدى إلى تفاقم الأزمة بين الطرفين بحيث جعل من الكنيسة الكاثوليكية حليفةً للسُلطة.

• كان السبب الرئيسي لظهور الإنشقاق داخل الكنيسة الإفريقية في بداية القرن الرابع عندما عُقد مجمع قرطاج سنة 312م لانتخاب أسقف جديد بعد وفاة مونصورْيوس (Monsorius) فأعلن هذا المجمع عدم شرعية انتخاب كايكيلْيَانوس (Caecilianus) خليفةً لمونصورْيوس الذي إنهم بتسليم الكتب المقدسة في فترة اضطهادات ديوكلسْيَانوس، فحدث إنشقاق داخل الكنيسة، فأصبحت الكنيسة الكاثوليكية تُلقب من طرف الدوناتيين "بحزب كايكيلْيَانوس".

• بعد وفاة دوناتوس الأكبر إستلم مكانه بارمينْيَانوس (Parmenianus) الذي أصبح كبير الأساقفة الدوناتيين سنة 355م، فتمكن من إعادة ولم شمل الحركة الدوناتية.

• سنّت السُلطة الرومانية مجموعة من العقوبات على الكنيسة المُنشقة وكذلك على الدوارين بغرامة مالية تُقدّر بـ 10 أرتال من الفضة حسب ما نصّ عليه قانون "هونوريوس"، كما تعرض كل من الأساقفة ورجال الدين للنفي ودفع غرامات مالية، أما بالنسبة للعبيد والفلاحين فقد لقوا حتفهم من طرف أسيادهم ومُلاكهم.

• ظهرت حركة إجتماعية سنة 305م عُرفت بإسم حركة ثورة الريفيين نتيجة لعدّة عوامل دينية وإجتماعية وإقتصادية، نظرًا لشدة الإضطهادات وسوء معاملتهم وكذا إنتشار الفقر والبؤس والشقاء في المجتمع، حيث كانت هذه الحركة تسعى إلى مساندة الطبقات الفقيرة وكانت تهاجم المُلاك الكبار الذين كانوا يمنحون القروض الربوية لتلك الطبقات الكادحة.

• تمكنت هذه الطبقة من تنظيم نفسها خلال القرن الرابع في حركة إجتماعية مطلّبية حقيقية، حيث ضمّت جمهوراً واسعاً من فلاحين وعمال ريفيين أحرار في نوميديا، بهدف إصلاح الوضع وتطبيق العدالة الإجتماعية، ثائرين ضدّ المُلاك الذين اعتبروهم مسؤولين عن تَردي وضعهم، فأصبحوا يُناضلون للحدّ من قساوة وضعهم.

- شكّلت حركة الدوارين إمتداداً للثورات السابقة التي قام بها الأهالي ضدّ الرومان منذ بداية الإحتلال، فهي تعتبر إستمرارية لحركة المقاومة ضدّ الوجود الأجنبي.
- إستخلص الدوارين مبادئهم من المسيحية في أصولها الأولى، حيث أنها كانت تنادي للمساواة بين المؤمنين، ولهذا لُقّبوا الدوارين بزعماء القديسين؛ اللقب الذي كان شائعاً بين الدوناتيين.
- ارتبطت ظاهرة الإستشهاد عند الدوارين بظاهرة عادة تبجيل الشهداء وتقديس رفاتهم، وإقامة أضرحة لهم في الكنائس، بحيث أنهم إعتبروا شهدائهم قوةً لهم ولأتباع المسيحية، فأصبحوا يقومون ويُطالَبون بالإستشهاد.
- إنّ حركة الدوارين كانت حركة ذات أهداف ومبادئٍ مستقلة رَغْم تحالفها مع الكنيسة الدوناتية خصوصاً قبل سنة 347م حيث إتسمت بنوعٍ من الإستقلالية.
- ظهر تنكّر الدوناتيين للدوارين وأعمالهم في بعض المواقف، ويظهر ذلك خلال الصراع الدوناتى الكاثوليكي حول مسألة التعميد، حيث كانت صحّة التعميد مرتبطة بقداسة المُعمّد، فكان الكاثوليك يرون أن أوبط الجيلدونى والدوارين لا يملكون صفة القداسة بسبب ارتكابهم للجرائم، ولهذا كان الدوناتيين يستكفون ويتنكرون من تصرفات الدوارين.
- تُعدّ أحداث باغاي سنة 347م منعرجاً حاسماً في تطوّر مجريات الأمور في إفريقيا، حيث شهدت تحالفاً بين الدوارين والدوناتية، وهذا بعد إرسال المفوضين الإمبراطوريين من طرف قنسطانس لتحقيق الوحدة، فتعرّض لهم الدوناتيين وقطعوا الطريق عنهم بمساندةٍ من الدوارين فحدث صراعٌ بين الطرفين.
- بحلول سنة 372م ظهرت ثورات جديدة والمتمثلة في ثورة فيرموس وبعده جيلدون، التي ساندتها الدوارين والدوناتيين لمواجهة السلّطة الرومانية المُتحالفة مع الكنيسة الكاثوليكية بهدف إنهاء الوجود الرومانى في المنطقة.
- نجح رومانوس من التفريق بين أبناء نوبل، وهذا يظهر من خلال حادثة مقتل "ساماك" على يد شقيقه فيرموس من أجل تولية العرش.

- قام فيرموس بقتل نفسه نتيجة لاغتيال "إغمازن" له بعد تحالفه مع رومانوس.
 - انقلب جيلدون على السلطة الرومانية، وقطع عليهم المؤن والرقابة بعد تفتنه على السلطة الرومانية، الشيء الذي أدى إلى قتله في الأخير.
- فلاحظ إذاً أن الرومان ضربوا سكان المنطقة ببعضهم البعض للحصول على مصالحهم ومبتغاهم في المنطقة.
- نستنتج أن سكان شمال إفريقيا كانوا دائمي الرّفص للوجود الأجنبي، بحيث عبّروا عن هذا الرّفص بشتى الطُرُق والوسائل دفاعًا عن هوياتهم، ورفض الخضوع للقوانين المُتسلّطة عليهم. الشيء الذي ميّز سكان بلاد المغرب القديم حُبهم للتحرُّر ورفضهم للإستعمار والعبودية.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

قائمة البيبليوغرافيا

أولا-المصادر:

أ-بالغة الأجنبية:

1. Ammien Marcelin, histoire de Rome, livre, XXIX, traduit par, M. Nisard et Ammien Marcelin, et autres, Paris,1860.
2. Augustin (St), Lettres, trad par: M. Poujoulat , Paris1858
3. Augustin (St), Lettre. Contre. Petillien. Livre II, traduit par: M. Raulx, Bar-Le-Duc, et autres, Paris, 1869 .
4. Claudien, La guerre contre Gildon., traduit par M. Nisard, Paris 1837.
5. Augustin (St), Du baptême, contre les Donatistes, Livre I, traduit par: M.Raulx, Bar-le-Duc, Paris,1869

ثانيا: المراجع:

أ- المراجع العربية:

1. محمد البشير شنيطي، أضواء على تاريخ الجزائر القديم، دار الحكمة للطباعة والنشر، الجزائر، 2003.
2. محمد العربي عقون، الإقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008.
3. محمد البشير شنيطي، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، بحث في منظومة التحطم العسكري الليمس الموريتاني ومقاومة المور ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
4. شارل أندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية تونس-الجزائر-المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م، تع: محمد مزالي والبشير بن سلامة، النشرة الرابعة الدار التونسية للنشر، تونس، 1983.

5. عمران عبد الحميد، الرومنة والتدين في شمال إفريقيا، ديوان المطبوعات الجامعية للنشر، الجزائر، 2018.
6. محمد البشير شنيقي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني ودورها في أحداث القرن الرابع ميلادي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
7. محمد المبكر، شمال إفريقيا القديم-حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية (305-429م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط1، الرباط، 2001.
8. محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى غاية الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1992.
9. محمد محي الدين المشرفي، افريقيا الشمالية في العصر القديم، ط4، دار الكتب العربية، وجدة، 1949.

ب-المراجع الأجنبية:

1. François Decret et Mhamed Fantar., L'Afrique de Nord dans l'Antiquité histoire et civilisation des origines au V eme siècle., Editer par La bibliothèque Historique PAYOT, France 1998.
2. Frennd (W.H.C), The Donatist Church.Amovement of protest in roman North Africa, London, Clarendon Press,1952.
3. Leclercq. (Dom. H), L'Afrique Chrétienne, T1, Librairie VICTOR COFERE, Paris 1904.
4. Mercier (E.), Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbère), T1, Paris, Ernest Leroux, 1888.
5. -Monceaux(P), Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne depuis les origines jusqu'à l'invasion arabe, T.4, (LE DONATISME), éditeur Ernest Leroux,Paris 1912.

6. -Warmington (B.H.), The North African provinces from Diocletian to the Vandal conquest, Cambridge, London, 1954.

ثالثا: المقالات:

أ-المقالات باللغة العربية:

1. أبوبكر سرحان، "المقاومة الوطنية المورية للاحتلال الروماني(40-429م)", مجلة الدراسات الإفريقية، ع 42، جويلية 2017.
2. أحمد محمد أنديشة، "اضطهاد الأباطرة الرومان لأتباع الديانة المسيحية"، من المجلة العلمية، المجلد س1، ع1، جامعة مصراتة، يونيو 2014
3. أويحي سعيدة، "مدينة باغاي، قلعة الدوناتيين"، مجلة التاريخ المتوسطي، المجلد 3، ع1، الجزائر، جوان 2021.
4. بن عطا لله عبد الرحمان، "انتشار الديانة المسيحية في افريقيا خلال الاحتلال الروماني وموقف السلطة الرومانية منها"، من مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة تبسة، العدد 11، دت، النشر.
5. جميل حمداوي، "من أبطال المقاومة الأمازغية: ثورة الدوارين"، من مجلة دنيا الوطن، الحلقة العاشرة، 18 أوت 2007.
6. حمودي نبيلة، "الدوناتية ودورها في مقاومة الرومان خلال القرنين 4 و 5 م"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، مجلد 16، ع 4، الجزائر، ديسمبر 2020.
7. حميدة نشنش، "إجراءات الإمبراطور هونوريوس للقضاء على الحركة الدوناتية(393-423م)", مجلة الباحث-المدرسة العليا للأساتذة الشيخ مبارك ميلي-بوزريعة، مج 13، ع1، 25 سبتمبر 2021.
8. عمران عبد الحميد، "ثورة الدوارين الريفية وارتباطها بالحركة الدينية الدوناتية 347-411م في بلاد المغرب القديم"، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة المسيلة، د ع، دت.

9. عمران عبد الحميد، "مقاومات الاحتلال الروماني ثورة فيرموس 372م أنموذجاً"، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، ديسمبر 2016.
10. عيوج زاهية، "الحركة الدوناتية في المغرب القديم ودورها في مقاومة الاحتلال الروماني"، المقاومة الجزائرية عبر العصور، ملتقى دولي قسم التاريخ والآثار جامعة سطيف 11، 2 ديسمبر 2012.
11. محمد المبكر، "حركة الدوارين في شمال إفريقيا في القرنين الرابع والخامس ميلادي"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الرحمان، 7ع، المغرب، 1984.

ب-المقالات بالفرنسية:

1. Bruno Pottier, « **Les Circoncellions. Un mouvement ascétique itinérant dans l'Afrique du Nord des IV^o et V^o siècles** », in Antiquités africaines., N°44, 2008, (pp 43-107).
2. G. Camps, « **Firmus** »,., encyclopédie berbère. Vol n° 19,1998.
3. Laport. (J.P), « **Nubel, Sammac, Firmus, et les autres une famille berbère dans l'empire romain** », L'africa Romana, 16-19 décembre 2010.
4. Modéran (Y.), « **Gildon** »,., Encyclopédie berbère, 1 Octobre 1998.
5. Paul Albert Février, «**Toujours le donatisme. A quand l'Afrique ? (Remarque sur l'Afrique à la fin de l'antiquité, a propos du livre de E. Tengestron)** ». L'école française de Rome, n° 225, 1996, pp (699-711).

6. Saumagne(CH)., « **Ouvrières Agricolos ou rôdeur de celliers ? Les circoncillions d'Afrique** », A.H.E.S., T. VI, n°28,1934
7. Serge Lancel., « **Les circoncillions** », Encyclopédie Berbère.Vol 13,1994, document C 70, le 01 Mars 2012.
8. Vannier. O., « **Les Circoncillions et leur rapport avec l'église donatiste d'après le texte d'Optat** », Rev.Af., n° 67, 1926.

رابعاً: قائمة المعاجم والقواميس باللغة الفرنسية:

1. Bouillet (M.N.), Dictionnaire Universel d'Histoire et de Géographie, Paris, librairie hachette, 1878.
2. Claude Augé, Larousse universel en deux volume, T 1, librairie Larousse, Paris,1922.
3. Henri Chirat, Dictionnaire LATIN-FRANÇAIS des auteurs chrétiens, Librairie des Méridiens, Paris.

خامساً: قائمة المذكرات باللغة العربية:

أ- أطروحات الدكتوراه:

1. أويحي سعيدة، الديانة المسيحية في المغرب القديم من نهاية القرن الثاني إلى بداية القرن الخامس الميلادي (180-411) قرطاج ونوميديا أنموذجاً، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ القديم، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر2، 2016-2017.
2. حمودي نبيلة، مقاومة المور للاحتلال الوندالي، أطروحة دكتوراه تخصص تاريخ الحضارات القديم، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر 2، 2019، 2020.

3. الربيع عولمي، المسيحية في بلاد المغرب القديم ودورها في أحداث القرنين الرابع والخامس الميلاديين، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ القديم، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة باتنة 1، 2015-2016.
4. زموري خديجة، القديس أغسطس بين السلطة الرومانية والمجتمع المحلي، أطروحة الدكتوراه، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة 8 ماي 1945 قالمة، 2017-2018.
5. زموري خديجة، القديس أغسطس بين السلطة الرومانية والمجتمع المحلي، أطروحة دكتوراه في تخصص التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قالمة، 2017-2018.
6. عمران عبد الحميد، الديانة المسيحية في المغرب القديم، النشأة والتطور (180-430 م) أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ القديم، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2010-2011.

ب- أطروحات الماجستير:

1. بوقفة نور السدات، سياسة روما الثقافية في بلاد المغرب القديم وموقف السكان منها (146-430م)، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والإسلامية الجامعة الإفريقية أحمد درارية، أدرار، 2015-2016
2. حميدة نشنش، رجال الدين في بلدان المغرب القديم من ظهور المسيحية في نهاية القرن الثاني ميلادي إلى غاية السلام المسيحي سنة 313 م من خلال ترتوليانوس (Tertulianus) كيبيريانوس (Cyprianu)، مذكرة الماجستير في التاريخ القديم، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2008-2009،
3. منصور خديجة، الدوناتية وثورات القرن الرابع في شمال إفريقيا، رسالة ماجستير، دائرة التاريخ، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، 1986-1987.

ج- المذكرات باللغة الأجنبية:

1-OLIVER. HEKSTER, COMMODUS AN EMPEROR AT THE CROSSROAD, doctorat thesis at Nignegen university, 10-04-2002, Netherland.

سادسا: قائمة المواقع الإلكترونية:

<http://search.mandumach.com/Record/764779>

<https://commons.wikimedia.org>

<https://www.persee.fr>

<https://galica.bnf.fr>

<https://remacle.org>

الفهارس

- 1- فهرس الخرائط
- 2- فهرس الصور
- 3- فهرس الأعلام و الأماكن والمدن
- 4- فهرس المحتويات

فهرس الخرائط

1. خريطة منافذ المسيحية إلى بلاد المغرب القديم.....12
2. خريطة انتشار الكنائس خلال القرن الأول ميلادي..... 22
3. خريطة انتشار الكنائس خلال القرن الثاني ميلادي..... 22
4. خريطة مجال حركة الدوارين في القرنين الرابع والخامس ميلادي.....38
5. خريطة انتشار الحركة الدوناتية في بلاد المغرب القديم.....73
6. خريطة موقع باغاي.....98
7. خريطة قبائل البوار والحلف الخماسي خلال القرن الرابع ميلادي.....133
8. خريطة مناطق نفوذ نوبل وأسرته.....138
9. خريطة مواقع مسارات القبائل التي سلكها ثيودوسيوس.....141
10. خريطة المجال الجغرافي لثورة فيرموس وحملة ثيودوسيوس..... 145
11. خريطة موقع المعركة الفاصلة بين جيش جيلدون وقوات ماكزيسيل.....153

فهرس الصور

1. الإمبراطور نieron..... 16
2. الإمبراطور تراجانوس..... 16
3. الإمبراطور ماركوس أوريليوس..... 17
4. الإمبراطور دوميتيانوس..... 17
5. سييتيموس سيفروس..... 21
6. الإمبراطور ديوكليتيانوس..... 21
7. القديس أغسطين..... 30

واجهة فهرس الأعلام والأماكن والمدن

1- فهرس الأعلام:

- أ -

- أبطا الميلي: 31. 44. 45. 50. 52. 74. 86. 87. 88. 100. 101. 102. 104. 106. 107.
- أنوليوس: 81. 82.
- أذربعل: 135.
- أركاديوس: 150. 152.
- أغسطسين: 24. 25. 28. 31. 35. 36. 37. 44. 54. 55. 56. 57. 60. 62. 74. 78.
83. 84. 86. 102. 105. 112. 113. 114. 115. 116. 117. 118. 119. 120. 121. 125. 127. 129.
- إغمازن: 144. 148.
- أكسيدو: 31. 53. 61. 62. 76. 84. 86. 102. 104.
- القديسة ميلانيا: 124.
- أمبروزيوس: 57.
- أميان مارسلان: 132. 134. 142.
- أوبطاطوس الجيلدونني: 116. 126.
- أوبطاطوس التاموغادي: 154.
- أوغسطينوس: 122.
- أولومبيوس: 82.
- أونوميوس: 82.

- ب -

- بارمينيانوس: 31 .74 .83 .107 .116.
- بالانس: 142.
- بروبنوس: 149.
- برونو بوتى: 36 .38.
- بريسون: 33 .44 .53 .87 .91 .92 .93 .94 .106 .107 .118 .127.
- بول ألبرت فيفري: 37 .39.
- بولس: 54 .84 .99 .100 .103 .105 .106 .136.
- بونيفاكوس: 55 .61.
- بيتيليانوس: 74 .78 .119 .125.

- ت -

- تراجانوس: 11 .10 .15 .18.
- تنغستروم: 33 .34 .41.
- تورينوس: 53 .84 .85 .87 .89 .90 .91 .94 .101.
- تيباسيوس: 20.

- ث -

- ثيودوسيوس: 58 .126 .137 .139 .140 .141 .142 .144 .148 .150 .151 .152.

- ج -

- جيلدون: 75 .130 .139 .149 .152 .154.

- د -

- دماسوس: 58.

- دوميتيانوس: 14.

- دوناتوس: 65 .72 .74 .81 .82 .83 .100 .104 .105 .107 .110 .122.

- دونا القرطاجي: 65.

- ديكيوس: 18.

- ديوس: 134 .140.

- ديوكليتيانوس: 10 .19 .23 .81 .70 .71 .109.

- ز -

- زاماك: 134 .135.

- زينوفيلوس: 79 .80 .85.

- س -

- ستيفانوس: 58 .84.

- ستيليكون: 150.

- سيبتيموس سيفروس: 18.

- سيرج لونصل: 39 .79 .80.

- سيرفوس: 113.

- سيلفانوس: 79 .80 .84.

- سيلفستر: 100 .105 .111.

- ش -

- شارل صوماني: 33 .39 .40 .41.

- غ -

- غابريال كامبس: 137.

- غراتوس: 103 .110.

- غراتيانوس: 147.

- غودينتيوس: 54.

- ف -

- فابيانوس: 18.

- فاسير: 31 .53 .61 .62 .66 .76 .86 .87 .102 .104 .104.

- فالريان: 135.

- فالنتيان الأول: 137 .147.

- فاليريانوس: 11 .18.

- فانيي: 39 .40 .44 .53 .54 .87 .89 .93 .94 .104 .107 .111.

- فرانسا دوكرية: 56.

- فروند: 28 .41.

- فريكيوس: 142.

- فيرموس: 75 .129 .130 .131 .134 .135 .136 .137 .139 .142 .143 .144.

.145 .146 .147 .148 .149 .150 .154.

- فيليسيوس: 23.

- فينيكينتيوس: 139.

- ق -

- قسطنطين: 70 .72 .82 .84 .90 .91 .99 .104.

- قنسطانس: 55 .70 .72 .82 .90 .91 .99 .103 .137.

- ك -

- كايكيليانوس: 23 .69 .70 .81 .82 .96 .100.

- كريسكونيوس: 78 .113 .114 .119.

- كلاروس: 91 .92 .93 .109 .127.

- كلوديانوس: 150 .151.

- كورنيليوس: 23.

- كومودوس: 10.

- كيبريانوس: 18 .24 .56 .72 .88 .89.

- كيريا: 134 .142.

- ر -

- رومانوس: 134 .135 .139.

- ل -

- لوكيوس سيفروس: 10.

- لوكيلا: 69.

- م -

- ماجورينوس: 23 .81.
- ماجورينوس: 69.
- مارتروي: 105.
- ماركلوس: 55 .99 .100.
- ماركوس أوريليوس: 14.
- مازوكا: 134 .137 .143.
- ماغنوس: 24.
- ماكروبيوس: 36 .117 .128 .120 .121.
- ماكزيسيل: 134 .140 .152.
- ماكسيموس: 139.
- ماكسيميانوس: 115.
- محمد المبكر: 28 .52 .79 .91 .93 .94 .100 .101 .106 .121 .122.
- مكاريس: 54 :84 :99 .100 .103 .105 .106 .137.
- مونصو بول: 39 .40 .66 .83 .84 .85 .86 .93.
- مونصوريوس: 23 .68 .71.
- مونيك: 57.

- ن -

- نابور الشماس: 59.
- نوبل: 131 .132 .134 .140 .149.

- نونديناريوس: 79 .80.

- نيرون: 13.14.

- نيكوماكوس فلافيوس: 147.

- ه -

- هادريانوس: 14 .15.

- هونوريوس: 33 .36 .40 .75 .105 .113 .114 .123 .150 .152 .154.

- ي -

- يوغرطة: 135.

- يولييانوس: 60 .110 .126 .147.

2- فهرس الأماكن والمدن:

- أ -

- أبتينا: 23 .56 .71.

- أبيدوم: 144.

- إساليينسيس: 144.

- إسفلانسيس: 143 .144.

- إفريقيا: 24 .27 .42 .45 .47 .48 .52 .54 .58 .66 .67 .68 .70 .75 .81 .84 .99.

106 .109 .110 .111 .137 .146 .147 .149 .151 .152.

- أكتافا: 52 .84 .85 .89 .90 .91 .92 .93 .95 .97 .104 .121.

- أدنس: 142.

- الأوراس: 75 .100 .105.
- البروقنصلية: 93 .102.
- البوار: 130.
- القسطنطينية: 128.
- المغرب القديم: 56 .57 .65 .72 .83 .103 .104 .122 .130 .150.
- المور: 136 .136 .150.
- اليوباليني: 144 .149.
- أميادارا: 152.
- أوديانس: 144.
- أوروبا: 121.
- أوزيا: 131 .137.
- إيطاليا: 58 .70.
- إيكوزيوم: 137 .140.

- ب -

- باغاي: 40 .44 .50 .60 .76 .97 .98 .99 .100 .102 .104 .107 .109 .110 .111 .113.
- بانكريانا: 140.
- بلاد الغال: 81.
- بيترا: 136 .140.

- ت -

- تامو غادي: 154 .79 .54.

- تانزاموسا: 137.

- تبسة: 10.

- تغافا كاسترا: 142 .132.

- تيبازة (تافزة): 142 .137 .132.

- تيندن: 140.

- ث -

- ثاغاست: 124.

- ثوبور سيكوبور: 114.

- ثوبوسيكوتو: 140 .137.

- ثنية: 140.

- ج -

- جبال البيبان: 149.137.

- جبال التيطري: 137.

- جبال الونشريس: 147 .145.

- جيجل: 139 .137 .131.

- خ -

- خط الليمس: 48.

- د -

- ديوديانس: 144.

- ر -

- رابيدوم: 137.
- رسكونيا: 132 .137.
- روزوبيكاري: 148.
- روما: 13 .18 .23 .48 .53 .58 .68 .69 .70 .71 .110 .115 .135 .147 .149 .150 .151 .155.

- ز -

- زوكابار: 142 .147.

- س -

- سطيف: 137 .139 .144 .147.
- سوبولوس: 91 .92 .93 .96 .109 .127.
- سور الغزلان: 137 .144.
- سوفيتولا: 58.
- سيرتا: 44 .76 .79 .80 .81 .83 .104.

- ش -

- شرشال: 137 .139 .140.
- شلف (كاستولوم طنجيطانوم) - (الاصنام): 132 .137 .142 .145.

- ص -

- صلداي: 136 .137.

- ع -

- عين الدفلى: 132.

- ف -

- فلسطين: 56.

- ق -

- قرطاج: 23 .31 .56 .16 .66 .69 .71 .72 .75 .82 .84 .85 .102 .108 .110.

.114 .116 .124 .152.

- قرطنة (تنس): 131 .139.

- قصر بيترا: 138 .139.

- قيصرية: 57 .137 .132 .137 .140 .143.

- ك -

- كامبانيا: 58.

- كبريانسيس: 143.

- كونتينسيس: 143.

- ل -

- لبدة: 135.

- لمباز: 131 .137.

- م -

- ماسينسيسن: 140.

- متيجة: 140.

- مديانوم: 144.

- مسيلة: 131. 137.

- موريتانيا السطايفية: 93.

- موريتانيا الطنجية: 130.

- موريتانيا القيصرية: 130. 131. 137. 145. 149.

- موريتانيا: 28. 61. 99. 152.

- ميلانو: 57. 58. 59. 90.

- ن -

- نهر التبير: 152.

- نوميديا: 28. 41. 42. 52. 62. 69. 71. 79. 81. 89. 91. 92. 93. 99. 101. 104.

106. 110. 111. 112. 113. 115. 130. 135. 145.

- ه -

- هيبو-ريجوس (عنابة): 36. 63. 107. 113. 117. 120.

فهرس المحتويات

| الموضوع | رقم الصفحة |
|--|------------|
| مقدمة..... | أ-ح |
| الفصل التمهيدي: الأوضاع العامة في المغرب القديم قبيل ظهور حركة الدوارين..... | 9 |
| أولاً: الأوضاع الإجتماعية..... | 11 |
| ثانياً: الأوضاع الدينية..... | 18 |
| ثالثاً: بوادر الإنشقاق..... | 23 |
| أ- مشكلة المرتدين..... | 23 |
| ب- مشكلة الإنشقاق داخل الكنيسة..... | 23 |
| ج- مشكلة التعميد..... | 24 |
| الفصل الأول: ماهية حركة الدوارين..... | 26 |
| المبحث الأول: مفهوم الدوارين لغة واصطلاحاً..... | 27 |
| أولاً: مفهوم الدوارين لغة..... | 27 |
| ثانياً: مفهوم الدوارين اصطلاحاً..... | 28 |
| المبحث الثاني: مفهوم الدوارين في المصادر الكاثوليكية..... | 31 |
| المبحث الثالث: مفهوم الدوارين في المصادر الحديثة..... | 39 |
| -فرضية بول مونصو (P. Monceaux)..... | 39 |
| -فرضية صوماني (CH. Saumagne)..... | 40 |
| -فرضية بول ألبرت فيفري (P. A. Fevrier)..... | 41 |

| | |
|----------|--|
| 44..... | المبحث الرابع: التسميات التي أطلقها الدوارون على أنفسهم. |
| 46 | الفصل الثاني: حركة الدوارين (طبيعتها ونشأتها) |
| 47..... | المبحث الأول: أسباب ظهور حركة الدوارين..... |
| 47 | أولاً: العامل الديني..... |
| 47 | ثانياً: العامل الإقتصادي..... |
| 50..... | المبحث الثاني: السمات الطبيعية والاجتماعية لحركة الدوارين..... |
| 53..... | أولاً: سمات الدوارين الدينية..... |
| 53 | ثانياً: الانتحار الإرادي والإستشهاد عند الدوارين وتناقضات أغسطسين..... |
| 56 | ثالثاً: ظاهرة تقديس الشهداء..... |
| 60..... | المبحث الرابع: حركة الدوارين بعد سنة 347 م (أحداث باغاي –الإستمرارية)..... |
| 64..... | الفصل الثالث: علاقة حركة الدوارين بالحركة الدوناتية..... |
| 65 | المبحث الأول: إنشقاق الدوناتية في تعاملها مع الدوارين..... |
| 65..... | أولاً: تعريف الحركة الدوناتية..... |
| 66 | ثانياً: أسباب وعوامل ظهور الحركة الدوناتية..... |
| 67 | 1-العامل الإقتصادي..... |
| 68 | 2-العامل الديني..... |
| 70 | ثالثاً: مراحل تطور الحركة الدوناتية..... |
| 71 | المرحلة الأولى: الظهور والإنشقاق..... |
| 74..... | المرحلة الثانية: الممتدة من 347 م إلى غاية 411 م..... |

| | |
|-----|---|
| 75 | رابعاً: بداية التلاحم بين حركة الدوارين والحركة الدوناتية..... |
| 78 | المبحث الثاني: العلاقة بين حركة الدوارين والحركة الدوناتية قبل سنة 347 م..... |
| 78 | أولاً: محاولات تحديد بداية حركة الدوارين..... |
| 86 | ثانياً: تناقضات أوطبا الميلي..... |
| 89 | ثالثاً: قضية الإنتماء الديني للدوارين..... |
| 99 | المبحث الثالث: أحداث باغاي سنة 347 م..... |
| 112 | المبحث الرابع: علاقة بين حركة الدوارين والحركة الدوناتية بعد سنة 347 م..... |
| 129 | الفصل الرابع: ثورتي فيرموس وجيلدون وعلاقتهما بثورة الريفيين..... |
| 131 | المبحث الأول: ثورة فيرموس (الإطار التاريخي)..... |
| 131 | أولاً: ماهية ثورة فيرموس..... |
| 134 | ثانياً: أسباب ثورة فيرموس..... |
| 137 | المبحث الثاني: الإطار العام لثورة فيرموس وعلاقتها بثورة الريفيين..... |
| 139 | أولاً: مراحل ثورة فيرموس..... |
| 146 | ثانياً: ارتباط ثورة فيرموس بثورة الريفيين..... |
| 149 | المبحث الثالث: ثورة جيلدون (الإطار التاريخي)..... |
| 149 | أولاً: شخصية جيلدون..... |
| 151 | ثانياً: أسباب ثورة جيلدون..... |
| 154 | المبحث الرابع: ثورة جيلدون وعلاقتها بثورة الريفيين..... |
| 157 | خاتمة..... |

| | |
|----------|-----------------------|
| 161..... | قائمة البيليو جرافيا |
| 169..... | الفهارس |
| 170..... | فهرس الخرائط |
| 172..... | فهرس الصور |
| 174..... | فهرس الأعلام |
| 181..... | فهرس الأماكن والبلدان |
| 188..... | فهرس الموضوعات |

الملخص:

يتناول بحثنا هذا دراسة تاريخية حول حركة الدوارين في الفترة التي تتراوح بين سنة 305 م إلى غاية سنة 429 م، بحيث استهلنا هذا البحث بفصلٍ تمهيدي أشرنا في إلى الأوضاع العامة السائدة في بلاد المغرب القديم قُبيل ظهور حركة الدوارين، سواء الأوضاع الاجتماعية المزرية التي تبنتها السلطة الرومانية من ظُلمٍ واستبدادٍ والإستيلاء على الأراضي وكذا الاستغلال الطبقي، كما أشرنا إلى الأوضاع الدينية والحالة العامة التي كان عليها المسيحيين آنذاك، بحيث كان موقف السلطة الرومانية اتجاه الديانة المسيحية معاديا لها ولمبادئها التي جاءت بها، بحيث أنها لم تكن تخدم مصالحها. فرضت العبادة الوثنية وعبادة الإمبراطور بالقوة، وبدأت بذلك سلسلة من الإضطهادات التي عرفتها المنطقة والتي تخللتها فترات من الأمن والسلم بفضل سياسة التسامح الديني التي انتهجها بعض الأباطرة الرومان.

ثم تطرقنا إلى بوادر الإنشقاق وعرضنا فيه مشكلة المرتدين التي ظهرت نتيجة لإضطهادات ديوكليتيانوس للمسيحيين ونتيجة للخوف وقلة الإيمان، الأمر الذي أدى إلى ظهور مشكلة الانقسام داخل الكنيسة الإفريقية بسبب تسليم الكتب المقدسة للسلطة، ومن مظاهر الإنشقاق ذكرنا مشكلة التعميد التي عرضت الوحدة الكاثوليكية للخطر. ثم انتقلنا إلى الفصل الأول الذي خصصناه للتعريف بالدوارين وذكر ماهيتهم، فأشرنا إلى مفهوم الدوارين لغةً واصطلاحاً ووضحنا أن هذه الكلمة اشتُقت من كلمة Circumcillion المكونة من جزأين (Circum) بمعنى "دائرين حول"، و (Cella) يعني "مستودع المؤن"، وبالتالي فإن المعنى اللغوي للكلمة يعني "الدائرين حول مستودع المؤن"، ليتطور مدلول الكلمة ويصبح معناها اصطلاحاً "الطواف حول أضرحة الشهداء" أو "رهبان يتجولون حول الأديرة".

ثم أشرنا إلى مفهوم الدوارين حسب المصادر الكاثوليكية (أوبطاميلي والقديس أغسطين)، وكذا الدراسات التي قام بها الكتاب المعاصرين الذين نقلوا عن تلك المصادر، ونذكر من بينهم (أوديت فانيي)، (شارل صوماني)، (برونو بوتتي)، (بول مونصو)، (بول ألبرت فيفري)، بحيث يوحون إلى هذه الطائفة بأنهم مغامرين رُحُل يعيشون من التلصُّص ومحبو الطواف حول الضيعة ومخازن المؤن، والذين يطلقون على أنفسهم اسم "المصارعين"

(Agonisticii) أو جنود المسيح (Milites Christi) ، كما أشير إليهم على أنهم قُطاع طرق مسلحين يقتحمون المزارع، ويتحرشون بالأشخاص الشرفاء، أما البعض الآخر يرون أنهم يعملون في الأراضي الكبيرة خلال مرسم لحصاد. في حين أنهم يفضلون أن يُطلقوا على أنفسهم اسم "المصارعين" (Agonisticii) الذي يشير إلى القوة الجسدية والفعالية في القتال، أو "جنود المسيح" (Milite Christi) الذي يشيرون به إلى المذهب الذي ينتمون إليه.

أما فيما يخص الفصل الثاني الذي كان تحت عنوان حركة الدوارين (نشأتها وطبيعتها)، تطرقنا فيه إلى العوامل التي أدت إلى ظهور هذه الحركة؛ من عوامل دينية والمتمثلة في اعتناق سكان المنطقة للديانة المسيحية، فارين من الديانة الوثنية ومن بطش السُلطة، ثم أوحينا إلى الإستغلال الإقتصادي والإجتماعي الذي عرفته منطقة بلاد المغرب القديم من قِبَل الاستيطان الروماني الذي قام بامتصاص ثروات المنطقة، بحيث أصبحت خزاناً لروما، إلى جانب انتزاع الأراضي من الفلاحين الذين أصبحوا عمالاً في الأراضي التي سُلِبَت منهم، الأمر الذي أدى إلى تدهور الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية في المنطقة، وبالتالي إستياء السكان المتضررين؛ ما دفعهم إلى الإحتجاج مطالبين بحقوقهم لإسترجاع أملاكهم. ثم ذكرنا السمات الإجتماعية والدينية التي تميز بها الدوارين، بحيث أنهم كانوا ذو مبادئ في تصرفاتهم بعملياتهم الغير العشوائية والمنظمة وبدفاعهم عن الطبقة الكادحة والمظلومة. وأشرنا إلى الإنتحار والإستشهاد الإرادي لدى الدوارين، وكذا ظاهرة تقديس الشهداء ورفاتهم وإقامة أضرحة لهم في الكنائس، الأمر الذي عرف إنتشاراً واسعاً بين المسيحيين في المغرب القديم.

وبعد ذلك عرضنا الأحداث التي جرت بعد سنة 347 م، وذكرنا فيها التهم الموجهة للدوارين، كإحراق الكنائس والكتب المقدسة وتعذيب الضحايا والتعرض للعامة والتي كان يقوم بها زعمائهم "أكسيدو" و "فاسير".

وفي الفصل الثالث سلطنا الضوء على علاقة حركة الدوارين بالحركة الدوناتية وعرفنا في البداية الحركة الدوناتية على أنها تيارٌ ديني مستقل ممتنع عن الإمتثال لأوامر الإمبراطور ومحافظ على المبادئ الأصلية للمتصرين الأوائل، ثم أشرنا إلى أسباب وعوامل ظهور الحركة الدوناتية التي ذكرنا فيها العوامل الدينية والاقتصادية، والتي نلاحظ أنها تقريبا كانت

نفس الأسباب التي أدت إلى ظهور الدوارين. وعرضنا بعدها مراحل تطور الدوناتية، والتي تنقسم إلى مرحلتين؛ مرحلة الظهور والانشقاق العائدة إلى زمن ديوكليتيانوس، والمرحلة الثانية التي كانت في عهد الإمبراطور قنسطانس والتميزة بتحالف السلطة مع الكنيسة من جهة، وتحالف الكنيسة الدوناتية مع الدوارين من جهة أخرى، نتيجة لتردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بلاد المغرب القديم، والتي ساندت كل منها الأخرى.

ثم ذكرنا العلق التي كانت بين الحركة الدوناتية وحركة الدوارين، فحاولنا أولاً تحديد بداية حركة الدوارين التي نستنتج أن معلمه اتضحت سنة 320 م ووجدهم كان واقعياً حوالي سنة 340 م، وظهور هذه الحركة كان بين سنتي 320م و340 م. ثم ذكرنا تناقضات أبطا الميلي حول التحالف بين الدوارين والدوناتية، وتطرقنا إلى قضية الإنتماء الديني للدوارين، وبعدها مباشرةً أشرنا إلى منعرج باغاي الذي يُعدُّ حدث مهم في تاريخ حركة الدوارين ودو أثر حاسم في تطوير العلاقة بين الدارين والدوناتية، وتعرضنا إلى أهم النقاط الخاصة بهذا الحدث، والذي تحدثنا فيه عن ردود فعل الموحد بين الطرفين على المبعوثين الإمبراطوريين (مؤسسي الوحدة)، وأعمال العنف التي جرت بين الطرفين. وتحدثنا عن التمردات التي قام بها الدوناتيين والثوار الريفيين وعمليات القمع التي قام بها المبعوثان.

وتطرقنا إلى العلاقة بين الدوارين والدوناتيين بعد سنة 347 م، حيث شُهد تلاحم بين الطرفين لدرجة أن الدوارين صاروا يشكلون رؤوس رماح الدوناتيين، وهذا حسب ما ذكرته نصوص القديس أغسطين، حيث يظهر من تلك النصوص أن أغسطين يُحمل الدوناتيين مسؤولية عنف الدوارين وذلك لقدرتهم على التأثير عليهم.

أما فيما يخص الفصل الرابع والأخير، خصصناه لثورتي فيرموس وجيلدون وعلاقتهما بثورة الريفيين، وأشرنا في البداية إلى ماهية ثورة فيرموس التي تتراوح بين سنة 372 م إلى غاية 375 م، وذكرنا بعض الوثائق الأثرية التي أشارت إلى حركته، وعرضنا بعدها أسباب اندلاع ثورته، وذكرنا السبب الرئيسي لوقوعها، والذي يرجحه المؤرخون إلى تدخل الكونت رومانوس بين أبناء نوبل لإثارة الفتنة بينهم، وكذا مساندته لزاماك ضد أخيه فيرموس الذي أدى إلى قتل هذا الأخير. كما ذكرنا الأسباب الثانوية مثل الأوضاع المتردية، والصراع

المذهبي بين الطبقات، ثم ذكرنا الإطار العام لثورة فيرموس وعلاقتها بثورة الريفين، حيث أشرنا إلى الموقع الجغرافي الذي شملته ثورته حسب دراسة كامبس (G. Camps)، ثم أشرنا إلى مراحل ثورة فيرموس ضد الرومان.

ثم تطرقنا إلى العلاقة بين ثورة فيرموس وثورة الريفين الذين قدموا الدعم اللازم لهذه الحركة. وخصصنا الجزء الثاني من الفصل لدراسة ثورة جيلدون، حيث عرفنا في البداية شخصية هذا الأخير والأوضاع التي ترعرع فيها مع ذكر الظروف المضطربة والمتدهورة التي كانت عليها روما حسب ما جاء في رواية الشاعر اللاتيني "كلوديان" (Claudian)، حيث اعتمد الرومان على منطقة بلاد المغرب القديم لتعويض أنفسهم، كما تناولنا التقسيمات التي قام بها الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس بين أبنائه، وعرضنا بعد ذلك للأسباب التي أدت لنشوب ثورة جيلدون، حيث ذكرنا السبب الرئيسي الذي يكمن في رفض هذا الأخير طلب الإمبراطور ثيودوسيوس سنة 392 م بمده بالمساعدات والمحابين أثناء حربه ضد الوثني "يوجين". كما تحدى جيلدون لمراسيم الإمبراطورية الرومانية واستغلى فترة القحط التي كانت تعاني منه لضربها بسلاحها، مما دفع بمجلس الشيوخ لضرب الأهل ببعضهم البعض، بحيث استعانت روما بماكزيسيل لضرب جيلدون.

وختمنا الفصل بعرض علاقة جيلدون بالريفين، بحيث أنه وجد فيهم تطلعات تناس سياسة مشروع مقاومة روما، فتوحد الهدف والمسعى في ثورة شملت أطرافا عديدة ضمت الأمير جيلدون والقبائل المتحالفة والحركة الدوناتية بالإضافة إلى الطبقة العامة من الدوارين.

وأخيرا أشرنا إلى بعض النتائج التي ختمنا بها موضوعنا.